أنصار النبي ﷺ

العدد ٥ أكتوبر ٢٠٢٢ ربيع الأول ١٤٤٤

الأمين العام للهيئة
د. محمد الصغير

رئيس التحرير
محمد إلهامي

تصدر عن
الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ



"افتتاحية هذا العدد، بقلم الإمام يوسف القرضاوي رحمه الله"

نبي الرحمة ﷺ
د. يوسف القرضاوي

رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ
د. محمد الصغير

عالَمٌ بغير محمد ﷺ.. كيف يكون؟!
محمد إلهامي

حقوق الحيوان في سُنة الرسول ﷺ
د. عبد الحي يوسف

مِنة الله على المؤمنين
الأستاذ سيد قطب

وغيرها من المقالات ...

مجلة أنصار النبي ﷺ

تصدر عن الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ



الهيئة العالمية لنصرة نبي الاسلام
International Organization to support the Prophet of Islam

أهداف الهيئة

تضع الهيئة هدفها الرئيسي على هذا النحو:

«أن يكون جناب النبي ﷺ مصوناً محترماً، وأن تكون الإساءة إليه مجرمة قانوناً في سائر أنحاء العالم» وهو الهدف الكبير الذي يحتاج إلى عمل ضخم ودؤوب على كافة المستويات.

وقبل الوصول إليه لا بد من إنجاز مراحل مهمة في التعريف بالنبي ﷺ، كذلك لا بد من إنجاز مراحل مهمة في حشد الجهود مع المسلمين والعقلاء من غير المسلمين لتجريم الإساءة إلى النبي ﷺ قانونياً في البلدان المختلفة، وهو الأمر الذي يتطلب خبرات متنوعة عالية المستوى.

السياسة العامة لعمل الهيئة

إن قضية نصرة النبي ﷺ قضية كبيرة لا يمكن أن تنهض بها جهة واحدة مهما بلغت من القدرات والإمكانيات، وكذلك فإن «الهيئة العالمية لنصرة النبي ﷺ» اختطّت لنفسها سياسة عامة تقوم على تفعيل الطاقات الإسلامية واستثمارها والتنسيق بينها، بحيث تبلغ المجهودات المبذولة في نصرة النبي ﷺ أقصى نتائج ممكنة.

تضع الهيئة نفسها في موضع التنسيق والتنظيم بين المؤسسات الإسلامية المختلفة لتأدية واجب نصرة النبي ﷺ، فهي تعمل -على سبيل المثال- على استثمار طاقة الجاليات الإسلامية المقيمة في البلاد المختلفة لحصر أهم الشبهات والقضايا المثارة عن النبي ﷺ والتي تحتاج مجهودا علميا وفكريا لتفنيدها، ثم تعمل على حث طاقة المؤسسات العلمية من الجامعات الإسلامية والمعاهد والأكاديميات والروابط العلمائية على معالجة هذه الشبهات، ثم تعمل على تحويل هذا المجهود الفكري والعلمي إلى معالجات فنية متنوعة: مقروءة ومسموعة ومرئية قريبة إلى لغة العصر والمزاج العام السائد لدى الرأي العام المعاصر، وذلك عبر حث الطاقات القائمة في مجال الإعلام والإنتاج الفني لدى المؤسسات الإسلامية على معالجة هذه الأفكار. تستثمر هذه الأطراف جميعها طاقاتها الموجودة فعلاً في تسويق المنتجات النهائية.

وبهذا تتوجه المجهودات والطاقات القائمة نحو هدف نصرة النبي ﷺ بطريقة فعالة ومنسقة، حيث تؤدي كل جهة دورها الذي تحسنه.

محتويات العدد

أنصار النبي ﷺ
(هو الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبِالْمُؤْمِنِينَ)

تصدر عن الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

AnsarMagazine



الأمين العام للهيئة
د. محمد الصغير

رئيس التحرير
محمد إلهامي



علماء الهيئة

نبي الرحمة ﷺ — ٥
د. يوسف القرضاوي

رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ — ١٢
د. محمد الصغير

عالَمٌ بغير محمد ﷺ.. كيف يكون؟! — ١٨
محمد إلهامي

بين يدي المولد — ٢٦
الشيخ سامي الساعدي

فضل النبي ﷺ في نهضة العرب — ٣٦
د. أحمد موفق زيدان

حقوق الحيوان في سُنة الرسول ﷺ — ٤١
د. عبد الحي يوسف

ثبات النبي ﷺ في مواجهة الأذى — ٤٨
د. علي محمد الصلابي

فضل النبي على النبات — ٥٣
الشيخ حسين عبد العال

هل خُلق النبي ﷺ من نور؟ — ٥٧
الشيخ مختار بن العربي مؤمن

معالم الرحمة النبوية تجاه الضعفاء وذوي الحاجة — ٦٧
الشيخ شكري مجولي

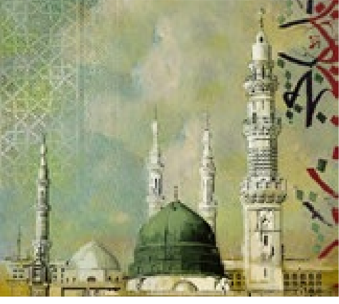
بعثة النبي ﷺ.. والنور للبشرية — ٧٥
الشيخ حسن قاطرجي

الهجرة النبوية رؤية مختلفة (٣) — ٧٩
د. عبد السلام البسيوني

العلاقة بين الحاكم والمحكوم في مجتمع المدينة المنورة — ٨٦
أ.د. جلال الدين محمد صالح

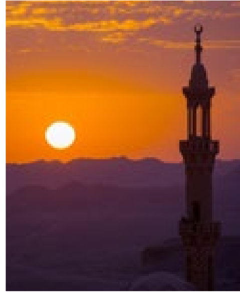
السراج المنير وأثره في واقعنا المعاصر — ٩٢
الشيخ عبد الله الطبلوهي

كمثل الغيث — ٩٧
الشيخ أحمد عبد الكريم










أئمة الهدى

رسالة محمد ﷺ — ١٠٤
الأستاذ الإمام محمد عبده

مِنة الله على المؤمنين — ١١٣
الأستاذ سيد قطب

عناية الرسول ﷺ بأهل الصُفَّة — ١٢٣
د. حارث سليمان الضاري

نظرة فلاسفة ومفكري أوروبا لنبي الإسلام محمد — ١٣٥
شكيب أرسلان

في ذكرى المولد النبوي الكريم — ١٤٨
الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس

رسول الإسلام كيف صدّقت أفعاله أقواله؟ — ١٥٥
السيد سليمان الندوي الحسيني

غيثٌ.. أصاب أرضاً — ١٦٣
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

التسامي والأمة في دعوة الرسول ﷺ — ١٦٦
الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي

الصادعون بالحق

رضيتُ بمحمد ﷺ رسولاً — ١٧٦
د. ناصر بن سليمان العمر

النبي ﷺ مع أولاده وأحفاده — ١٨١
الشيخ صالح بن محمد آل طالب

فضل النبي كما يظهر من أسمائه ﷺ — ١٨٧
الشيخ الداعية سمير مصطفى

دلائل محبة الرسول ﷺ — ١٩٤
د. أحمد بن عبدالرحمن الصويان

الإسلام رسالة تغييرية — ٢٠٣
الشيخ أشرف عبد المُنعم

الصدقة المتعثرة — ٢١٧
د. عمر بن عبد الله المقبل

خيرُ قلبٍ — ٢٢١
م. أيمن عبد الرحيم

كيف علمنا النبي ﷺ اختيار الرجال؟ — ٢٢٦
أنس السلطان

ترحب مجلة « أنصار النبي ﷺ » بمشاركات السادة القراء الكرام على هذا النحو:

١ كتابة المقال، وأن يكون مقالاً لا تنقصه الرصانة العلمية ولا العاطفة الدعوية، على ألا يتجاوز في أقصى الأحوال ١٥٠٠ كلمة، مذيلاً بالاسم الحقيقي لصاحبه.. ويتعلق بموضوع المجلة عن التعريف بالنبي ﷺ وشمائله وفضائله وأخلاقه ورحمته بأمته والتذكير بحقه وواجبات الأمة نحوه، والدفاع عن سنته ومحبة آل بيته وصحابته، ورد الشبهات عنه.

٢ ترشيح مادة كتبها عالم من العلماء الراحلين، أو من المؤسسات الإسلامية العريقة كالأزهر في مصر وهيئة كبار العلماء في الجزيرة وندوة العلماء في الهند تتعلق بموضوعات المجلة.. مع التوثيق الدقيق لهذه المادة: في أي كتاب أو مجلة نشرت بالصفحة وتاريخ الطبعة، أو رابط المادة على الانترنت.

أو ترشيح مادة كتبها أحد العلماء والدعاة الأسرى فيما يتعلق بموضوع المجلة، مع التوثيق الدقيق لمصدرها.

٣ تفريغ مادة صوتية لأحد العلماء -الراحلين أو الأسرى- مع توثيق مصدرها.

•• ولا نستغني أبداً عن مجهود القراء ومساعدتهم في نشر المجلة أو في ترجمتها إلى لغات أخرى أو في طباعتها وتوزيعها في بلدانهم، فحقوق الطبع والتوزيع محفوظة لكل مسلم.

•• ترسل المشاركات على البريد الإلكتروني التالي : admin@ansarmag.com

بينما هذا العدد على وشك الصدور، جاءنا الناعي بالخبر الفاجع، خبر وفاة الشيخ العلامة د. يوسف القرضاوي، فجعلنا الافتتاحية من تراث الشيخ رحمه الله، وبرد مضجعه.

الافتتاحية

نبي الرحمة ﷺ



الشيخ الإمام/ د. يوسف القرضاوي (رحمه الله)*

المؤسس والرئيس السابق للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين



لقد جعل الله تعالى عنوان رسالة محمد ﷺ الرحمة، بل حصرها في الرحمة، حين قال له مخاطباً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ووصف الرسول نفسه بجملة حاصرة معبرة، قال: «إنما أنا رحمة مهداة»[1].

وجعل تعالى فاتحة كتابه الخالد، وفاتحة سوره كلها، ما عدا سورة واحدة: «بسم الله الرحمن الرحيم».

ووصف رسوله ممتناً علينا به فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٩].

---

* د. يوسف القرضاوي، السنة مصدراً للمعرفة والحضارة، ص٢٩، وما بعدها.

١. رواه ابن سعد والحكيم الترمذي مرسلاً، والحاكم عن أبي هريرة، والدارمي والبيهقي في الشعب (صحيح الجامع الصغير وزيادته ٢٣٤٥).

لهذا تجلت (الرحمة) في خلقه وسيرته ﷺ، وفي توجيهه لأمته، وجاء الترغيب فيها والحض عليها بأبلغ أساليب التحريض، والترهيب من القسوة والغلظة.

فعن جرير بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: «من لا يرحم الناس، لا يرحمه الله»[٢].

وعن أبي موسى أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لن تؤمنوا حتى تراحموا». قالوا: يا رسول الله! كلنا رحيم! قال: «إنها ليست برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة»[٣].



وعن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: **«الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»**[٤].

فلا يستحق رحمة الخالق -وما أوسعها- من لا يرحم خلقه.

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «ليس من أمتي من لم يُجِلّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف عالمنا»[٥].

فليس بأهل أن ينتسب إلى أمة الرحمة، من خلا قلبه من الرحمة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت الصادق المصدوق، صاحب هذه الحجرة، أبا القاسم ﷺ يقول: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»[٦].

---

٢. متفق عليه. البخاري في الأدب، ومسلم في الفضائل.

٣. رواه الطبراني ورواته رواة الصحيح كما قال المنذري (المنتقى: ١٣٢٢) والهيثمي (٧٨/٨)

٤. رواه أبو داود (٤٩٢١)، والترمذي وقال حسن صحيح (١٩٢٥).

٥. رواه أحمد بإسناد حسن، كما قال المنذري (المنتقى٦٩)، والهيثمي (٢٧/١).

٦. رواه أبو داود واللفظ له(٤٩٤٢)، والترمذي (١٩٢٤)، وابن حبان في صحيحه (الإحسان ٤٦٦). وقال الترمذي: حديث حسن، وفي بعض النسخ حسن صحيح.

وعنه، قال: قبَّل رسول الله ﷺ الحسن أو الحسين بن علي؛ وعنده الأقرع بن حابس التميمي، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولدما قبلت منهم أحداً قط. فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يرحم لا يُرحم»[٧].



وعن عائشة قالت: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: إنكم تقبلون الصبيان وما نقبلهم! فقال رسول الله ﷺ: «أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك؟»[٨].

والرحمة كلها خير، ولكن أعظم ما تكون الرحمة، الرحمة بالضعفاء من الناس، الذين لا حول لهم ولا طول، مثل اليتيم الذي فقد الأب، والأرملة التي فقدت الزوج، والمسكين الذي فقد المال، وابن السبيل الذي فقد الوطن، والرقيق الذي فقد الحرية.

وفي هذه النواحي استفاضت الأحاديث النبوية آمرة ناهية، معلمة هادية، مرغبة مرهبة. من هذه الأحاديث:

«أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما[٩].

«من ضم يتيماً بين مسلمين في طعامه وشرابه، حتى يستغني عنه وجبت له الجنة ألبتة»[١٠].

---

٧. رواه البخاري، ومسلم وأبو داود، والترمذي. (المنتقى من الغريب ١٣٢٦)، وانظر اللؤلؤ والمرجان (١٤٩٧).

٨. متفق عليه: اللؤلؤ والمرجان (١٤٩٦).

٩. رواه البخاري وأبو داود والترمذي، عن سهل بن سعد (الأحاديث الصحيحة للألباني: ٨٠٠).

١٠. رواه أبو يعلى وأحمد باختصار، والطبراني بإسناد حسن عن زرارة بن أبي أوفى عن رجل من قومه، انظر: المنتقى من الترغيب (١٥١٧) ومجمع الزوائد (٨/١٦).

«الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله» قال أنس: وأحسبه قال: «وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يُفطر»[١١].

«هم إخوانكم (يعني الخدم) جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه»[١٢].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! كم نعفو عن الخادم؟ فصمت، ثم أعاد عليه الكلام فصمت، فلما كان في الثالثة قال: «اعفوا عنه في كل يوم سبعين مرة»[١٣].

ويوم كان الخدم رقيقاً زجر النبي ﷺ عن إيذائهم وضربهم، وجعل كفارة الضرب العتق؛ فكيف إذا كانوا أحراراً؟!



وقد أدرك النبي ﷺ أبا مسعود البدري وهو يضرب غلاماً له، فقال: «اعلم أبا مسعود! أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام!» فقلت: يا رسول الله! هو حر لوجه الله. فقال: «أما لو لم تفعل، للفحتك النار أو لمستك النار»[١٤].

وقال: «من لطم مملوكاً أو ضربه فكفارته أن يعتقه»[١٥].

وأكثر من ذلك، ما جاء في رحمة البهائم العجماوات، سواء كانت مما ينتفع به بالركوب أو الحمل، أو بالأكل، أم من الحيوانات الأخرى كالكلاب والقطط ونحوها. وتوجيهات

---

١١. متفق عليه عن أنس. البخاري في النفقات، ومسلم في الزهد، انظر: اللؤلؤ والمرجان (١٨٧٨).
١٢. متفق عليه عن أبي هريرة، واللفظ للبخاري (انظر: المنتقى من الترغيب. حديث ١٣٤١).
١٣. رواه أبو داود عن ابن عمر(٥١٦٤)، والترمذي(١٩٥٠)، وقال: حسن غريب.
١٤. رواه مسلم (٦٦٥٩)، وأبو داود(٥١٥٩) والترمذي(١٩٤٩) عن أبي مسعود.
١٥. رواه أبو داود(٥١٦٨)، ومسلم بنحوه (١٦٥٧).

الإسلام في هذا الجانب سبقت أرقى ما عرفته الإنسانية في عصرنا من الرفق بالحيوان. وفي الفقه الإسلامي من ذلك أحكام وفروع شتى حفلت بها كتب الشريعة. وفي الحضارة الإسلامية من الوقائع والتطبيقات ما يشهد بسمو تاريخنا وتفوق أمتنا على أمم الأرض[١٦].

عن معاوية عن قرة عن أبيه، أن رجلاً قال: يا رسول الله! إني لأرحم الشاة أن أذبحها! فقال: «إن رحمتها رحمك الله»[١٧].

وعن ابن عباس أن رجلاً أضجع شاة، وهو يحد شفرته، فقال النبي ﷺ: «أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها؟»[١٨].



وعن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقها -بغير حقها- إلا يسأله الله عنها يوم القيامة» قيل: يا رسول الله! وما حقها؟ قال: حقها أن تذبحها فتأكلها، ولا تقطع رأسها فترمي به»[١٩].

وعن ابن سيرين: أن عمر رأى رجلاً يسحب شاة برجلها ليذبحها، فقال له: «ويلك! قُدها إلى الموت قوداً جميلاً»[٢٠].

---

١٦. انظر في ذلك كتابنا: مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية. فصل الأخلاقية.

١٧. رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي (٢٣١/٤).

١٨. رواه الطبراني في الكبير، والأوسط ورجاله رجال الصحيح، والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح على شرط البخاري. كما قال المنذري في الترغيب (المنتقى ٥٧٥). وانظر: الهيثمي (٣٣/٤). والبيهقي في السنن الكبرى (٢٨٠/٩).

١٩. رواه النسائي (٢٠٧/٧)، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، وأقره: المنذري والذهبي (انظر: المنتقى: حديث٥٧٦).

٢٠. رواه عبد الرزاق موقوفاً كما في الترغيب والترهيب للمنذري. (المنتقى: ١٣٢٩) ط، دار الوفاء.

وعن ابن عمر: أنه مر بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً -أو دجاجة- يترامونها، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: «من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً[٢١].



الغرض: هو ما ينصبه الرماة، يقصدون إصابته، من قرطاس وغيره.

وعن أبي مسعود قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: «من فجع هذه بولديها؟ ردوا ولديها إليها» ورأى قرية نمل قد حرّقناها، فقال: «من حرّق هذه؟ قلنا: نحن، قال»إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار»[٢٢].

قرية النمل: هي موضع النمل مع النمل.

وعن ابن عمر؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض».

وفي رواية عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، لا هي أطعمتها وسقتها، إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض[٢٣].

خشاش الأرض: هو حشرات الأرض، والعصافير، وغيرها.

---

٢١. متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (١٢٧٩).
٢٢. رواه أبو داود في الجهاد (٢٦٧٥)، وهو من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه، وقد رجح البخاري وابن أبي حاتم سماعه منه. والتفريش مأخوذ من فرش الجناح وبسطه.
٢٣. رواه البخاري وغيره عن ابن عمر، ورواه أحمد عن جابر، انظر المنتقى من الترغيب (١٣٣٣).

وهذا الوعيد الشديد فيمن سجن هرة، فما جزاء من يسجن الألوف من المؤمنين بغير ذنب، إلا أن يقولوا: ربنا الله؟!

وعن سهل بن الحنظلية؛ قال: مر الرسول ﷺ ببعير قد لصق ظهره ببطنه، فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة: فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة»[٢٤].

وفي رواية ابن حبان لهذا الحديث: «اركبوها صحاحاً، وكلوها سماناً».

قال الإمام ابن حبان في قوله ﷺ «اركبوها صحاحاً» كالدليل على أن الناقة العجفاء الضعيفة يجب أن يتجنب ركوبها إلى أن تصح، وفي قوله: « كلوها سماناً» دليل على أن الناقة المهزولة التي لا نقي فيها يستحب ترك نحرها إلى أن تسمن.

وعن ابن عباس؛ قال: نهى النبي ﷺ عن التحريش بالبهائم[٢٥].

والتحريش: الإغراء بينها، وتحريض بعضها على بعض، كما يفعل بين الكباش والديكة.

وعن جابر: نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجه، وعن الوسم (الكي) في الوجه[٢٦].

وبهذا كان الخلفاء والأمراء يزجرون كل من قسا على الحيوان. جاء في الغنية.

قال مالك: إن عمر بن الخطاب مر بحمار عليه لَبِن، فوضع عنه طوبتين، فأتت سيدته (مالكته) لعمر فقالت: يا عمر! مالك ولحماري؟ ألك عليه سلطان؟ قال: فما يقعدني في هذا الموضع؟!

وعقّب ابن رشد على قول عمر فقال: المعنى في هذا بي، لأن المصطفى عليه السلام قال: « كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع، وهو مسئول عن رعيته..»[٢٧].

---

٢٤. رواه أبو داود (٢٥٤٨)، وأحمد (٤:١٨٠، ١٨١)، وابن حبان (الإحسان: ٥٤٥)، وصححه النووي في رياض الصالحين.
٢٥. رواه عن ابن عباس أبو داود في الجهاد (٢٥٦٢) والترمذي (١٧٠٨، ١٧٠٩) متصلاً ومرسلاً.
٢٦. رواه مسلم (٢١١٧)، وأبو داود (٢٥٦٤) والترمذي (١٧١٠).
٢٧. متفق عليه عن ابن عمر.

رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ

د. محمد الصغير



الأمين العام للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

في بداية الدعوة، ومن القرآن الذي نزل على رسول الله ﷺ في مكة سورة الأنبياء، وفيها خاطب المولى جل جلاله نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وهذا البيان الموجز المعجز بين أهم صفات الدعوة الإسلامية، وأنها ترتكز على أصلين أساسين هما:

١. الرحمة
٢. والعالمية

وكلاهما مرتبط بالآخر ومترتب عليه، وفيه دليل على أن صفة العالمية من سمات الدعوة الإسلامية من أيامها الأولى، وقبل أن تخرج من أسوار مكة المكرمة، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ قال ابن زيد: يعني رحمة للمؤمنين خاصة فهو رحمة لهم. وقال ابن عباس: هو عام في حق من آمن ومن لم يؤمن، فمن آمن فهو رحمة له في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن فهو رحمة له في الدنيا بتأخير العذاب عنهم، ورفع المسخ والخسف والاستئصال عنهم.

وقد قال النبي ﷺ: «إنما أنا رحمة مُهداة».



ورحمته ﷺ تشمل الثقلين الجن والإنس، والمسلم والكافر، وعموم رحمته التي تشمل الكافر هو فيما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما، ومما يتحصل من الرحمة لكل كافر من خلال شفاعة النبي ﷺ العظمى لأهل الموقف عامة، وهي ما يطلق عليها «شفاعة فصل القضاء»، وبها يستريح الكافة من الانتظار، فيحاسبون ويساقون إما إلى جنة وإما إلى نار، فريق في الجنة، وفريق في السعير.

أولاً: رحمة شاملة

لازمت صفة الرحمة رسول الله ﷺ في جميع أحواله، في بيته وبين أصحابه، مع أولاده وخدامه، مع أوليائه وأعدائه، وكذلك مع الحيوانات والجمادات، حتى أصبحت رحمته من سمات الإعجاز الخُلقي في شخصيته ﷺ، وإن أول ما استوقفني في هذا الباب التعليق الأول من أم المؤمنين الأولى خديجة بنت خويلد على رسالة النبي ﷺ فَقالَتْ له: «كَلَّا، أبْشِرْ، فَوَالله لا يُخْزِيكَ الله أبَدًا، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وتَحمِلُ الكَلَّ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ علَى نَوَائِبِ الحَقِّ...»[١].

---

١. رواه البخاري.

•• والمتأمل لما وصفت به خديجة زوجها ﷺ بعد طول عشرة، سيجد أن غالب الصفات تدور حول الرحمة، وهي السبب الذي جعل مولاه زيد بن حارثة يكون في طليعة المؤمنين به، لأن الصفات النفسية تكون على حقيقتها مع الضعيف، ومن تملك نفعه وضره، فما بالك بالمولى الذي تملك رقبته، ولذا فضل زيد العبودية في كنف رسول الله ﷺ، على الحرية بين أبيه وقبيلته، ما دامت ستحرمه من مرافقة رسول الله ﷺ، وأكد ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه فقال: «خدمتُ النبيَّ ﷺ عشرَ سنينَ، فما قال لي أُفٍّ قطُّ، وما قال لي لشيءٍ لم أفعلْه ألا كنتَ فعلتَه، ولا لشيءٍ فعلتُه لِمَ فعلتَه»[٢].

بل أرسى النبي ﷺ هذه القاعدة في التعامل مع الخادم، وأن العلاقة هي علاقة رحمة وأخوّة، عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إخوانُكم خَوَلُكم، جَعَلَهم اللهُ تحت أيديكم، فمَن كان أخوه تحت يَدِه فليُطعِمْه ممَّا يأكُلُ، ويُلبِسْه ممَّا يَلبَسُ، ولا تُكلِّفوهم ما يَغلِبُهم، فإنْ كَلَّفتُموهم فأعينُوهم، ومَن لم يُلائِمُكم منهم فبيعوهم، ولا تعذِّبوا خَلْقَ اللهِ»[٣].

ثانياً: رحمته بالأطفال

كان للأطفال الحظ الأوفى والنصيب الأكبر من رحمة رسول الله ﷺ وعطفه وعنايته، روى أبوهريرة أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يُقبِّلُ الحَسَنَ بنَ عليٍّ، فقال الأقرَعُ بنُ حابِسٍ: إنَّ لي عَشَرةً مِن الوَلَدِ، ما قبَّلْتُ منهم أحَدًا. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَن لا يَرحَمْ، لا يُرحَمْ»[٤].



وبلغ من رحمته وشفقته بالأطفال ما رواه بريدة بن الحصيب الأسلمي قال: «كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يخطبُنا إذ جاءَ الحسنُ والحُسَيْنُ عليهما قميصانِ أحمرانِ يمشيانِ ويعثُرانِ، فنزلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ منَ المنبرِ فحملَهُما

٣. متفق عليه.
٤. متفق عليه.

ووضعَهُما بينَ يديهِ، ثمَّ قالَ: «صدقَ اللَّهُ ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، نظرتُ إلى هذينِ الصَّبيَّينِ يمشيانِ ويعثُرانِ فلم أصبِرِ حتَّى قطعتُ حديثي ورفعتُهما»[٥].

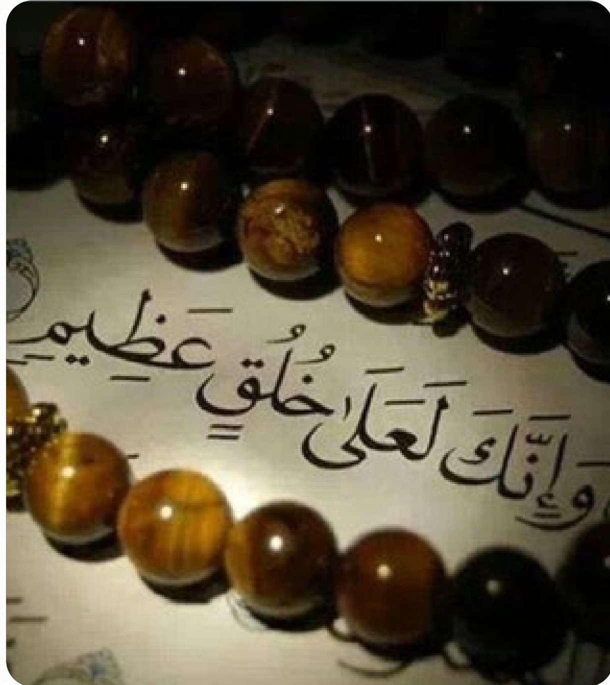
وروى أنس بن مالك قال: كانَ النَّبيُّ ﷺ أحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وكانَ لي أخٌ يُقَالُ له (أبو عُمَيْرٍ)، قالَ: أحْسِبُهُ فَطِيمًا، وكانَ إذَا جَاءَ قالَ ﷺ: «يا أبَا عُمَيرٍ، ما فَعَلَ النُّغَيْرُ؟».

نُغَرٌ: عصفور كانَ يَلْعَبُ به، فَرُبَّمَا حَضَرَ الصَّلَاةَ وهو في بَيْتِنَا، فَيَأْمُرُ بالبِسَاطِ الذي تَحْتَهُ فيُكْنَسُ وينْضَحُ، ثُمَّ يَقُومُ ونَقُومُ خَلْفَهُ، فيُصَلِّي بنَا»[٦].



ثالثاً: رحمته بأزواجه

سُئلتْ عَائِشَةَ ما كانَ النبيُّ ﷺ يَصْنَعُ في بيْتِهِ؟ قالَتْ: كانَ يكونُ في مِهْنَةِ أهْلِهِ - تَعْنِي خِدْمَةَ أهْلِهِ - فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إلى الصَّلَاةِ»[٧]. كان يحمل عنهن بعض الخدمة ويخدم نفسه، عن عائشةَ أنَّها سُئِلتْ ما كان عملُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في بيتِه ؟ قالت: ما كان إلَّا بشَرًا من البشَرِ كان يَفْلي ثوبَه ويحلُبُ شاتَه ويخدُمُ نفسَه»، وفي راوية: «ويخصف نعله» [٨].





رابعاً: رحمته بالكفار

لم تقتصر رحمة رسول الله ﷺ على من آمن به فقط ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، بل شملت مَن كفر به وصد عنه، وفي أول قتال بينه وبينهم وانتصاره عليهم، لم يترك جثثهم للسباع والضواري، وإنما دفنهم في القليب.

---

٥. متفق عليه.

٦. رواه البخاري.

٧. رواه البخاري.

٨. صحيح ابن حبان.

ولما فتح الله عليه مكة، وقد لاقى من أهلها ما لاقى، قال اذهبوا فأنتم الطلقاء، ولما سمع سعد بن عبادة يقول «اليوم يوم الملحمة»، قال: «بل اليوم يوم المرحمة»، فإن الرحماء لا تعرف نفوسهم الانتقام وروح الثأر، وقد رأينا كيف عفا عن الرجل المشرك الذي أخذ سيف رسول الله ﷺ من على الشجرة وأراد قتله به، فلما أسقطه الله من يده قال: «يا محمد كن خير آخذ»، فعفا عنه.

خامساً: رحمته بالحيوان



وهي من جملة معجزاته، روى عبدالله بن جعفر بن أبي طالب قال: «أردفَني رَسولُ الله ﷺ ذاتَ يومٍ خَلفَهُ، فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أُخبِرُ بِهِ أحدًا أبدًا، وَكانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ أحبُّ ما استترَ بِهِ في حاجتِهِ هدَفٌ، أو حائشُ نَخلٍ، فدخلَ يومًا حائطًا من حيطانِ الأنصارِ ، فإذا جَملٌ قدِ أتاهُ فَجرجَرَ، وذَرِفَت عيناهُ - قالَ بَهْزٌ، وعفَّانُ: فلمَّا رَأى النَّبيَّ ﷺ حَنَّ وذرِفَت عيناه - فَمسحَ رسولُ اللَّهِ ﷺ سراتَهُ وذِفراهُ، فسكَنَ، فقالَ: مَن صاحبُ الجمَلِ؟ فجاءَ فتًى منَ الأنصارِ، فقالَ: هوَ لي يا رسولَ اللَّهِ، فقالَ: أما تتَّقي اللَّهَ في هذهِ البَهيمةِ الَّتي ملَّكَكَها الله، إنَّهُ شَكا إليَّ أنَّكَ تجيعُهُ وتدئبُهُ»[٩].

٩. صحيح، رواه أبو دواد.

١٠. رواه البخاري.

وبيّن رسول الله ﷺ أن تعذيب الحيوان مما يلج به الإنسان النار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ في هِرَّةٍ سَجَنَتْها حتَّى ماتَتْ، فَدَخَلَتْ فيها النَّارَ، لا هي أطْعَمَتْها ولا سَقَتْها، إذْ حَبَسَتْها، ولا هي تَرَكَتْها تَأْكُلُ مِن خَشاشِ الأرْضِ»[10].

سادسًا: رحمته بالجماد



وهذه درجة من درجات الرحمة النبوية، روى أنس بن مالك أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يخطبُ إلى جِذعٍ، فلمَّا اتَّخذَ المنبرَ حنَّ الجِذعُ فاحتضنَهُ فسكَنَ، فقالَ: «لو لم أحتَضِنْهُ، لحنَّ إلى يومِ القيامةِ»[11].

وفي رواية جابر بن عبدالله:

كانَ المَسْجِدُ مَسْقُوفًا علَى جُذُوعٍ مِن نَخْلٍ، فَكانَ النبيُّ ﷺ إذَا خَطَبَ يَقُومُ إلى جِذْعٍ منها، فَلَمَّا صُنِعَ له المِنْبَرُ وكانَ عليه، فَسَمِعْنَا لِذلكَ الجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ العِشَارِ، حتَّى جَاءَ النبيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ»[12].

وأطلق رسول الله ﷺ في أمته نداء الرحمة العام فقال: الرَّاحِمونَ يرحَمُهم الرَّحمنُ تباركَ وتعالى؛ ارحَموا مَن في الأرضِ يرحَمْكم مَن في السَّماءِ»[13].

كما بين ﷺ أن الجزاء من جنس العمل: «من لا يَرحم لا يُرحم».

أسأل الله أن يجعل لنا من رحمته أعظم نصيب وأوفاه، وأن يجعلنا على هدي نبيه ومصطفاه.

---

١١. رواه أحمد.

١٢. رواه البخاري.

١٣. أخرجه الترمذي.

عالَمٌ بغير محمد ﷺ..كيف يكون؟!

محمد إلهامي (رئيس التحرير)



عضو الأمانة العامة للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ



وقف العلامة مصطفى صبري، آخر شيوخ الإسلام في اسطنبول، يخطب أمام عشرة آلاف في جامع السلطان علاء الدين في قونيا، وكان ذلك في الزمن الذي زحفت فيه العلمانية وهيمنت فيه جماعة الاتحاد والترقي على البلاد، وانتشر يومها الحديث عن الحرية القادمة من الغرب، في مقابل الاستبداد الذي أنتجه الدين وحرسه المشايخ في الشرق. وحيث كان الوقت قبيل انتخابات مجلس النواب فقد خطب الشيخ يحثّ الناس على التمسك بحريتهم، ومقاومة كل تضييق أو خداع يقوم به من يريد كسب أصواتهم. وقد حاول والي قونيا معمر بك -الذي كان حاضرا في الخطبة- أن يُشَغِّب على الشيخ، فإذا بالشيخ يستخرج له مثالاً من الفقه الإسلامي، فينقلب الحال عليه!

ذكر الشيخ مصطفى صبري مسألة من الفقه الحنفي تقول: ماذا إذا وقع نزاعٌ بين رجلين: مسلمٍ وذِمّيٍّ على طفل، المسلم يقول إنه عبده، والذمي يقول إنه ولده، وكلاهما جاء بالشهود التي تؤيد كلامه، ولم يتبيّن وجه الحق للقاضي، فهل يُسَلّم الطفلُ إلى المسلم فيكسب الطفل نعمة الإسلام ويخسر نعمة الحرية؟ أم يسلم إلى الذمي فيخسر نعمة الإسلام ويكسب نعمة الحرية؟

يختار أبو حنيفة أن يُسَلَّم الطفل إلى الذِمّي ويكون حرًّا، فإنه إذا سُلِّم إلى المسلم لم يستطع كسب نعمة الحرية بنفسه، ولكنه إذا سُلِّم للذمي يستطيع بالنظر والتفكير ومقارنة الأديان أن يكسب نعمة الإسلام بنفسه. والشرع الإسلامي يُعطي للطفل ما لا يستطيع أن يكسبه بنفسه، إذ الشرع واثقٌ من قوة حجة الإسلام وظهوره، والطفل إذا لم يُسْلِم حين يكبر كان هذا تقصيراً منه، وجناية جناها هو على نفسه!


الشيخ مصطفى صبري

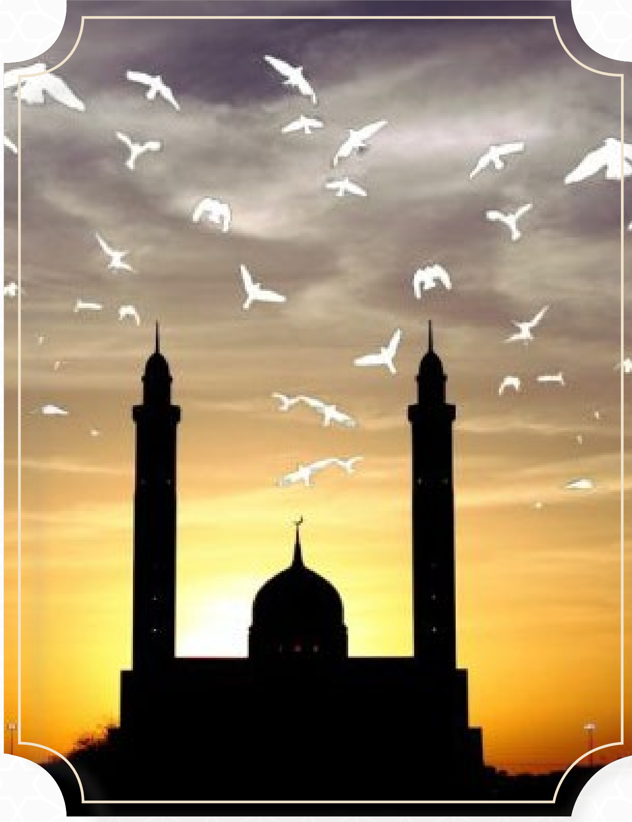
يقول الشيخ مصطفى صبري: هذه الفتوى تدل على ما بلغه الفقه الإسلامي من سعة الأفق، وهي تبرز أهمية الحرية في شرعة الإسلام، وتُفهم أهيمتها حق الفهم إذا تذكرنا أن الشريعة ترى أن أكبر ملوك غير المسلمين ليس كفؤا ولا أهلا لأن يتزوج أدنى بنت من بنات المسلمين[١].

حين مررتُ بهذه القصة، تذكرت بحثا آخر كتبه المستشرق الإيطالي ديفيد دي سانتيلانا، وهو قانوني درس المذهب المالكي، عن الشريعة والقانون والمجتمع، وطفق هذا المستشرق يتناول جوانب الشريعة الإسلامية بقلم الـمُعجب المنبهر بها، فكان مما تناوله مسألة الحرية، فقال فيها:

«أما الرق فهو استثناء لتلك القاعدة (كان آدم وحواء وكلاهما حر)، من هذا المبدأ استخلص الفقهاء مسائل عديدة إليك بعضها:

---

١. مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، ٤/٣٤٠، ٣٤١.



١. اللقيط المجهول أصله ترجح حريته على عبوديته.

٢. الحر المشكوك في حريته لا يجبر مبادهة على إثبات حريته؛ حتى تنهض القرائن والدلائل القضائية على عكس ما يزعم.

٣. ترجح حالة الحرية عند وجود الشك.

فالحرية على هذا الأساس لا يمكن أن تباع أو تشترى لرغبة ساورت صاحبها، أو لنزوة عارضة، والعبودية التي يختارها المرء بملء رغبته لا تعترف بها الشريعة قانونا قط، وعلى هذا المنوال تحرم الشريعة الانتحار»[٢] .

وقد أُعجب دي سانتيلانا على نحو خاص بالتحرر التام الذي يتمتع به المسلم من سلطة الكهنوتية، حتى قال في ذلك: «أشد المذاهب البروتستانتية صرامة إنما تكاد تكون مذهباً كهنوتياً صرفاً إذا ما قورنت بعقيدة التوحيد الراسخة، التي لا تلين ولا تتزعزع، ولا تسمح بالتدخل بين الخالق والمخلوق»، وأعجب بالرحمة التي تهيمن على سائر جوانبها، فيؤكد أن «آيات القرآن فُصِّلَتْ للناس بمعرفة خبير حكيم لتكون شريعة للحرية، وقانونا للرحمة التي أنعم الله بها على الجنس البشري»، ويختم مبحثه اللطيف قائلا: «المستوى الأخلاقي الرفيع الذي يسم الجانب الأكبر من شريعة العرب قد عمل على تطوير وترقية مفاهيمنا العصرية، وهنا يكمن فضل هذه الشريعة الباقي على مر الدهور»[٣].

وصدرت قبل أشهر الترجمة العربية لكتاب الباحث الأمريكي المسلم، جوناثان براون، بعنوان «الإسلام والرق»، وقد قرأت شطراً منه ولم أتمّه، وهو كتاب ممتاز، لكن الشاهد هنا أنه قضى زمنا في أول الكتاب

---

٢. دافيد دي سانتيلانا، القانون والمجتمع، ضمن: توماس أرنولد (إشراف)، تراث الإسلام، ص٤١٧.
٣. نفس المصدر، ص٤١٠، ٤١١، ٤٣٩.



يحاول أن يُفهم قرَّاءه من الغربيين والأمريكان أن الرق الذي كان في الإسلام لا علاقة له بصورة العبودية والاستعباد التي تنبثق في أذهانهم لدى سماع هذه الألفاظ، ذلك أن تلك المعاني السيئة إنما هي المخزون الموروث الذي أنتجته التجربة الغربية حين استعبدت الشعوب الإفريقية والآسيوية، ولا علاقة لهذه المعاني بموضوع الرق الذي كان في العالم الإسلامي. وذلك إلى الحدّ الذي لا يمكن فيه الوصول إلى تعريف دقيق لمعنى «الرق»، بل إن مطالعة التاريخ تكشف أن ظروف العُمّال الأحرار في المصانع الأوروبية كانت أسوأ حالا بكثير من أحوال العبيد في العالم الإسلامي، وأن بعض أولئك العبيد وصلوا في العالم الإسلامي إلى مراتب السلطة العليا كوزراء وأمراء وقادة جيوش يملكون الثروة والسلطة!

وكان قد وقع لي من أخبار العبيد والرقيق في التاريخ الإسلامي، ما استخلصتُ بعضًا منه، ونشرته في مقال «كيف عامل المسلمون عبيدهم.. شذرات من مؤلفات الرحالة الغربيين»[٤]، وفيه يقرر المستشرقون والرحالة الغربيون بأنفسهم أن أحوال العبيد في عالم المسلمين كانت خيرا من أحوال الأحرار في الغرب!

وهذا مع أن الإسلام يرى الرق نقصاً، ويحث على إعتاق العبيد، كما يحث العبد على تحرير نفسه، وقد فتح لذلك الأبواب، وقد أغلق الإسلام باب استرقاق الناس إلا في الحرب المشروعة، أي أنه جعل الرق بديلاً عن القتل، فكان الرق -في هذا الموطن- من باب الرحمة بالأسير! فلعله أن عاش بين المسلمين أن يتأثر بهم فيُسلم فيفوز في دنياه وأخراه، ولئن لم يفعل فقد أصابته الرحمة بالإطالة في عمره فلعله أن يُفتدي أو يفتدي نفسه أو يعيش في الرق عيشة كريمة!

---

٤. مجلة المجتمع، يوليو ٢٠٢٠م، الرابط: https://melhamy.blogspot.com/2020/07/blog-post.html

لقد وقف المنصفون من غير المسلمين أمام فضل النبي ﷺ على هذه الإنسانية حتى تمنى بعضهم أن لو وصلت جيوش الفتح الإسلامي إلى بلادهم، مثل المستشرق والفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي الشهير جوستاف لوبون، ذلك الذي تحسّر أن المسلمين لم يدخلوا باريس، فلم تنعم باريس بمثل ما نعمت به قرطبة، فقال في ذلك: «كان يصيب أوربا النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب إسبانيا من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي، وكان لا يحدث في أوربا التي تكون قد هذبت ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية، وملحمة سان بارتملي، ومظالم محاكم التفتيش وكل ما لم يعرفه المسلمون من الوقائع الخطيرة التي ضرجت أوربا بالدماء عدة قرون»[5].



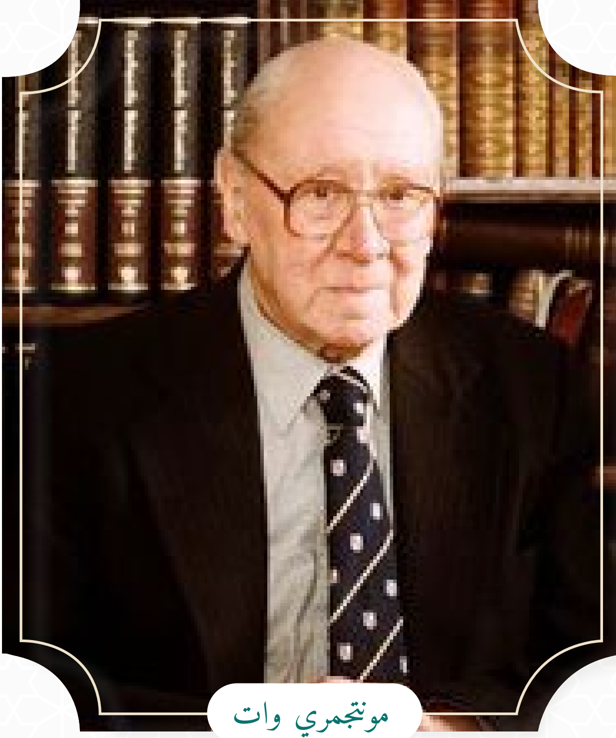
لقد رأى هذا الرجل فضل النبي متجسداً في التاريخ، ورأى كيف أن البلاد التي وصلها أتباعه كانت في نعمة ورحمة حُرِمت منها البلاد التي لم تنعم بأنواره، ليس فقط على مستوى الأخلاق وشيوع التسامح الديني، بل حتى على مستوى العلوم والحضارة والاختراعات المادية والفنون، يقول: «كلما أمعنا في درس حضارة العرب، وكتبهم العلمية، واختراعاتهم، وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها -مدة خمسة قرون- موردا علميا سوى مؤلفاتهم، وأنهم هم الذين مدنوا أوربا مادة وعقلا وأخلاقا، وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفقهم قوم في الابتداع الفني»[6].

---

٥. جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٣١٧.

٦. نفس المصدر، ص٢٦.

ولم يكن وحده في هذه النظرة، فهذا المستشرق البريطاني الشهير مونتجمري وات، يقول في ذات المعنى: «إننا -معشر الأوربيين- نأبى في عناد أن نقر بفضل الإسلام الحضاري علينا، ونميل أحيانا إلى التهوين من قدر وأهمية التأثير الإسلامي في تراثنا، بل ونتجاهل هذا التأثير أحياناً تجاهلاً تاماً، والواجب علينا من أجل إرساء دعائم علاقات أفضل مع العرب والمسلمين، أن نعترف اعترافا كاملا بهذا الفضل، أما إنكاره أو إخفاء معالمه فلا يدل إلا على كبرياء زائف»[٧].


مونتجمري وات

ينظر آخرون بإعجاب إلى فضل النبي ﷺ في تحرير الإنسان من الخرافة والأوهام وسلطان الآلهة الوثنية، هذه المستشرقة الإيطالية لورافيشيا فاجليري تقول: «بفضل الإسلام هُزِمت الوثنية في مختلف أشكالها، لقد حُرِّر مفهوم الكون، وشعائر الدين، وأعراف الحياة الاجتماعية من جميع الهولات أو المسوخ التي كانت تحط من قدرها، وحُرِّرت العقول الإنسانية من الهوى. لقد أدرك الإنسان -آخر الأمر- مكانته الرفيعة، ولقد أذل نفسه أمام الخالق، رب العالمين، أنه لم يصبح قادرا فحسب على أن يقول مع إبراهيم، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] بل قد تعين عليه في الواقع أن يقول مع هذا النبي ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. لقد حُرِّرت الروح من الهوى، وأطلقت إرادة الإنسان من القيود التي طالما أبقته موثقا إلى إرادة أناس آخرين، أو إلى إرادة قوى أخرى يدعونها خفية. لقد هوى الكهان، وحفظة الألغاز المقدسة الزائفون، وسماسرة الخلاص، وجميع أولئك الذين تظاهروا أنهم وسطاء بين الله والإنسان»[٨].

---

٧. مونتجمري وات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص٨.

٨. لورافيشيا فاجليري، دفاع عن الإسلام، ص٤٥، ٤٦.

إذا كان هؤلاء الناس قد التفتوا إلى فضل النبي على الإنسانية في حياتهم الدنيا، وما بث في تاريخ الأرض من الأخلاق والحضارة والعلم والنور والكرامة وتحرير البشرية من الخرافة والأوهام، فنحن المسلمين أولى الناس أن نلتفت إلى فضله ﷺ في الدنيا والآخرة، فما الدنيا في الآخرة إلا كقطرة في بحر، وكل شيء بالنسبة إلى الخلود غيرُ معدود، فبه عرفنا طريق الهداية، فمن اتبعه فقد أنقذه الله بمحمد ﷺ من النار، والصلاة عليه في الدنيا هو غفران للذنوب وتفريج للكروب وسببٌ لأن يذكرنا الله تعالى في عليائه جل علاه، وهو ﷺ شفيعنا يوم القيامة بإذن الله، فبشفاعته يتجاوز الله عن الذنوب والخطايا لمن شاء، وهو الذي يسقينا في اليوم الرهيب من حوضه الشريف، شربةً تروي الظمأ الشديد القاتل شربة لا نظمأ بعدها أبدا، لا يُحرمها إلا من بدَّل وأحدث من بعده.

فلو كان اتباع محمد ﷺ يُهلكنا في الدنيا ويحيينا في الآخرة لكفي بذلك نعمةً ومنّةً وفضلاً عظيماً، فكيف إن كان اتباعه هو العز والنصر والتمكين في الدنيا، وهو النجاة والفلاح في الآخرة؟!

كثيرا ما يغيب هذا الجانب، أي: فضل النبي ﷺ علينا في الآخرة، عن حديث المتحدثين عن فضله، وذلك من آثار طغيان التفكير المادي الدنيوي على حياتنا المعاصرة.



❁ لن نفهم فضلَ محمد ﷺ علينا في الدنيا والآخرة إلا إذا تخيلنا مسيرة هذا العالم بدونه، إن مجرد الشروع في تخيل هذا الوضع يقذفنا في عالم كئيب مظلم أسود، عالم تتقاذفه الشياطين، ويهيمن عليه الطغاة الجبابرة، ويأكل القوي فيه الضعيف.. عالم بلا رحمة ولا شرف ولا أخلاق!

عالم ليس فيه أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي، لا خالد بن الوليد ولا أبو عبيدة بن الجراح ولا عمرو بن العاص، عالم ليس فيه عمر بن عبد العزيز ولا هارون الرشيد ولا نور

الدين زنكي ولا صلاح الدين ولا يوسف بن تاشفين ولا عبد الرحمن الناصر ولا المنصور بن أبي عامر ولا عثمان ولا مراد ولا محمد الفاتح! عالمٌ ليس فيه ذلك الطابور الطويل من العُبَّاد والزُهَّاد الذين هم مصابيح الدنيا في التقوى والورع والأخلاق، من يتخيل عالما بغير الحسن البصري وعبد الله بن المبارك وإبراهيم بن أدهم والحارث المحاسبي وبشر الحافي والجنيد؟! عالمٌ ليس فيه ذلك الموكب المكتظ من العبقريات المدهشة التي فجرت ينابيع العلوم، أي عالم ذلك الذي يخلو من أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وابن حزم والجويني والغزالي والزمخشري والفخر الرازي وابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن رجب وابن عبد الهادي! وأي عالم ذلك الذي افتقد الزهراوي والجزري والحسن بن الهيثم والزرقالي والمرادي وابن النفيس وابن البيطار!



كل أولئك وغيرهم كثير كثير كثير ممن أقاموا العدل ونشروا العلم وعالجوا الأرواح والأبدان، إنما شربوا من معين محمد، ومن سنّته ارتووا، وعلى دينه قاموا ونصبوا وماتوا! ولولا محمد لكانوا من أغمار الناس، أو لذهبت طاقتهم وعبقريتهم في خدمة الطغاة والجبارين الذين غلبوا عليهم!

ستجد عزيزي القارئ الكريم، في هذا العدد من مجلتنا أنصار النبي، شذرات عن فضل النبي ﷺ على الحيوان وعلى النبات وعلى الجماد، على الكافرين وعلى المسلمين، من التاريخ ومن الواقع، وهي أمور لا تكفيها هذه الصفحات القليلة، وإنما هي بمثابة فتح الباب، والدلالة على الكنز العظيم! فاغترف من الكنز ما استطعت، وانهل من النهر حتى تتضلع، فإن ذلك فلاحك في الدنيا والآخرة.



بين يدي المولد



الشيخ سامي الساعدي

عضو الأمانة العامة بالهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

ليس من قبيل المبالغة أن يُقال إن مولد النبي ﷺ حدثٌ من أهم الأحداث التي غيّرت وجه العالم. كيف لا وهو اليوم الذي استنارت فيه الدنيا بأفضل إنسان مشى على الأرض؟!

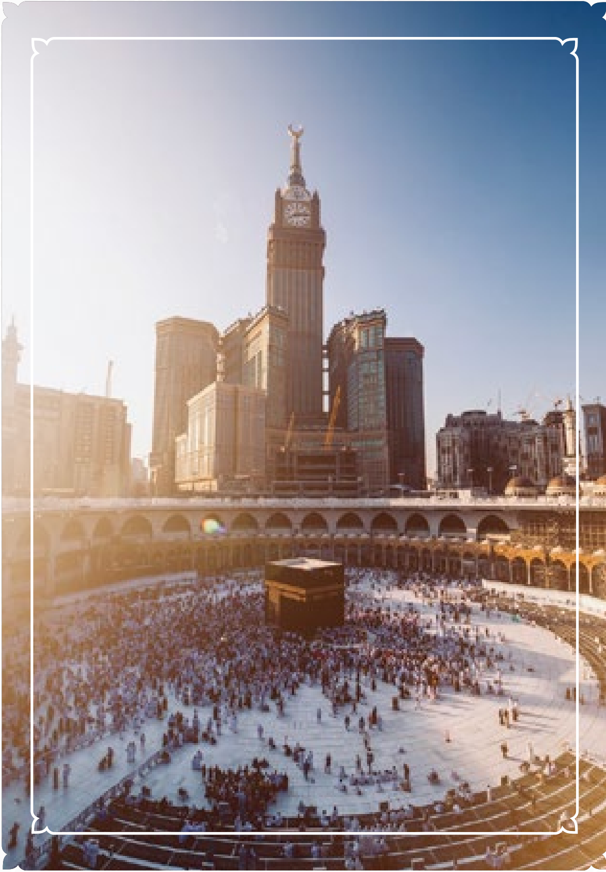
وقد كانت قبله قد تلاعبت بأهلها الأهواء، وغشيتهم ظلمات الشرك والظلم، وتمكن من عقولهم داء الجهل ما عدا ثلةً قليلة، كما جاء في حديث عياض المجاشعي عن النبي ﷺ: «... وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمَقَتَهم: عربَهم وعجمَهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»[1].

---

١. أخرجه مسلم

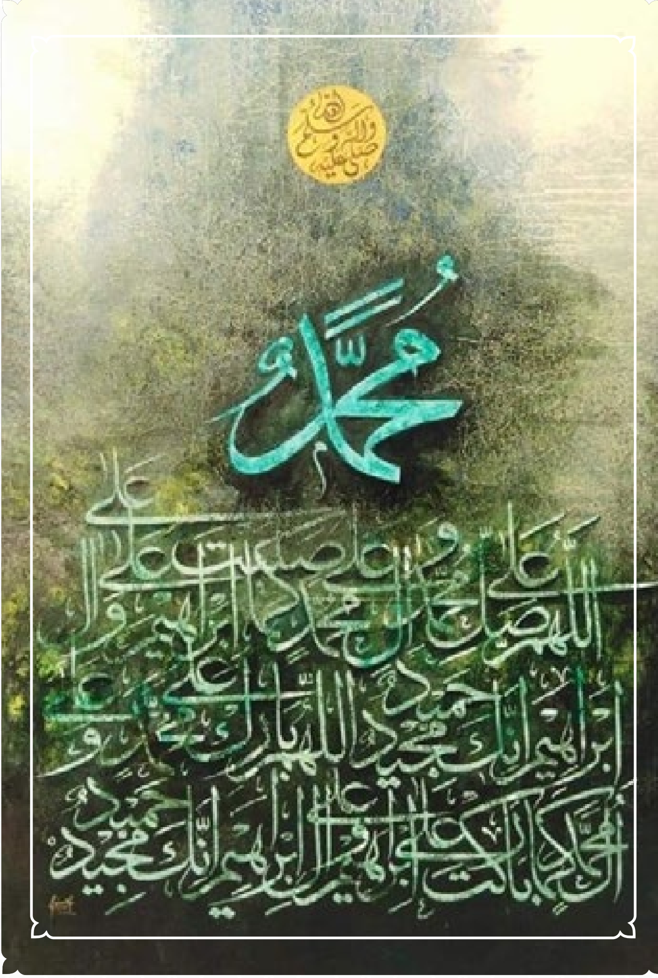
إنه محمد رسول الله، هذا الرجل الذي اجتمعت فيه ذروة الكمالات البشرية في أحلى صورها وأجلى مظاهرها. إنه اليوم الذي أذن فيه الله عز وجلّ بميلاد الرحمة المهداة، والنعمة المُسْداة، والسراج المنير. رحمة عامة لا تختص بقوم دون قوم، ولا ينعم بها عالَم دون آخر. قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

في أم القرى مكة المكرمة، في تلك البقعة الطاهرة التي ارتسمت فيها آثار قدَمَي أبي الأنبياء إبراهيم الخليل، يصحبه ولده النبي إسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان بناء الكعبة أول بيت وضع للناس، داعِيَيْنِ الله تعالى بدعاء جاء فيه: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]



في ذلك المكان وُلد الحبيب المصطفى محمد ﷺ، فازدادت مكة إلى شرفها شرفًا آخر، واستنارت باحتضانه فيها نورًا على نور.

لقد استجاب الله دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فكانت نعمة عظمى، وإحساناً عميماً امتنّ الله به على عباده وذكّرهم به فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]
وقد ثبت في مسند الإمام أحمد وغيره من حديث عدد من الصحابة أنهم قالوا: يا رسولَ اللهِ أخبِرْنا عن نفسِكَ، قال: «دعوةُ أبي إبراهيمَ وبُشرَى عيسَى، ورأت أُمِّي حينَ حَمَلَتْ بي كأنَّهُ خرجَ منها نورٌ أضاءَتْ له قصورُ بُصرَى من أرضِ الشَّامِ».



وعلى قدر علمك أيها المسلم بمكانة رسول الله ﷺ، يكون عِلمُك بعظمة نعمة الله عليك وشُكْرِها بأن جعلك من أتباع خاتم الأنبياء. وتكون محبتك لنبيك والتي كلما عظمت في قلبك كنت أتم إيمانًا وأكمل إيقاناً، ووجدت عندها حلاوة الإيمان. عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لَأنت أحبُّ إليّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: «لا، والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال له عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحب إليّ من نفسي. فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»[٢].

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجدَ بهن حلاوةَ الإيمان: من كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يكرَه أن يعودَ في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكرهُ أن يُقذفَ في النار».

وقد أجمع العلماء على أن نبينا محمداً ﷺ أفضلُ البشر، بل حكى عدد من العلماء الإجماع على أنه أفضل المخلوقات؛ قال القاضي عياض في كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى: «ولا خلاف أن موضع قبره ﷺ أفضل بقاع الأرض». وقال البرهان اللقاني في شرح قول صاحب الجوهرة (وأفضل الخلق على الإطلاقِ * نبينا فَمِلْ عن الشقاقِ) : «أفضليته ﷺ على جميع المخلوقات مما أجمع عليه المسلمون وأقام عليه قواطع الأدلة المحققون»، قال البدر الزركشي: «وهو مستثنى من الخلاف في التفضيل بين المَلَك والبَشَر».

---

٢. رواه البخاري.

وقال الشيخ ابن تيمية: «وقد اتفق المسلمون على أنه ﷺ أعظمُ الخلق جاهاً عند الله، لا جاهَ لمخلوق أعظمُ مِن جاهِه، ولا شفاعةَ أعظمُ من شفاعته». وقال أيضًا: «وثبت عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه قال: ما خلق الله خلقًا عليه أكرم من محمد، فقيل له: ولا جبريل ولا ميكائيل؟ فقال للسائل: أتدري ما جبريل وميكائيل؟ إنما جبريل وميكائيل خلق مسخّرٌ كالشمس والقمر، وما خلق الله خلقًا أكرم عليه من محمد».

ثم قال ابن تيمية: «وما علمتُ عن أحد من الصحابة ما يخالف ذلك، وهذا هو المشهور عن المنتسبين إلى السنة من أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم، وهو أن الأنبياء والأولياء أفضلُ من الملائكة». انتهى كلامه.

ومن أعظم فضائل نبينا محمد ﷺ: أن الله تعالى أقسم بحياته، وهذا فضل لم ينَلْه أحدٌ غيره. قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سورة الحجر: ٧٢]. قال القاضي عياض: «اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسمٌ من الله جل جلاله، بمدة حياة محمد، وأصله ضمّ العين، من العُمر، ولكنها فُتحت لكثرة الاستعمال، ومعناه: وبقائك يا محمد، وقيل: وعيشك، وقيل: وحياتك. وهذه نهاية التعظيم، وغاية البر والتشريف»[٣].



وقد روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم على الله من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى ذكره ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾»[٤].

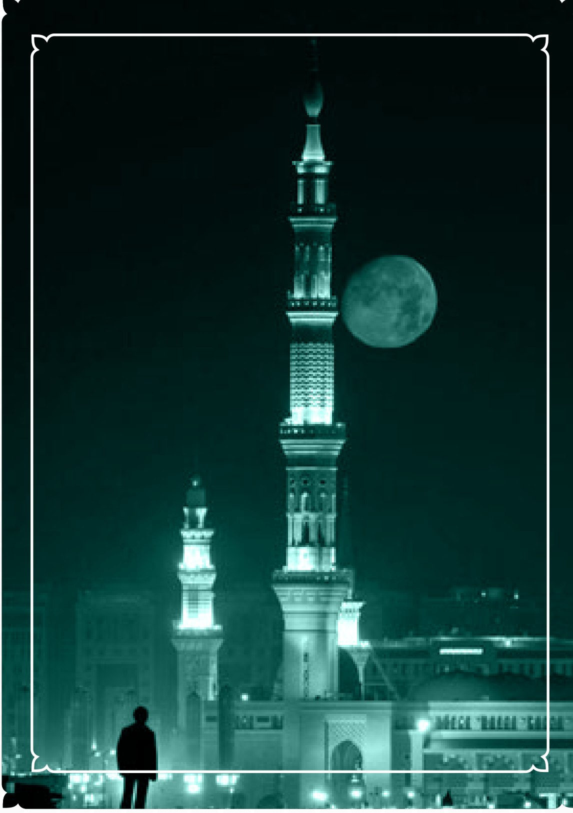
وقال السفاريني الحنبلي: «ولا شك أنه ﷺ خير الخلائق تفصيلًا وجملًا، قال ابن عباس: ما خلق خلقاً ولا برأه أحب إليه من محمد ﷺ، وفي أبي نعيم عن عبد الله بن سلام أنه ﷺ قال: «أنا

---

٣. الشفا ١/ ٨٦.

٤. تفسير ابن جرير، ورواه البيهقي في دلائل النبوة، والحارث بن أبي أسامة في مسنده، وغيرُهم.

أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع يوم القيامة ولا فخر». ونحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه، والأحاديث في ذلك كثيرة معلومة»[٥].



وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: «ثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه من أنه سيد ولد آدم يوم القيامة»[٦].

الشفاعة العظمى

ومما خص به الله تعالى نبينا محمدًا ﷺ من الفضل أنه أعطي يوم القيامة مقامًا محمودًا يغبطه عليه الأولون والآخرون، ولم يُعطَ لأحد غيره مِن نبي مرسَل، ولا ملَك مقرب، ألا وهو مقام الشفاعة العظمى، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]

ويذكر العلماء في هذا الباب أحاديث الشفاعة المتواترة، كما يذكرون حديثَ أبي بن كعب عن النبي ﷺ في صحيح مسلم وفيه: «فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأَخَّرْتُ الثالثةَ ليوم يَرْغب إليّ الخلقُ كلهم حتى إبراهيمُ ﷺ».

إبراهيم الذي اتخذه الله خليلًا، والذي وصفه الله بكونه أُمّةً، وأنه وفّى بما أُمِر به، وأتمَّ كلمات الله التي ابتلاه الله بهنّ، هذا النبي العظيم يرغب إلى نبينا يوم الفزع الأكبر يوم يقوم الناس لرب العالمين، في موقف الشفاعة العظمى؛ فأي منزلة وأي رتبة أعطاها الله نبينا محمدًا ﷺ؟!

ومقام الشفاعة العظمى هو أن الناس إذا اشتد بهم الكرب، وأخذ بنواصيهم الفزع، وأنهكهم الحر، وألهب أجوافَهم الظمأ يوم القيامة، فإنهم يستنجدون بالأنبياء واحداً واحداً، ليطلبوا من الله تعالى أن يبدأ

٥. غذاء الألباب شرح منظومة الآداب.
٦. البداية والنهاية.

الحساب، فيعتذر الأنبياء عن ذلك لهول الموقف، وشدة غضب الله تعالى، حتى يصلوا إلى النبي محمد ﷺ، وفي ذلك يقول النبي ﷺ في جزء من حديث الشفاعة الطويل:

«... فيأتون عيسى، فيقول: لست هُناكم، ولكن ائتوا محمداً ﷺ عبداً غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فيأتوني، فأنطلق فأستأذن على ربي، فيؤذن لي عليه، فإذا رأيتُ ربي وقعتُ له ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع محمد، وقل يُسمع، وسَلْ تُعْطَهْ، واشفعْ تُشَفَّعْ. فأحمدُ ربي بمَحَامدَ عَلَّمَنِيها، ثم أَشْفَعُ...».

شفاعته ﷺ لأهل الجنة

ومن خصائصه التي حباه ربه تبارك وتعالى بها نوعٌ آخرُ من الشفاعة، وهي شفاعته لأهل الجنة ليدخلوها، فهذه أيضًا مما خصه الله تعالى بها لا يشاركه فيها أحد، فقد جاء في صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«آتي بابَ الجنة يوم القيامة، فأستفتحُ، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أُمِرْتُ، لا أفتح لأحد قبلك».

وأما غيرها من الشفاعات كإخراج عصاة المسلمين من النار، ورفع درجات بعضهم في الجنة فقد أعطاها الله إياه وأشرك معه فيها غيرَه من الشهداء والصالحين والملائكة المقربين. قال الحكَمي بعد ذكر الشفاعة العظمى، شفاعته في استفتاح باب الجنة:

هذا وهاتان الشفاعتانِ •• قد خُصَّتا به بلا نكرانِ[٧]

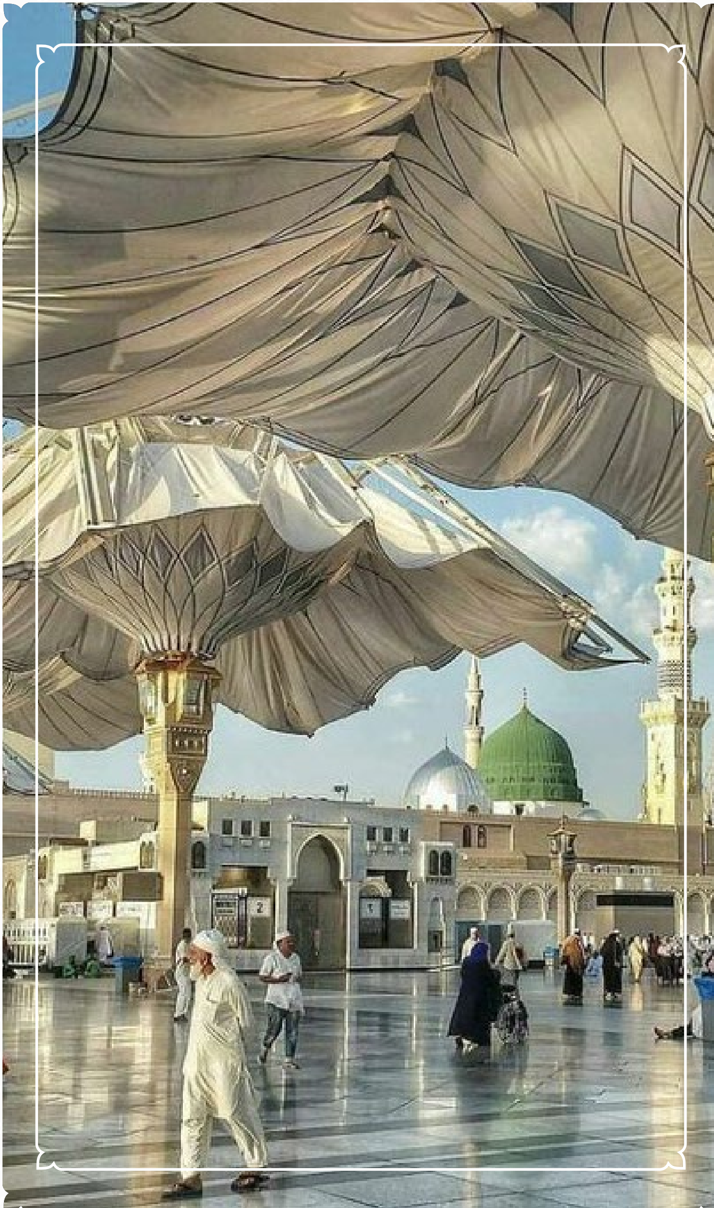
وصارت هذه الشفاعات عقيدةً لأهل السنة والجماعة، تُذكَر في مصنفاتهم، ويتميزون بها عن غيرهم ممن اشتط ذات اليمين أو ذات الشمال.

٧. سلم الوصول.

يا أيها النبي

ومن خصائص نبينا ﷺ الدالة على مكانته عند الله تعالى، والتي يلاحظها قارئ القرآن المتدبر، أو الباحث عن معانيه وأسراره: أن الله تعالى لم يُنادِه باسمه مجردًا، بل يناديه بـ(يا أيها النبيء) أو (يا أيها الرسول)، كما ناداه بـ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ بخلاف سائر إخوانه الأنبياء، فإنما يناديهم الله بأسمائهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وذلك لأن صفة الرسالة عن الله «أشرف الصفات» كما قال الشيخ الطاهر ابن عاشور. «وخوطب صلى الله تعالى عليه وسلم بعنوان الرسالة للتشريف، والإشعار بما يوجب عدم الحزن» كما يقول الآلوسي.

وقال صاحب المنار: «وفي هذا التشريف والتكريم تعليم وتأديب للمؤمنين يتضمن النهي عن مخاطبته باسمه والأمر بأن يخاطبوه بوصفه، وكذلك كان يدعوه أصحابه: يا رسول الله. وجهل هذا الأدب بعض الأعراب، لما كانوا عليه من سذاجة البادية وخشونتها ، فكانوا ينادونه باسمه «يا محمد» حتى أنزل الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوٓاْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ فلم يَعُد إلى دعائه باسمه أحد، ولكن المفسرين يغفلون عن هذا، فيكرر كثير منهم كلمة «يا محمد» عند تفسيرهم لخطاب الله لرسوله بمثل: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ وما أشبهه من الخطاب، وأخَذه عنهم قراء التفسير ، فيكادون يقولونه في تفسير كل خطاب، وإن لم يُذْكَر النداء في الكتاب».



أكمل الله تعالى به الدين

ومن خصائص نبينا ﷺ، أن أكمل الله به الدين وأتم به النعمة، فجعل رسالته خاتمةً للرسالات، وناسخةً لها، ومهيمنةً عليها، فجاءت شاملة كاملة، غير محتاجة إلى غيرها بما أودع الله تعالى فيها - كتابًا وسنةً - من القواعد الكلية، والتفصيلات الجزئية ما شكَّل من خلالها منظومة مكتملة البناء، تجمع بين الجزئيّ والكليّ، صالحةً للبقاء، مُصلِحةً للأنام، وإنما يُؤتَى أهلها في الواقع مِن جهلٍ بعضهم أو عجز آخرين، وإلا فلو توفروا على مَعِينِها الثَّرّ، واستقَوا من يَنبوعها الذي لا ينضب، لاستخرجوا منها العجب العُجاب.



وقد اختار الله ليُنزلَ آياتها وأحكامَها على أنقى قلب في الوجود، وأرقى نفس في العالَم، فبلغها أكمل ما يكون التبليغ، ورعاها أحسن ما تكون الرعاية، فاستغلظت فاستوت على سوقها، لكن بعض الأحفاد أضاعوا الأمانة، وآخرون ركبوا متنَ الخيانة، ومع هذا فإنما يعزي المؤمنين الراضين بالله ربًا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، ويسلي قلوبهم، ويثبت أقدامهم، بُشرياتٌ قالها أفضل الخلق وحبيب الحق، كقوله ﷺ: «لا تزالُ طائفةٌ من أمتي قائمةً بأمر الله، لا يضرهم مَن خذلهم، أو خالفهم حتى يأتيَ أمرُ الله وهم ظاهرون على الناس»[٨].

وقوله عليه الصلاة والسلام: **«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»**[٩].

---

٨. حديث صحيح متواتر ورد عن جمع من الصحابة بألفاظ متعددة.

٩. رواه أبو داود وغيره.

•• ومن الأحاديث التي ذُكرتْ مجموعةً من خصائصه ﷺ:

حديثُ أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلْتُ على الأنبياء بِسِتٍّ: أُعطِيتُ جوامعَ الكَلِمِ، ونُصِرتُ بالرعب، وأُحِلَّتْ لي الغنائمُ، وجُعِلَتْ لي الأرضُ طَهوراً ومسجدا، وأُرسِلتُ إلى الخَلْق كافةً، وخُتِمَ بي النبيون»[١٠].



ونحوه حديث جابر في الصحيحين وغيرهما غير أنه زاد الشفاعة ولم يذكر جوامعَ الكَلِم ولا خَتْمَ النبيئين.

وحديث حذيفة عند مسلم والنسائي، وذكر فيه أنه جُعِلَت صفوفُنا كصفوف الملائكة، وأنه أعطي الآياتِ من آخر سورة البقرة.

وقد تتبع الحافظ ابنُ حجر هذه الأحاديث وغيرَها ثم قال: «فينتظم بهذا سبعَ عشرةَ خصلةً، ويمكن أن يوجد أكثر من ذلك لمن أمعن التتبع... وقد ذكر أبو سعيد النيسابوري في كتاب شرف المصطفى أن عدد الذي اختص به نبينا ﷺ عن الأنبياء ستون خصلة» انتهى كلام الحافظ.

•• وقد ألفت في فضائله كتب منها على سبيل المثال لا الحصر:

دلائل النبوة للبيهقي الشافعي صاحب السنن الكبرى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ، ومشكاة الأنوار في فضائل النبي المختار للإمام البغوي الشافعي صاحب التفسير المتوفى سنة ٥١٦ هـ، وكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض المالكي المتوفى سنة ٥٤٤هـ، وكتاب زاد المعاد لابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ. هذا فضلاً عن كتب المناقب والفضائل ضمن دواوين السنة؛ ككتاب المناقب في صحيح البخاري،

---

١٠. رواه مسلم وغيره.

وكتاب الفضائل في صحيح مسلم، وأبواب المناقب في جامع الترمذي وكذلك مقدمة سنن الدارمي، وأبواب (صفته ﷺ وأخباره، والحوض والشفاعة والمعجزات وتبليغه الرسالة) من صحيح ابن حبان، وغيرها من مظانّ مناقبه عليه الصلاة والسلام، والمقصد ما كان مجموعاً في مصنف مستقل أو في جزء من مصنف، وإلا فالمبثوث في دواوين السنة والسيرة بحر زاخر بالمناقب.



لا تفي الكلمات بتَعداد فضائله الشريفة، ومناقبه المُنِيفة، ولكن حسبنا أن نضرب في فضل نشرِها بسهم.

يَومٌ يَتيهُ عَلى الزَمانِ صَباحُهُ	وَمَساؤُهُ بِمُحَمَّدٍ وَضّاءُ
الحَقُّ عالي الرُكنِ فيهِ مُظَفَّرٌ	في المُلكِ لا يَعلو عَلَيهِ لِواءُ
ذُعِرَت عُروشُ الظالِمينَ فَزُلزِلَت	وَعَلَت عَلى تيجانِهِم أَصداءُ
وَالنارُ خاوِيَةُ الجَوانِبِ حَولَهُم	خَمَدَت ذَوائِبُها وَغاضَ الماءُ
وَالآيُ تَترى وَالخَوارِقُ جَمَّةٌ	جِبريلُ رَوّاحٌ بِها غَدّاءُ
نِعمَ اليَتيمُ بَدَت مَخايِلُ فَضلِهِ	وَاليُتمُ رِزقٌ بَعضُهُ وَذَكاءُ

فاللهم صل وسلم وبارك على النبي المصطفى وآله وأصحابه وأنصاره واجعلنا منهم بفضلك ورحمتك وأنت أرحم الراحمين.

فضل النبي ﷺ في نهضة العرب



د. أحمد موفق زيدان

عضو الأمانة العامة للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ



بينما كانت الجيوش العربية بقيادة غلوب باشا البريطاني تواجه عصابات شتيرن والهاغاناه الصهيونيتين خلال حرب ١٩٤٨ - بغض النظر هنا عن مهزلة أن يقود جيشاً عربياً محتلٌّ بريطاني دونه لما تمكن اليهود من فلسطين - كان ضابط أردني عادي يسأل غلوب باشا في أحد دروسه العسكرية مع ضباط أردنيين آخرين عن مصير العرب بعد حرب فلسطين، ابتلع القائد البريطاني ريقه ثم دقّق طويلاً في أعين السائل، آخذاً نفساً عميقاً، يتناسب مع عمق السؤال، ليقول له: «العرب منذ القدم: غساسنة، ومناذرة، الشطر الأول مع الفرس، والثاني مع الروم، ولن تتغير المعادلة قبل حرب فلسطين وبعدها».



ساد صمت مريب على الحاضرين، لم يعلق أحد على جواب غلوب باشا، وابتلع الكل إهانة الجواب، ليمضي كل واحد إلى مهمته، وتمضي الحياة بنا كعرب كما شخّصها غلوب باشا وإلى الآن.

تذكرت هذه القصة التي رواها لي من سمعها من أربابها، وأنا أكتب عن فضل النبي محمد عليه السلام على أمة العرب. التي كانت أمة بلا دين، وبلا قائد، وبلا نظام، مبعثرة القبائل والعشائر، الهوية الواحدة التي تجمعها هي الهوية القبلية، والنسغ الوحيد الذي يشدهم هو غارة بعضهم على بعض، يقتتلون من أجل ناقة لأربعين عاماً، ويئد بعضهم بناته، وقبل هذا وبعده ينثرون أصنامهم حول أول بيت بُني للناس، البيت الحرام، ليصل عدد أصنامه إلى ٣٦٠ صنماً، لا دين يجمعهم، ولا حياة اجتماعية واقتصادية وسياسية تنظم معيشتهم.



تلك كانت الحياة في جزيرة العرب، ميّزها حينها أن سطوة الفرس والروم عليها معدومة، بخلاف حال العرب في العراق والشام، التي كانت أسوأ بكثير من هذا، حيث شبابهم مرتزقة وماءٌ لطاحونة معركة فرس في العراق، وروم في الشام.

في غضون ٢٣ عاماً فقط، تمكن النبي العربي محمد عليه السلام، من إخراج العرب من حياة الجاهلية الجهلاء، إلى حمل دين عالمي حضاري للعالم كله، دفع بعض مؤرخي الغرب ومفكريه لاحقاً، أن ينعتوه بـ (شمس العرب تسطع على الغرب)، تمكن النبي محمد عليه السلام خلال هذه الفترة القصيرة من جعل العرب مادة الإسلام والمسلمين، فارتفع شأن لغتهم، حين تشرّفت وتكرمت بنزول القرآن الكريم بها، وتشرّفت ثانية حين أتت أحاديث السنة النبوية المطهرة، كثاني مصادر التشريع الإسلامي بها. وتألّق وازدان شرفها حين أبلغنا المصطفى عليه السلام بأنها لغة أهل الجنة، فأي شرف وأي فضل أنعم الله به على العرب بهذا النبي العربي؟



لم يمنع النخبة المبدعة التي اختارها النبي عليه السلام حوله، أن يكون فيها بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي، فالعربية هي اللسان كما قرر النبي عليه السلام، ولذا حين تعرّبت أوطان كثيرة كانت من قبل غير عربية، عُدّت وحُسبت في صفوف العرب، فالأمن القومي، والمجال الحيوي للدول لا يقاس بالعرقية والجغرافيا فقط، بل بكل من آمن عقدياً وإيديولجياً بالفكرة، وهو ما حصل مع الصليبية الغربية، والشيوعية، والهندوسية، فكيف لا يكون ذلك مع العقيدة الإسلامية التي جمعت شتات العالم العربي والإسلامي من قبل ومن بعد، ولذا فقوة الرسالة المحمدية، وسطوتها وينبوعها الذي أضاء العالم منذ بعثته ظل وهاجاً حتى حين قاده الأمويون، ثم العباسيون، فصلاح الدين الكردي، فعثمان التركي، إلى المغول في وسط آسيا وجنوبها، والغزنوي الأفغاني، وغيرهم، فكل من آمن بما آمن به محمد عليه السلام، لم يجد العرب وغير العرب غضاضة أن يتبعوه قائداً وأميراً.

كان النبي عليه الصلاة والسلام يدرك منذ اللحظات الأولى للبعثة، عظم المهمة في توحيد قبائل العرب، ولذا كانت الدعوة المكية عشر سنوات، ليتعلم بها العرب الصبر على الأذى وابتلاءه، وشحن أنفسهم دينياً، ومع هذا الصبر على الاتباع والقيادة، ولذا أتت الأحاديث النبوية محذرة من الفرقة وشق عصا المؤمنين، وداعية إلى الجماعة، ومبايعة الأمير ولو كنتم ثلاثة، كما ورد في الأحاديث، كل ذلك من أجل تحضير العرب للعمل الجماعي في مواجهة إمبراطوريات ملء السمع والبصر يومها، لا يمكن مجابهتها بعقلية فردية، وإنما بعقلية جماعية منظمة، يقودها أمير واحد، ولذا رأينا تحذيره حين يخرج أمير محلي عن أوامره، كل ذلك بهدف تجذير العمل الجماعي والطاعة الجماعية، والنأي عن الفردانية التي دمرت العرب لقرون.

لم يرحل النبي عليه الصلاة والسلام حتى اختطّ الدورة الحضارية لمن بعده، التي أتت في حديث أبي الدرداء من مسند الإمام أحمد ومعجم الطبراني، وقال الهيثمي بأن رجال أحمد رجال الصحيح،

حين قال ﷺ : «بينما أَنَا نَائِمٌ إِذْ رَأَيْتُ عَمُودَ الْكِتَابِ احْتُمِلَ مِنْ تَحْتِ رَأْسِي، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ مَذْهُوبٌ بِهِ، فَأَتْبَعْتُهُ بَصَرِي، فَعُمِدَ بِهِ إِلَى الشَّامِ، أَلَا وَإِنَّ الْإِيمَانَ حِينَ تَقَعُ الْفِتَنُ بِالشَّامِ»، فكان أن شرع في تنفيذ تلك الدورة الحضارية، حين أصر على إنفاذ بعث أسامة بن زيد رضي الله عنه، وهو ينازع سكرات الموت، على الرغم من تردد بعض الصحابة في تعيين أسامة، الذي كان عمره لا يتعدى الـ ١٨ عاماً، فردّ عليهم رسول الله ﷺ : «إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله، إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده». رواه البخاري. وفي رواية أخرى، أمر عليه السلام بتنفيذ بعث أسامة، فقال: «أنفذوا بعث أسامة».



وتطبيقاً لوصيته عليه السلام بعد وفاته، كان بعث أسامة للشام، آخر وصية النبي كما كان أول بعث في حياة أبي بكر، ومع وفاة النبي عليه السلام بدأ البعض يتردد في إيفاد جيش أسامة، فأتى الحسم من صاحب الحسم، الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين قال: «والذي لا إله غيره، لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله، ما رددت جيشًا وجّهه رسول الله، ولا حللت لواءً عقده رسول الله». وفي رواية أنه قال: «لو ظننت أن السباع تخطفني، لأنفذت بعث أسامة، كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته».

وفي غضون عقدين من الزمن تمكن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام من القضاء على إمبراطورية الفرس، ودك إمبراطورية الروم، ليطرق الصحابة رضوان الله عليهم أسوار القسطنطينية بعد أن ركبوا البحر، الذي وعد النبي عليه الصلاة والسلام بأجر شهيدين لمن يُقتل وهو يقاتل أعداء الإسلام فيه، فكان أن ترك الصحابة رضوان الله عليهم قبر أبي أيوب الأنصاري شاهداً على فضل النبي عليه السلام على هذه الأمة، التي تمكنت من الوصول إلى أسوار القسطنطينية، وتحريضها حتى بالوصول إلى روما.

بسطت هذه الأمة سلطانها على بقعة عُدت الأضخم في تاريخ الإمبراطوريات، يوم وصلت إلى الأندلس ووسط آسيا، وفرضت هيبتها على العالمين، جعلت أميراً كمعاوية رضي الله عنه - فيما يروى في ذلك الزمان - يقول: «إن صياح الديكة في قبرص يزعج أهل الشام، ولذلك لا بد من تحريرها والسيطرة عليها».

لقد لعب هذا الدين الذين أتى به النبي عليه الصلاة والسلام من عند ربه دوراً مهماً في تعزيز ثقة العرب بأنفسهم، ليس على مستوى القيادة، وعلى مستوى تحرير أنفسهم، وتحرير غيرهم، جعلت رسول الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، يرسل لجنة استطلاعية لفتح السند والهند، فأرسل حكيم بن جبلة العبدي، فأتى بخلاصة دراسة تصلح رسالة للدكتوراه، في معرفة الشعوب ونفسيتها، فقال: «يا أمير المؤمنين! قد عرفتها وتخرتها». قال: «فصفها لي». قال: «ماؤها وشل، وثمرها دقل، ولصها بطل. إن قلّ الجيش فيها ضاعوا، وإن كثروا جاعوا». فقال له عثمان: أخابر أم ساجع؟ قال: بل خابر! فلم يغزها أحدٌ إلى أن فتحت في زمن الحجاج بن يوسف الثقفي.

لم يكن الإقلاع الحضاري للعرب في ساحة المعركة، بل كان الإقلاع الحضاري للمسلمين ومادتهم العرب في مجالات الحياة جميعها، انعكس ذلك في بناء المدن، وشق الترع، والطب والهندسة، والرياضيات والعلوم، والفلك، وهذا ربما بحاجة إلى مقال وبحوث عدة للحديث عن تألق المسلمين في هذه المجالات.

بالعودة إلى مستهل المقال، وكلام غلوب باشا عن غساسنة العرب ومناذرتهم، فإن الواقع العربي اليوم، يبدو كأنْ لا مياه كثيرة ولا قليلة جرت تحته، فلا يزال العرب إما غساسنة يطوفون حول الفرس الجدد، أملاً خلبياً سرابياً في تحرير الأقصى، بينما هي تفكك حواضرهم، ومدنهم وقراهم، أو مناذرة يطوفون حول الروم الجدد، أملاً في مكاسب ومنافع سرابية خلبية كذلك، وما لم يعد صوت النبي محمد عليه السلام، ليصدح من جديد في جسد هذه الأمة، ليؤذن بالجيل القرآن الفريد الذي تحدث عنه سيد قطب رحمه الله، فلن تعود الأمة إلى سابق عزها، وماضي مجدها.

حقوق الحيوان في سُنة الرسول ﷺ



د. عبد الحي يوسف

عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

من ثناء ربنا سبحانه وتعالى على نبيه ﷺ أنه أرسله ﴿رحمةً للعالمينَ﴾ والعالمون: كل ما سوى الله عز وجل؛ كما قال موسى عليه السلام جواباً على سؤال فرعون ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٤]. قال أهل التفسير: لِجَميعِ الْخَلْقِ. لِلْمُؤْمِنِ رَحْمَةً بِالْهِدَايَةِ وَرَحْمَةً لِلْمُنَافِقِ بِالْأَمَانِ مِنَ الْقَتْلِ وَرَحْمَةً لِلْكَافِرِ بِتَأْخِيرِ الْعَذَابِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هُوَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ إِذْ عُوفُوا مِمَّا أَصَابَ غَيْرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ.

وقد شملت رحمة نبينا ﷺ الحيوان البهيم والطيور العجماوات، ومن ذلك:

(١) عموم قوله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». قال في عون المعبود: «الراحمون» أي لمن في الأرض من آدمي وحيوان لم يؤمر بقتله بالشفقة عليهم والإحسان إليهم. اهـ

وقال عليه الصلاة والسلام: «والشاة إن رحمتها رحمك الله»، حين قال له رجل: يا رسول الله إني أذبح الشاة فأرحمها.



(٢) تحريمه ﷺ قتل بعض الدواب تعييناً، ففي حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن قتل أربع من الدواب النملة والنحلة والهدهد والصرد»، وفي رواية: الضفدع. الصرد: طائرٌ ضخمُ الرأس والمنقار وله ريشٌ عظيم نِصفه أبيض ونصفه أسود.

وعلة النهي عن قتل هذه الدواب ما فيها من المنافع؛ فإن النحل ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]، ومن منافع الضفدع أكله لكثير من الحشرات الضارة مما يسهم في الحفاظ على البيئة، وأما الهدهد والنملة فقد كان من خبرهما ما قصَّه الله علينا في سورة النمل، ويكفينا قول ربنا سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقد حكى لنا النبي ﷺ قصة نملة قرصت نبياً من الأنبياء قال: «فأمر بقرية النمل فأُحِرقت فأوحى الله إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمةً من الأمم تسبح الله». رواه البخاري.

(٣) يقابل ذلك أمره ﷺ بقتل بعض الدواب، وذلك كفاً لأذاها ومنعاً لشرها، ففي الصحيحين «خمسٌ فواسقُ يقتلن في الحِلِ والحرمِ: الحية والغُرابُ الأبقع والفأرةُ والكلبُ العقورُ والحُدَيّا».



فإن الكلب العقور يفزع الناس خاصة النساء والأطفال - ولربما آذاهم بنابه؛ والحية والعقرب تقتلهم بسمها، والفأرة تنقِبُ الأرض وتقرُضُ المتاع، والغراب والحدأة يخطفان الأشياء، قال النووي في شرح مسلم عن هذه الأصناف من الدواب: فسُميت هذه فواسق لخروجها بالإيذاءِ والإفسادِ عن طريقِ معظمِ الدوابِ. ا.هـ

ومثلها كذلك الوزغ فإنه مؤذ، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن إبراهيم لما أُلقي في النارِ لم تكن في الأرض دابةٌ إلا أطفأت النار غير الوزغ فإنها كانت تنفُخُ».

وهذه هي وسطية الإسلام بين قوم يعتدون على كل حيوان متلذذين بذلك حتى حرشوا بين البهائم واستمتعوا بمصارعة الثيران، وآخرين يغلون فيه فلا يبيحون قتله بحال، ولو آذى بني الإنسان؛ ودين الله عز وجل وسط بين الغالي فيه والجافي عنه.

٤ من رحمته عليه الصلاة والسلام بالحيوان حثنا على إطعامه وسقايته؛ حيث أخبرنا أن في كل كبد رطبة أجراً، فقال: «في كل كبدٍ رطبةٍ أجر». قال ابن حجر رحمه الله تعالى: أي الأجرُ ثابتٌ في إرواءِ كلِ كبدٍ حيةٍ. ا.هـ

وحكى لأصحابه رضوان الله عليهم أن بغياً غفر الله لها بسقايتها كلباً، فقال: «بينما كلب يُطِيفُ بركيّة كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها فسقته فغُفِر لها به». وقوله «ركية»: أي بئر ذات ماء.

وأعظم من ذلك أن يرتب ﷺ أجراً على أكل الحيوان أو الطائر مما يزرع الإنسان، فقال عليه الصلاة والسلام «ما مِن مسلمٍ يغرِسُ غرساً أو يزرعُ نخلاً فيأكلُ منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقة».

٥ من رحمته ﷺ بالحيوانات والطيور نهيه إيانا عن تعذيبها معنوياً، فمن ذلك ما حكاه ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا في سفرٍ مع النبي ﷺ فانطلق لحاجةٍ فرأينا حُمّرة معها فرخان فأخذنا فرخيها فجاءت الحُمّرة فجعلت تُفرِشُ، فجاء النبي ﷺ فقال «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها».

والحُمّرة: طائر صغير كالعصفور، وقوله: تُفرش: أي ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها.

وبلغت رحمته ﷺ بالدواب نهيه إيانا عن شدة الصياح على الفرس وزجره حال التسابق؛ لما في ذلك من إتعابها وإرهاقها، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا جلب ولا جنب في الرِهانِ». قال في عون المعبود: ويُطلق الجلبُ أيضاً على حث فرس السباق على قوة الجري بمزيد الصياح عليه لما يترتب عليه من إضرار الفرس. ا.هـ



وأبلغ من ذلك نهيه ﷺ عن لعن الحيوانِ والدعاء عليه، لأن هذا الدعاء قد يستجاب فيتضرر الحيوان بذلك، فقد كان النبي ﷺ في بعض أسفاره وامرأةٌ من الأنصار على ناقةٍ، فضجرت فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «خُذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة». رواه مسلم. وفي رواية: «لا أيمُ الله لا تصاحبُنا راحلةٌ عليها لعنة من الله». قال النووي رحمه الله تعالى: إنما قال هذا زجراً لها ولغيرها فعوقبت بإرسال الناقة. ا.هـ

٦ ومن باب أولى النهي عن تعذيبه مادياً، فنهانا ﷺ عن تجويع الحيوان أو تحميله ما لا يطيق، فقد دخل حائطاً لرجلٍ من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حنّ وذرفت عيناه فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه فسكت.. فقال لصاحب الجمل: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكا إليَّ أنك تُجيعه وتُدئبه».

وفي لفظ «إن بعيرك يشكو كثرة الكُلَف وقلة العلف».

ونهى ﷺ عن اتخاذ ظهور تلك الدواب منابر، بمعنى أن يقف عليها الإنسان ليتكلم إذ لا حاجة لذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «إياكم أن تتخذوا ظهور دوابِكم منابر فإن الله إنما سخرها لكم لتُبلِغكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بِشِقِ الأنفسِ، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجتِكم».



ومثله الجلوس عليها من غير حاجة، فقال عليه الصلاة والسلام: «اركبوا هذه الدواب سالمة، ولا تتخذوها كراسي». وقد روى الإمام أحمد في الزهد أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى أمر غلاماً له بأن يجم بغله أياماً ثلاثة بعدما أتعبه بأن دار به في السوق كله، فقال له عمر «لكنك أتعبت البغل، أجِمّه ثلاثة أيام»!

ونهى ﷺ عن اتخاذ شيء ذي روح غرضاً، أي هدفاً للرمي، وقد مر ابن عمر رضي الله عنهما بنفرٍ نصبوا دجاجةً يرمونها فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ إن النبي ﷺ لعن من فعل هذا. رواه البخاري ومسلم.



وأخبرنا عليه الصلاة والسلام أنه «دخلت امرأة النار في هرة حبستها، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض».

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: وظاهر هذا الحديث أن المرأة عُذِبت بسبب قتلِ هذه الهرة بالحبسِ. ا.هـ

فمن حبس حيواناً أو طائراً ولم يحسن إليه في طعامه وشرابه فهو مستحق للعذاب، أما من حبسه لمصلحة مع الإحسان إليه فلا يشمله هذا الوعيد، بدليل حديث أنس في قصة أخيه أبي عمير، حيث لم ينكر عليه النبي ﷺ اتخاذه نغراً يلعب به، بل قال له: «أبا عمير: ما فعل النغير؟». قال ابن حجر رحمه الله تعالى: في الحديث جواز لعِب الصغير بالطير وجواز إمساك الطير في القفص ونحوه. ا.هـ

ومن هذا الباب نهيه ﷺ عن التمثيل بالحيوان، بقطع بعض أطرافه أو إخصائه، قال ابن عمر رضي الله عنهما «لعن النبي ﷺ من مثَّل بالحيوان». ولما أتى ﷺ رجلاً في يده موسى يشق آذان بعض الإبل قال له: «ساعِدُ الله أشد من ساعِدك، وموسى الله أشد من موساك». أي أن الله تعالى سيفعل بك ما تفعل بتلك الدابة، فالجزاء من جنس العمل ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩] وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «نهى رسول الله ﷺ عن خِصاءِ الخيل والبهائم».

ونهى عليه الصلاة والسلام عن وسم الحيوان بالكي أو الجرح ونحو ذلك، ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ مر عليه حمارٌ قد وُسِم في وجهه فقال: «لعن الله الذي وسمه» وفي رواية: «لعن الله من فعل هذا، لا يسمَنّ أحدٌ الوجه ولا يضربنه». لكن إذا كان الوسم لتحصيل مصلحة من تمييز الدواب فلا حرج فيه لكن في غير الوجه، وذلك استدلالاً بما رواه الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال «غدوتُ إلى رسولِ الله ﷺ،

فوافيتُهُ في يده الميسم يسِمُ إبل الصدقة». قال ابن حجر رحمه الله تعالى: الحكمة فيه تميزها وليردها من أخذها ومن التقطها وليعرفها صاحِبُها فلا يشتريها إذا تصدق بها مثلاً لئلا يعود في صدقته. وذهب إلى هذا جمهور العلماء والعلة كما قلنا: جواز إيلام الحيوان للحاجة والمصلحة الراجحة. قال النووي رحمه الله: إذا وسم فيُستحبُ أن يسِم الغنم في آذانها والإبل والبقر في أصول أفخاذها لأنه موضعٌ صلب فيقِل الألم فيه، ويُخِفّ شعره ويُظهر الوسم. اهـ

٧ من رحمته ﷺ بالحيوان أمره بإحسان ذبحه؛ فإن الله تعالى قد خلق بهيمة الأنعام لننتفع بلبنها وصوفها ولحمها، فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩-٨٠]. وقال: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

ومع ذلك فإن الشريعة لم تبح لنا تعذيبها حتى في حال ذبحها بل أمرتنا بالإحسان في ذلك كله؛ فقال ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإن قتلتم فأحسنوا القِتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح» رواه مسلم. وقال أيضاً: «من رحِم - ولو ذبيحة عصفورٍ - رحِمه الله يوم القيامة».



قال البغوي رحمه الله: الإحسانُ في القتلِ والذبح مكتوبٌ على الإنسان كما نطق به الحديث. وعليه ينبغي أن يكون الذابحُ عالماً بطريقة الذبح الشرعية وإلا لن يتحقق الإحسان في الذبح. وقد فصل الفقهاء في ذلك من حيث إحداد الأداة المستخدمة في الذبح، وإراحة الذبيحة بالإسراع بإمرار الآلة على الحلق دون خنق لها، وسوقها إلى الذبح برفق، فقد رأى عمر رضي الله عنه رجلاً يجرُ شاةً ليذبحها فضربه بالدِّرةِ وقال: «سُقها -لا أم لك- إلى الموت سوقاً جميلاً». وألا يحد الشفرة أمامها، فقد رأى ﷺ رجلاً واضعاً رِجلهُ على صفحة شاةٍ وهو يحِدُ شفرته وهي تلحظُ إليه ببصرِها فقال عليه الصلاة والسلام: «أفلا قبل هذا أتريدُ أن تُميتها موتات». وألا يذبحها أمام أختها، وألا يشرع في سلخ جلدها أو نتفق ريشها قبل أن تزهق روحها.

محمد

ثبات النبي ﷺ في مواجهة الأذى

د. علي محمد الصلابي



المؤرخ الإسلامي

لم يفتر المشركون عن أذى رسول الله ﷺ منذ أن أرسله الله للعالمين، وطيلة فترة دعوته السريّة، ثم إلى أن صدع بدعوته، إلى أن خرج من بين أظهرهم، وأظهره الله عليهم، ويدلُّ على ذلك -مبلغ هذا الأذى- تلك الآيات الكثيرة الَّتي كانت تتنزَّل عليه في هذه الفترة تأمره بالصَّبر، وتدلُّه على وسائله، وتنهاه عن الحزن، وتضرب له أمثلةً من واقع إخوانه المرسلين.

مثل قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، و ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠]، و ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣].

النَّبيُّ ﷺ يتعرض للإيذاء



١ قال أبو جهل: هل يُعَفِّرُ محمدٌ وجهَه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللاَّتِ والعُزَّى! لئن رأيتُه يفعل ذلك؛ لأطأنَّ على رقبته، أو لأعفِّرَنَّ وجهه في التُّراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلِّي، زعم لِيَطَأ على رقبته، قال: فما فَجِئَهُمْ منه إلا وهو ينْكُصُ على عقبيه ويتَّقي بيديه. قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إنَّ بيني وبينه لخندقاً من نارٍ، وهَولاً، وأجنحةً، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني؛ لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»[١].

وفي حديث ابن عباسٍ قال: «كان النَّبيُّ يُصلِّي، فجاء أبو جهل، فقال: ألم أنهَك عن هذا؟! ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النَّبيُّ ﷺ، فزبره، فقال أبو جهل: إنَّك لتعلم ما بها نادٍ أكثر منِّي، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧ - ١٨] قال ابن عباس: لو دعا ناديه؛ لأخذته زبانية الله»[٢].

٢ وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «بينما رسول الله ﷺ قائمٌ يُصلِّي عند الكعبة، وجمع قريشٍ في مجالسهم؛ إذ قال قائلٌ منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيُّكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيَعْمِدُ إلى فَرْثِها، ودمها، وسلاها، فيجيءُ به، ثمَّ يمهله حتَّى إذا سجد؛ وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، فلمَّا سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النَّبيُّ ﷺ ساجداً، فضحكوا حتَّى مال بعضهم إلى بعضٍ من الضَّحك، فانطلق

---

١. أخرجه مسلم (٢٧٩٧).
٢. الترمذي (٣٣٤٩).



مُنطِلقٌ إلى فاطمةَ عليها السَّلامُ وهي جُوَيرِيةٌ- فأقبلت تسعى، وثبت النَّبيُّ ﷺ ساجداً حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تَسُبُّهم، فلمَّا قضى رسولُ الله ﷺ الصَّلاة، قال: اللَّهم عليك بقريش! اللَّهمَّ عليك بقريش! اللَّهُمَّ عليك بقريش! ثمَّ سَمَّى: اللَّهمَّ عليك بعمرو بن هشام، وعُتبةَ بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأميَّة بن خلف، وعقبة بن أبي مُعَيطٍ، وعُمارةَ بن الوليد، قال ابن مسعودٍ: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدرٍ، ثمَّ سحبوا إلى القَلِيب -قليب بدرٍ- ثمَّ قال رسول الله ﷺ: وأُتْبِعَ أصحابُ القَلِيبِ لعنةً»[٣].

وقد بيَّنت الرِّوايات الصَّحيحة الأخرى: أنَّ الَّذي رمى الرَّفث عليه هو عقبة بن أبي مُعَيْطٍ، وأنَّ الَّذي حرَّضه هو أبو جهل[٤]، وأنَّ المشركين تأثَّروا بدعاء الرَّسول ﷺ عليهم، وشقَّ عليهم الأمر؛ لأنَّهم يرون أنَّ الدَّعوة بمكَّة مستجابةٌ[٥].

٣ اجتماع الملأ من قريش وضربهم الرَّسول ﷺ: اجتمع أشراف قريشٍ يوماً في الحِجر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرَّجل قطُّ؛ سفَّهَ أحلامنا، وسبَّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمرٍ عظيمٍ! فبينما هم في ذلك؛ إذ طلع عليهم رسولُ الله ﷺ، فوثبوا وثبة رجلٍ واحدٍ، وأحاطوا به يقولون: أنت الَّذي تقول كذا وكذا -لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم- فيقول: «نعم، أنا الذي أقول ذلك»، ثمَّ أخذ رجلٌ منهم بمجمع ردائه؛ فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه، وهو يبكي، ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربِّيَ الله؟![٦].

---

٣. البخاري (٥٢٠) ومسلم (١٧٩٤).

٤. مسلم (١٧٩٤).

٥. السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، العمري، ١٤٩/١.

٦. البخاري (٣٦٨٧ و٣٨٥٦ و٤٨١٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٢٧٤/٢).

٤ كان أبو لهبٍ عمُّ النَّبيّ ﷺ من أشدِّ النَّاس عداوةً له، وكذلك كانت امرأته أمُّ جميلٍ، من أشدِّ النَّاس عداوةً للنَّبيّ ﷺ، فكانت تسعى بالإفساد بينه وبين النَّاس بالنَّميمة، وتضع الشَّوك في طريقه، والقذر على بابه، فلا عجب أن ينزل فيهم قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ [المسد: ١ - ٥]، فحين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالسٌ عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصدِّيق، وفي يدها فهرٌ من حجارةٍ، فلمَّا وقفت عليهما قالت: يا أبا بكر! أين صاحبك؟ فقد بلغني أنَّه يهجوني، والله لو وجدته؛ لضربت بهذا الفهر فاه! ثمَّ انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله! أما تراها رأتك؟ فقال: لقد أخذ الله ببصرها عنِّي، وكانت تنشد: مذمَّمٌ أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا، وكان رسول الله ﷺ يفرح؛ لأن المشركين يسبُّون مذمَّماً يقول: «ألا تعجبون كيف يصرف الله عنِّي شتم قريش، ولعنهم، يشتمون مذمَّماً ويلعنون مذمَّماً، وأنا محمَّد»[٧].

وقد بلغ من أمر أبي لهبٍ أنَّه كان يتبع رسول الله ﷺ في الأسواق، والمجامع، ومواسم الحج ويكذِّبه[٨].

هذا بعض ما لاقاه رسول الله ﷺ من أذيَّة المشركين، وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله ﷺ بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكِّيَّة[٩].



وكان رسول الله ﷺ يذكر ما لاقاه من أذى قريشٍ قبل أن ينال الأذى أحداً من أتباعه، يقول: «لقد أُخِفْتُ في الله - عزَّ وجلَّ - وما يُخاف أحدٌ، ولقد أُوذيت في الله وما يؤذى أحدٌ، ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يومٍ وليلة، وما لي ولا لبلالٍ طعامٌ يأكله ذو كبدٍ إلا شيءٌ يواريه إبط بلال»[١٠].

---

٧. البخاري (٣٥٣٣).
٨. السِّيرة النَّبويَّة، أبو شهبة، ١/٢٩٣.
٩. السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة، ١/١٥٣.

ومع ما له ﷺ من عظيم القدر، ومنتهى الشَّرف، إلا أنَّه قد حظي من البلاء بالحمل الثَّقيل، والعناء الطَّويل، منذ أوَّل يومٍ صدع فيه بالدَّعوة، ولقد لقي النَّبيُّ ﷺ من سفهاء قريش أذىً كثيراً، فكان إذا مرَّ على مجالسهم بمكَّة استهزؤوا به، وقالوا ساخرين: هذا ابن أبي كبشة يُكلَّم من السَّماء! وكان أحدهم يمرُّ على الرَّسول ﷺ فيقول له ساخراً: أما كُلِّمْتَ اليوم من السَّماء؟!

ولم يقتصر الأمر على مجرَّد السُّخرية، والاستهزاء، والإيذاء النَّفسيِّ، بل تعدَّاه إلى الإيذاء البدنيِّ، وحتَّى بعد هجرته - عليه السَّلام - إلى المدينة، لم تتوقف حدَّة الابتلاء والأذى، بل أخذت خطّاً جديداً، بظهور أعداءٍ جدد، فبعد أن كانت العداوة تكاد تكون مقصورة على قريش بمكَّة؛ صار له ﷺ أعداءٌ من المنافقين المجاورين بالمدينة، ومن اليهود، والفرس، والرُّوم، وأحلافهم، وبعد أن كان الأذى بمكَّة شتماً، وسخريةً، وحصاراً، وضرباً، صار مواجهةً عسكريَّة مسلَّحةً، حامية الوطيس، فيها كرٌّ، وفرٌّ، وضربٌ، وطعنٌ؛ فكان ذلك بلاءً في الأموال، والأنفس على السَّواء[١١].

وهكذا كانت فترة رسالته ﷺ وحياته، سلسلةً متَّصلةً من المحن، والابتلاء، فما وهن لما أصابه في سبيل الله، بل صبر، واحتسب حتَّى لقي ربَّه[١٢]. لقد واجه الرَّسول ﷺ من الفتن، والأذى، والمحن ما لا يخطر على بالٍ، في مواقف متعدِّدةٍ، وكان ذلك على قدر الرِّسالة الَّتي حُمِّلها، ولذلك استحق المقام المحمود، والمنزلة الرَّفيعة عند ربِّه، وقد صبر على ما أصابه؛ إشفاقاً على قومه أن يصيبهم مثلُ ما أصاب الأمم الماضية من العذاب؛ وليكون قدوةً للدُّعاة، والمصلحين، فإذا كان الاعتداء الأثيم قد نال رسولَ الله ﷺ، فلم يعد هناك أحدٌ أكبر من الابتلاء، والمحنة، وتلك سنّة الله في الدَّعوات؛ فعن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه قال: يا رسول الله! أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال:

«الأنبياء، ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ، يُبْتَلَى الرَّجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً؛ اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّةٌ ابتُلي حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتَّى يتركه يمشي على الأرض، وما عليه خطيئة»[١٣].

---

١٠. الترمذي (٢٤٧٢) وابن ماجه (١٥١).

١١. زاد اليقين، أبو شنب، ص١٣٧.

١٢. التمكين للأمَّة الإسلاميَّة، ص ٢٤٣.

١٣. ابن ماجه (٤٠٢٤) عن أبي سعيد الخدري، ورواه الترمذي (٢٣٩٨)، وأحمد (١٧٢/١)، وابن ماجه (٤٠٢٣) عن سعد بن أبي وقاص.

فضل النبي على النبات



الشيخ حسين عبد العال

عضو الأمانة العامة للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ



لئن كان فضل النبي ﷺ قد غمر الدنيا بأسرها، ولئن كان فضله عم البشرية جمعاء، ففضله أيضاً على النباتات لا يخفى، ذلك أن النبي ﷺ ما ترك وصفًا في الخير إلا واتصف به، وما ترك عملًا فيه خير له وللبشرية إلا وقام به، ليكون فيه قدوة للعالمين، هذا فضلًا عن كونه دعا إليه وحث أمته على فعله. ولقد عمل ﷺ قبل بعثته راعيًا للغنم، كما عمل تاجرًا في مال خديجة رضي الله عنها، وهكذا كان الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم يحترفون الحرف والمهن يعملون بها، وممن ورد عنهم أنهم عملوا بالزراعة من الأنبياء آدم عليه السلام، وكانت حواء تعاونه، بل وكان يصنع آلات الزراعة بيده كما ذكر القرطبي.

أما نبينا ﷺ فقد اهتم بالزراعة اهتمامًا بالغًا، ورغب فيها أصحابه بل والأمة بأسرها، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»[١]. وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةً، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ»[٢].



فأي امرئ عاقل يزهد بعد ذلك في الغرس أو في الزرع لما يعود عليه من الفضل، بل وقال بعضهم: حتى لو باع الثمرة فإنه ينال الثمن في الدنيا والأجر في الآخرة وذلك لعموم قوله ﷺ ما من مسلم، دون تخصيص بالتصدق أو الإهداء، فدخل فيها البائع. وقد حفظ الصحابة رضوان الله عليهم ذلك عنه فجعلوا الزراعة من أفضل عملهم الدنيوي لينالوا أجر الأخرة، فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، أَنَّ رَجُلًا مَرَّ بِهِ وَهُوَ يَغْرِسُ غَرْسًا بِدِمَشْقَ فَقَالَ لَهُ: أَتَفْعَلُ هَذَا وَأَنْتَ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ غَرَسَ غَرْسًا لَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ آدَمِيٌّ، وَلَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةً»[٣].

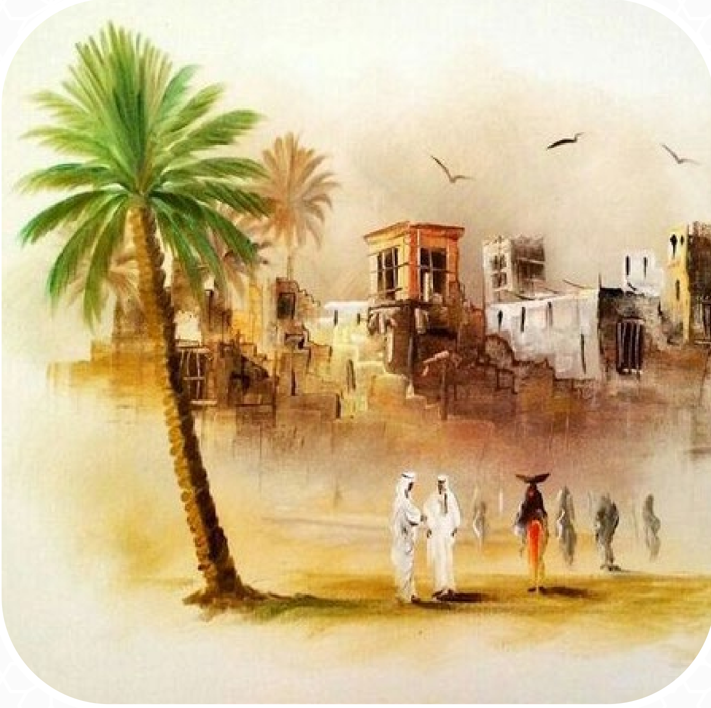
ورسول الله ﷺ خير معمِّر للأرض وكان يعلم أن الزراعة خير ما تُعَمَّرُ به الأرض، ثم من حرصه ﷺ على البيئة وعلى جمالها كان يأمر بكل ما يصلح الأرض، وينهى عن كل ما يؤدي للفساد فيها فينهى عن قطع الشجر المثمر

١. البخاري، رقم ٢٣٢٠.

٢. صحيح مسلم، رقم ١٥٥٢.

٣. مسند الإمام أحمد، رقم ٢٧٥٠٦.

أو الشجر الذي يستظل الناس به، بل ينهى عن البول والغائط في مستظل الناس أي تحت الشجر الذي يستظل به الناس كل ذلك محافظة منه ﷺ على البيئة وجمالها ومنافعها للبشرية. فعَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَتَلَ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا، أَوْ أَحْرَقَ نَخْلًا، أَوْ قَطَعَ شَجَرَةً مُثْمِرَةً، أَوْ ذَبَحَ شَاةً لِإِهَابِهَا لَمْ يَرْجِعْ كَفَافًا»[٤]. ولم يرجع كفافًا.. أي ذلك وعيد من النبي ﷺ لمن يفعل ذلك بأنه سيفتقر ولا يجد الكفاف بعد.



وينقل العلامة صفي الرحمن المباركفوري في كتابه الرحيق المختوم حديثًا عن رسول الله ﷺ في وصيته لأمراء الجيش يوم أن سيرهم إلى مؤتة قال لهم «اغزوا بسم الله في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغيروا، ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأةً، ولا كبيرًا فانيًا، ولا منعزلًا بصومعة، ولا تقطعوا نخلًا ولا شجرةً، ولا تهدموا بناءً»[٥].

فإذا كان ﷺ ينهاهم عن قطع النخل أو الشجر وهم في حال حربهم مع عدوهم، وربما في ذلك إعانة لهم على النصر؛ فالحفاظ على هذه الأشياء في السلم ولمصلحة المسلمين أولى، والنهي عن قطعها في السلم أشد.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا اللَّعَّانَيْنِ» قَالُوا: وَمَا اللَّعَّانَانِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ فِي ظِلِّهِمْ»[٦]. أي حتى لا يكون عرضة للعنَّة من قبل من أراد أن يسير في الطريق، أو أراد أن يستظل بذلك الظل، وفي هذا محافظة على البيئة ونظافتها ليستغلها الناس أفضل استغلال، فأي فضل لك على البشرية وعلى البيئة سيدي يا رسول الله!

---

٤. مسند الإمام أحمد، رقم ٢٢٣٦٨.

٥. الرحيق المختوم، صـ ٣٥٦.

٦. صحيح مسلم، رقم ٢٦٩.

وها هو رسول الله ﷺ يعلم البشرية درسًا عظيمًا في الاهتمام بالزراعة لكونها لا يُستغنَى عنها، ولكونها من أهم أسباب الحياة، فيبين الاهتمام بها حتى وإن قامت الساعة، فعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»[٧]. فأي اهتمام هذا بالزراعة أن يؤمر المرء في أشد اللحظات بغرس الفسيلة إن استطاع ذلك، بل وحتى لو كان يعلم عدم جدواها لحظة قيام الساعة، إذ ما جدوى غرس الفسيلة التي تحتاج لسنوات حتى تثمر؟! ولكنها دلالة عظيمة على اهتمامه ﷺ بالزراعة وإعمار الأرض.

وأما كونه ﷺ مزارعًا ففي ذلك ما ورد عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ قَالَ: سَمِعْتُ بُرَيْدَةَ يَقُولُ: جَاءَ سَلْمَانُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ بِمَائِدَةٍ عَلَيْهَا رُطَبٌ فَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَا هَذَا يَا سَلْمَانُ؟» قَالَ: صَدَقَةٌ عَلَيْكَ وَعَلَى أَصْحَابِكَ. قَالَ: «ارْفَعْهَا فَإِنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ» فَرَفَعَهَا، فَجَاءَ مِنَ الْغَدِ بِمِثْلِهِ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ: «مَا هَذَا يَا سَلْمَانُ؟» قَالَ: صَدَقَةٌ عَلَيْكَ وَعَلَى أَصْحَابِكَ. قَالَ: «ارْفَعْهَا، فَإِنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ» فَرَفَعَهَا، فَجَاءَ مِنَ الْغَدِ بِمِثْلِهِ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَحْمِلُهُ فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا سَلْمَانُ؟» فَقَالَ: هَدِيَّةٌ لَكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «ابْسُطُوا». فَنَظَرَ إِلَى الْخَاتَمِ الَّذِي عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَآمَنَ بِهِ. وَكَانَ لِلْيَهُودِ فَاشْتَرَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَذَا وَكَذَا دِرْهَمًا، وَعَلَى أَنْ يَغْرِسَ نَخْلًا فَيَعْمَلَ سَلْمَانُ فِيهَا حَتَّى تُطْعِمَ. قَالَ: فَغَرَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّخْلَ إِلَّا نَخْلَةً وَاحِدَةً غَرَسَهَا عُمَرُ، فَحَمَلَتِ النَّخْلُ مِنْ عَامِهَا وَلَمْ تَحْمِلِ النَّخْلَةُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا شَأْنُ هَذِهِ؟» قَالَ عُمَرُ: أَنَا غَرَسْتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَنَزَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ غَرَسَهَا فَحَمَلَتْ مِنْ عَامِهَا[٨].

ويبين الحديث أن النبي ﷺ باشر زراعة النخل بيديه الشريفتين بل وقام بنزع النخلة التي زرعها عمر رضي الله عنه لأنها لم تثمر وعاد ﷺ فزرعها فأثمرت من عامها. وهذا يوضح جليًا أنه ﷺ كان مزارعًا من الدرجة الأولى، ولم لا؟ وهو رسول الله جل في علاه والذي أخبر عن نفسه الكريمة وبين أنه سبحانه الزارع الحقيقي لكل مزروع. ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣- ٦٤]

هذا وصلى اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

٧. مسند الإمام أحمد، رقم ١٢٩٨١.

٨. مسند الإمام أحمد، رقم ٢٢٩٧.



هل خُلق النبي ﷺ من نور؟



الشيخ مختار بن العربي مؤمن

عضو مجلس الأمناء بالهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

الحمد لله الذي بعث في الأميين نوراً منيراً، ونبياً رسولاً، وبشيراً ونذيراً، إنه محمد ﷺ نبي الرحمة والملحمة. جاء بالهدى والخير، وأُرسل رحمة للعالمين والعالم يموج في ظلمات الشرك والجهل فأضاء بوجوده الكون، وتنور بمقدمه العالم.

وُلد الهدى فالكائنات ضياءُ •• وفم الزمان تبسم وثناءُ

مولد سيد الوجود

لقد ابتسم الكون لمقدمه، ورفرفت الملائكة لمولده، وتغنت الجن بمجيئه، وفرحت الكائنات وسلمت وحيت ورحبت بلقائه، إنه سيد الوجود محمد ﷺ، لقد كانت الدنيا مظلمة فاستنارت، وفم الزمان كالحا فابتسم.

وإنه لمن واجب أهل الإيمان والإسلام أن يفرحوا بمولد الهدى ﷺ فهو الذي أخرجنا الله سبحانه به من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الواجب معرفة سيرته واتباع سنته ونصر شريعته.

«من كذب عليّ متعمداً»

ومن النصر الذب عن حديثه بنفي المكذوب، وتثبيت الصحيح والحسن في المرهوب والمرغوب، ولقد ابتليت الأمة بالأفاكين المفترين على نبينا ﷺ منذ فجر الإسلام، وكان الخلفاء بعده يتثبتون في الرواية عنه ويحتاطون لذلك أشد احتياط خشية الكذب عليه، فهذا سيدنا عمر الفاروق يستوثق من سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنهم، وهو مَن هو في ضبطه وصدقه، حمايةً للدين واحتياطاً لحديث سيد الأولين والآخرين.



فعن أبي موسى الأشعري استأذن على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلم يؤذن له، وكأنه كان مشغولاً، فرجع أبو موسى، ففرغ عمر، فقال: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس؟ ائذنوا له، قيل: قد رجع، فدعاه فقال: كنا نؤمر بذلك، فقال: تأتيني على ذلك بالبينة، فانطلق إلى مجلس الأنصار، فسألهم، فقالوا: لا يشهد لك على هذا إلا أصغرنا، أبو سعيد الخدري. فذهب بأبي سعيد الخدري، فقال عمر: أَخُفِيَ هذا عليَّ مِن أمر رسول الله ﷺ؟! ألهاني الصفق بالأسواق»[١]. يعني الخروج إلى تجارة.

---

١. رواه البخاري (٢٠٦٢).

وهذا سيدنا عبد الله بن عباس يعرض عن الذين صاروا يتصدرون للحديث عن رسول الله ﷺ خشية الوضع، فقد جاء بشير العدوي إلى ابن عباس، فجعل يحدث، ويقول: قال رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ، فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه، ولا ينظر إليه، فقال: يا ابن عباس، ما لي لا أراك تسمع لحديثي، أحدثك عن رسول الله ﷺ، ولا تسمع؟ فقال ابن عباس: «إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول قال رسول الله ﷺ، ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب النّاس الصعب، والذلول، لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف»[٢].



وهذا من ضرب الأمثال، وهو في الإبل؛ فالصعب: العسر المرغوب عنه، والذلول: السهل الطيب المحبوب المرغوب فيه، والمراد بهذا المثل سلك الناس كل مسلك مما يحمد ويذم بعدما كانوا يحرصون على هدي النبي ﷺ وعلى الطريق المستقيم، وفي هذا إشارة إلى أنّ الحذر في أخذ الحديث بدأ في أواخر عهد الصحابة رضي الله عنهم لما استجدّ عند النّاس من عدم التوقي لحديث رسول الله ﷺ، ولذلك قال: «لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف»، أي: توقفنا عن الأخذ من كل مُحدّث إلا بما نعلمه من أقوال وسُنن النبي ﷺ، ولم نأخذ من حديث الناس إلا الحديث الذي تُعرف ثقة نَقَلَته، وصحة مَخرجه. وهذا يحدث مع بيان الصحابة للحق وعدم سكوتهم على الكذب على النّبي ﷺ، وهكذا بيّن ابن عباس رضي الله عنهما الطريق الحق في التثبت والتأكد من المرويات عن رسول الله ﷺ.

---

١. رواه البخاري (٢٠٦٢).

٢. رواه مسلم.

كيف فسّر العلماء نورانية النبي ﷺ

نعم لقد وُلد سيدنا وحبيبنا محمد كالبشر ولكن كان خيراً من كل البشر لاختيار الله له، تربى يتيماً حتى لا تكون عليه مِنة الوالدين في تبليغ الدعوة، وجاء للوجود من غير إخوة حتى يُخلص خلته واستناده وتوكله على الله، حُرم عطف الأم وحنانها حتى يحن لله تعالى في كل أحواله، رباه الله وأيّده، ونصره وسدده، فكيف يحتاج لغيره، حُرم نعمة الولد في حياته بعد رحيلهم قبله حتى لا يتنازع الناس في مقام النبوة بعده.

هو النور كما قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وإن لم يُخلق من نور كما يزعم الوضاعون والمفترون، زعماً منهم أنهم سيعلون مقامه بالكذب عليه، قال ابن جرير الطبري في تفسيره: «يَعني بالنور محمداً ﷺ الذي أنار الله به الحق وأظهر به الإسلام، ومَحَق به الشرك فهو نور لمن استنار به يبين الحق»[٣].



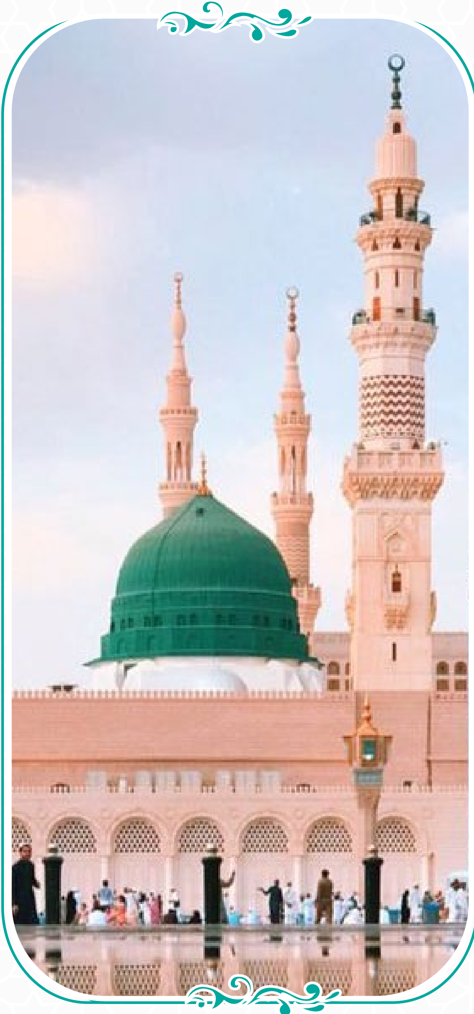
وتبعه ابن كثير والجلال، وقال الألوسي: «قد جاءكم من الله نور عظيم، وهو نور الأنوار، والنبي المختار ﷺ». وبه أيضاً صدر الفخر الرازي، ووالله لو صح الحديث لكنا أسعد الناس بصحته والإيمان بما جاء به، ولكن لم يصح فوجب علينا أن نكذب الكاذبين على سيدنا وقدوتنا ﷺ، ولقد سئل أحدهم لَمِ تضعون الحديث وتكذبون على رسول الله ﷺ؟ فقال وبئس ما قال: «إنما نكذب له لا عليه! وما أعظمها من فرية بلا مرية، وكأن النبي ﷺ حاشاه قد قصر في البلاغ! أليس هو القائل: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[٤].

---

٣. جامع البيان في تفسير القرآن (٦/١٦٦).
٤. البخاري (١٠٧) ومسلم (٢).

أحاديث مُختَلَقة

ووقوفاً عند مولده ﷺ أحببت أن أبيّن صحة تلك الروايات المُختَلَقة التي وردت لتخبرنا أن النبي ﷺ خُلق من نور، ولقد التبس عليهم الأمر، بين نعت الله له بأنه نور من الله، وبين خلقه من نور، قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾، ففرْقٌ بين الرسول ووصْفه بالنور وبين الكتاب المبين الذي جاء به. ولقد أخبرنا الصادق المصدوق عن أصل خِلقته فقال كما في حديث عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم». رواه مسلم، وهو ﷺ أحد بني آدم.



ولقد افترى الوضاعون حديثاً تداولته بعض كُتب الذين ليس لهم دراية بالصناعة الحديثية، لا سيما من الطرق الصوفية ومَن هم على شاكلتهم من غير أهل الحديث، فتناولوه بالشرح، وليتهم اكتفوا بما صح عما وُضع وطُرح، وإن هذه الأحاديث المكذوبة وأشهرها حديث روي وجادةً عن مصنف عبد الرزاق بن همام عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سأل رسول الله ﷺ عن أول شيء خلقه الله تعالى من المخلوقات فقال: «نور نبيك يا جابر خلقه الله وخلق بعده كل شيء وخلق منه كل خير». وفي بعض الروايات هذا الخبر «خلقه وخلق منه كل شيء»، وهي المشهورة الكثيرة في التقاليد المحتوية على هذا الخبر إلى آخر خبر طويل جداً. وفي بعضها تقسيم هذا النور إلى عشرة أقسام وتعيين خلق كل نوع من الكائنات من قسم معين من الأقسام العشرة.

فنقول وبالله التوفيق إن مما هو معلوم عند المحدثين وجود قاعدة في علم الحديث، وهي أن من شرط الحديث حتى يكون صحيحاً أن يكون راويه من العدول الضابطين وليس فيه شذوذ ولا عِلة، ولا يوجد في هذا الحديث المكذوب سند يمكن أن يُعوَّل عليه، فضلاً أنه لا يوجد في مصنف عبد الرزّاق، وإن كنت رأيت من اختلق له سنداً عن معمر عن ابن المنكدر وأن من الشواهد الدالة على وضعه ركاكة ألفاظه

ومعانيه، ولا ريب أن هذا الحديث من ذلك الصنف الذي تدل عليه ركاكة ألفاظه ومعانيه، ومخالفته لما جاء في الكتاب المبين، والأحاديث الصحيحة البينة الصريحة؛ فمن ذلك:

أولاً: أنه معارض للحديث الصحيح الذي رواه البخاري (٣١٩١) وغيره من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما، قال: دخلت على النبي ﷺ، وعقلت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم»، قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، مرتين، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن، فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إذ لم يقبلها تميم»، قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر؟ قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض».



قال الحافظ ابن حجر: «وفيه دلالة على أنه لم يكن شيء غيره لا الماء ولا العرش ولا غيرهما لأن كل ذلك غير الله تعالى ويكون قوله ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ معناه أنه خلق الماء سابقاً ثم خلق العرش على الماء، وقد وقع في قصة نافع بن زيد الحميري بلفظ «كان عرشه على الماء ثم خلق القلم فقال اكتب ما هو كائن ثم خلق السماوات والأرض وما فيهن» فصرح بترتيب المخلوقات بعد الماء والعرش».

ثم جمع الحافظ بين حديثي: القلم، وهذا الحديث بما يفيد قطعاً أن نور نبيك غير موجود في صحاح الكتب والسنن والمسانيد وغيرها، ثم قال الحافظ: فدل ذلك على أنه أخبر في المجلس الواحد بجميع أحوال المخلوقات منذ ابتُدئت إلى أن تُفنى إلى أن تُبعث، فشمل ذلك الإخبار عن المبدأ والمعاش والمعاد وفي تيسير إيراد ذلك كله في مجلس واحد من خوارق العادة أمر عظيم»[٥]

٥. فتح الباري للحافظ ابن حجر (٢٨٩ / ٦-٢٩١).

قال البيهقي في (مختلف الحديث): «جمع بينه وبين ما تقدم عن الصحيحين وغيرهما من أولية خلق العرش والماء على خلق ما سواهما، أراد أن أول شيء خلقه بعد خلق الماء والريح والعرش القلم. وذلك بيِّنٌ في حديث عمران بن حصين كما في الصحيحين عنه مرفوعاً، ثم خلق السماوات والأرض».

وروى عبد الرزاق عن عمر بن حبيب أحد الثقات عن حميد بن قيس الأعرج عن طاووس الإمام قال:

جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فسأله «مم خُلق الخلق؟» قال: «من الماء والنور والظُّلمة والريح والتراب». قال الرجل: «فمم خُلق هؤلاء؟» قال: «لا أدري». ثم أتى الرجل عبدَ الله بن الزبير رضي الله عنهما فقال مثل قول عبد الله بن عمرو، قال فأتى الرجل عبد الله بن عباس فسأله فقال: «مم خلق الخلق؟» قال: «من الماء والنور والظلمة والريح والتراب». قال الرجل: «فمم خُلق هؤلاء؟» فتلا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فقال الرجل: «ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهل بيت النبي ﷺ!».

قال البيهقي: «أراد أن مصدر الجميع منه أي من خلقه وإبداعه واختراعه، خلق الماء أولاً أو الماء وما شاء من خلقه لا عن أصل ولا على مثال سبق، ثم جعله أصلاً لما خُلق بعد، فهو المبدع وهو البارئ لا إله غيره، ولا خالق سواه سبحانه جل وعز»[٦].

وعن أبي هريرة، قال: «قلت يا رسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء». فقال: «كل شيء خُلق من ماء»[٧].

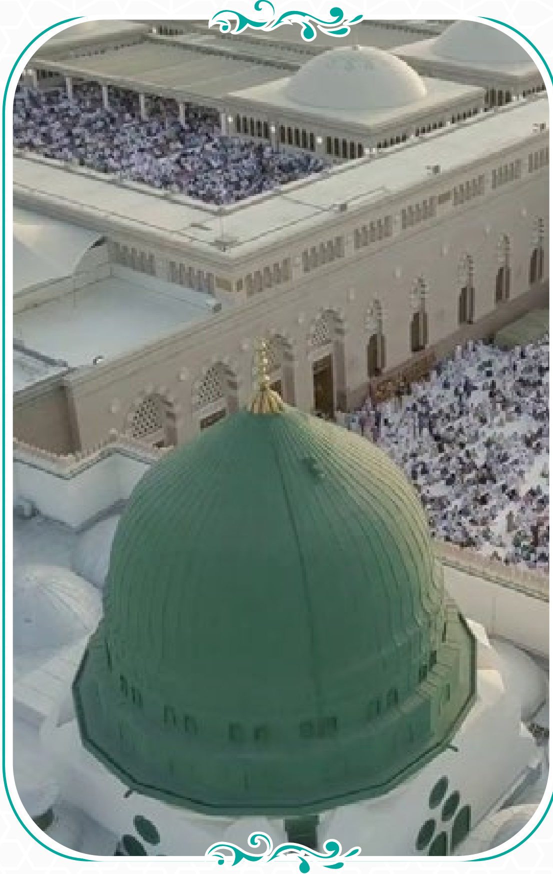
والأحاديث في هذا المعنى كثيرة صحيحة، نكتفي منها بما ذكرنا.

ثانياً: أن البشر كلهم خُلقوا من صُلب آدم، وآدم من تراب، كما تقدم حديث البخاري، فإما أن يكون النبي ﷺ من جنس الملائكة، وهذا مُحال لأن الله سماه رجلاً، والرجل الواحد من الناس، قال تعالى:

---

٦. تنبيه الحذاق على بطلان ما شاع بين الأنام من حديث النور المنسوب لمصنف عبد الرزاق، أحمد عبد القادر الشنقيطي المدني.
٧. أخرجه أحمد في المسند (٧٩٣٢) وقال شيخنا شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي ميمونة، فقد روى له أصحاب السنن الأربعة، وهو ثقة، وأخرجه الحاكم ٤/١٢٩ و١٦٠، وأخرجه ابن حبان (٥٠٨) و(٢٥٥٩).

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢] فلما لم يكن ملكاً أصله من نور لزم أن يكون أصله من طين ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠] معناه أن الرسول عليه السلام خُلق من نطفة أبويه.



فقوله تعالى: ﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إثبات للبشرية والمثل في الصورة والهيئة والجنس، وقوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ مناط التكريم والتفضيل. وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤] دليل واضح أن البشر خُلق من الماء والرسول بشر. وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ * وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤-١٥].

ثالثاً: هذا الحديث نص المحدثون على كذبه ووضعه، منهم الحافظ السيوطي حكم عليه بأنه غير صحيح، والحافظ أحمد الغماري المغربي. وقال الحافظ السيوطي في (الحاوي): «ليس له -أي حديث جابر- إسناد يُعتمد عليه».

قلت: وهو حديث موضوع جزمًا، وقد صرح الحافظ السيوطي في شرحه على الترمذي أن حديث أولية النور المحمدي لم يَثْبُت[٨].

وقد ذكر الشيخ عبد الله الغماري[٩] محدّث المغرب، أن عَزْوَ هذا الحديث الموضوع إلى مصنف عبد الرزاق خطأ لأنه لا يوجد في مصنفه ولا جامعه ولا تفسيره، والأمر كما قال.

قلت وإنما يوجد في تفسيره عن قتادة في شرح قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هُود: ٧] ما نصه: «هذا بدءُ خَلقه قبل أن يخلق السموات والأرض».

---

٨. الحاوي للفتاوى (١/٣٢٥).

٩. مرشد الحائر لبيان وضع حديث جابر، ص٤٣.

كما أن محدث عصره الحافظ أحمد بن الصديق الغماري حكم عليه بالوضع محتجاً بأن هذا الحديث ركيك ومعانيه منكرة[١٠].

وألف الشيخ محمد أحمد بن عبد القادر الشنقيطي رسالة في بيان وضعه عنوانها (تنبيه الحذاق على بطلان ما شاع بين الأنام من حديث النور المنسوب لمصنف عبد الرزاق)، وقال رحمه الله تعالى فيها:

«والدليل على أنه من المختلقات والمفتريات على رسول الله ﷺ طوله المفرط مع ركاكة ألفاظه وغرابته ونكارته وإعضاله عند نقاله، ولانفراد عبد الرزاق به من بين مَن صنف في دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام، ولعدم وجوده في ديوان من دواوين أصول الحذاق سوى مصنف عبد الرزاق، ولمخالفته دليل العقل وصحيح النقل من الكتاب والسنة وإجماع الأمة، ولخلوه من شروط قبول الحديث الستة التي اشترطها علماء الحديث وأئمته، فلم يقبلوا حديثاً خلا منها وهي الاتصال والضبط والعدالة والمتابعة في المستور وعدم الشذوذ وعدم العلة القادحة، وأيضاً نص أئمة الحديث ممن تقدمنا وممن عاصرنا على وضعه وضعفه وعدم وجود سند له.

ولا أعلم أن أحداً من الحذاق الذين ألفوا في خصائصه ﷺ أنهم ذكروا ذلك لو كان صحيحاً، ومن الغريب أن يفوت هذا الحديث رجلاً مثل القاضي عياض رحمه الله، فلا يورده في (الشفا) الذي أورد فيه عيون النصوص الدالة على خلق النبي وشرفه وعظمته، لو صح ذلك عنده.

ومن الأحاديث التي تدور في هذا الفلك:

١) حديث «خُلقت أنا وعليّ من نور، وكنا على يمين العرش قبل أن يخلق آدم بألف عام». وهذا الحديث موضوع، كما قال الشوكاني لأن في سنده جعفر بن أحمد بن علي بن بيان وكان رافضياً وضاعاً.

---

١٠. المغير على الأحاديث الموضوعة في الجامع الصغير للمناوي (ص٤).

٢ ومنها حديث: «خلقني الله من نوره وخلق أبا بكر من نوري». وهذا الحديث عزاه ابن عراق في تنزيه الشريعة لأبي نعيم. وقال فيه أبو نعيم: «هذا باطل»، وقال الذهبي في الميزان: «هذا كذب، والآفة عندي من أحمد بن يوسف المسيحي»[١١].

والعبرة في التصحيح والتضعيف أن يكون من حافظ، أي أن ينص حافظ على أن هذا الحديث صحيح، أو أن يذكر حافظ في كتابه أنه يقتصر فيه على الصحيح كالحافظ سعيد بن السكن فإنه ألف كتاباً اشترط فيه الاقتصار على الصحيح سماه (السنن الصحاح)، ومثله ابن حبان وابن خزيمة والحاكم. ويؤيد هذا ما ذكره الحافظ السيوطي في ألفيته في مصطلح الحديث:

وخذه حيث حافظٌ عليه نَصْ •• أو من مصنَّف بجمعه يُخَص

أعني أن الحديث الصحيح يُعرف أنه صحيح بنَصّ حافظ على صحته، أو بأن يُذكَر في كتاب ألفه حافظ واشترط فيه أنه لا يَذكر في كتابه هذا إلا الصحيح. وأما غير الحفاظ فلا عبرة بتصحيحهم ولا بتضعيفهم، فحديث أولية النور المحمدي لم يصححه حافظ من الحفاظ لا من المتقدمين ولا من المتأخرين، ولم يذكَر في كتاب اشترط فيه مؤلفه الحافظ أنه يقتصر فيه على الصحيح.

وقد جازف بعض نظام الصوفية فأدرجوا هذا المعنى الموضوع في أناشيدهم، منها الشيخ يوسف النبهاني:

نورك الكل والورى أجزاءُ •• يا نبياً مِن جُندِه الأنبياءُ

وفي كتاب (مولد أبي الوفا) أيضاً ما نصه:

خَلق الله من النور القديم •• نور مصطفى التهامي الأصيل

وفي أنشودة رأيتها تتردد على ألسنة الصغار في المجامع قولهم فيها: محمد لم يزل نوراً من القِدَم.

فاللهم صل وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

---

١١. ميزان الاعتدال (١/١٦٦).

معالم الرحمة النبوية تجاه الضعفاء وذوي الحاجة



الشيخ شكري مجولي

عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

الرسالة المحمدية رحمة للبشرية، لمن آمن بها ومن لم يؤمن بها على السواء. وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة، لمن يريد أن يستظل بها، ويستروح فيها نسائم السماء الرخية، في هجير الأرض المحرق وبخاصة في هذه الأيام.

وإن الإنسانية اليوم لفي أشد الحاجة إلى حسّ هذه الرحمة ونداها، وهي قلقة حائرة، شاردة في متاهات المادية، وجحيم الحروب، وجفاف الأرواح والقلوب.

«ولقد جسّد رسول الله ﷺ بسيرته وسلوكه وتصرفاته تلك الكرامة وكيفية التعامل مع الناس جميعاً، وخاصة الضعفاء منهم، لحاجتهم الماسة إلى الرعاية»

لقد كرّم الله الإنسان على سائر خلقه، وفضّله على كثير ممن خلق تفضيلاً، لأنّ كرامته مقررة بأصل خلقه، ومستمدة ممن خلق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، ولقد جسّد رسول الله ﷺ بسيرته وسلوكه وتصرفاته تلك الكرامة وكيفية التعامل مع الناس جميعاً، وخاصة الضعفاء منهم، لحاجتهم الماسة إلى الرعاية والعناية والحماية، ولم يقتصر ﷺ على تقديرهم واحترامهم ومساواتهم بالحقوق مع سائر الناس، بل أحلهم المواقع العظيمة وبوأهم المنازل العالية الرفيعة، مما يحقق التكافؤ بين جميع فئات المجتمع.

عناية رسولنا ﷺ بالضعفاء لحاجة المجتمع إليهم

الدارس للسّنّة النبوية يظهر له بجلاء اهتمام نبينا ﷺ بالضعفاء، وتوجيه النظر إلى القيام بواجب نصرتهم، وحماية حقوقهم ورعايتها والمحافظة عليها، ليؤسس بذلك نبينا ﷺ مبدأ عظيماً ومنهجاً قويماً، أن المجتمع برمته هو الذي في أشد الحاجة إلى هذه الفئة الضعيفة، بل هو مدين لها في استمرار وجوده واستقراره وانتصاره، قال ﷺ: «إنما ينصرُ اللهُ هذه الأمةَ بضعيفِها بدعوتِهم وصلاتِهم وإخلاصِهم»[1].

١. سنن النسائي: كتاب الجهاد الاستنصار بالضعيف (حديث رقم: ٣١٧٨).

وعن المُستورد القُرشي رضي الله عنه، أنه قال عند عمرو بن العاص رضي الله عنه: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس»». فقال له عمرو: أبصر ما تقول، قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال: لئن قلت ذلك، إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرَّة بعد فرَّة، وخيرهم لمسكين، ويتيم، وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك»[٢].

وهذه قاعدة ذهبية وغاية اجتماعية في رعاية حقوق الضعفاء.

الرسول ﷺ ومراعاة نفوس الضعفاء وذوي الحاجة

من وجوه حفظ الاعتبار ومراعاة نفوس الضعفاء وذوي الحاجة= خفض الجناح ولين الجانب لهم. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال له:

«إن أردت تليين قلبك، فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم»[٣].

وعن عَائِذ بن عمرو رضي الله عنه أن أبا سفيان أتى على سلمان وَصُهيب وبلال في نفرٍ، فقالوا: والله ما أخذَتْ سُيُوف الله من عُنُقِ عَدُوِّ الله مَأْخَذَها، قال: فقال أبو بكر: أَتَقُولُون هذا لشيخ قريشٍ وسيِّدِهِم؟ فأتى النبي ﷺ فأَخْبَره، فقال: يا أبا بكر لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُم، لَئِنْ كُنْتَ أغضبتهم لقد أغضبتَ رَبَّكَ». فأتاهم أبو بكر، فقال: يا إِخْوَتَاه أَغْضَبْتُكُم؟ قالوا: لا، يَغْفِرُ اللَّهُ لك يا أُخَيَّ»[٤].

خاب من شقّ عليهم

وعيد رسول الله ﷺ الشديد لمن ولاه الله شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب عنهم ولم يقض حوائجهم، سواء كان ملكاً أو وزيراً أو قاضياً أو أميراً أو مديراً أو من دونهم، فجاءت الأحاديث محذرة الحاكم من تضييع حقوق الضعفاء، ومشددة على وجوب حفظ حقوقهم من الضياع.

---

٢. صحيح مسلم: حديث رقم: ٨٩٨٢.

٣. فتح الباري ١١/١٥١.

٤. صحيح مسلم: حديث رقم: ٢٥٠٤.

فعن أبي مريم الأزدي رضي الله عنه قال: «دخَلتُ على معاويةَ فقالَ: ما أنعَمَنا بِكَ أبا فلانٍ - وَهيَ كلِمةٌ تقولُها العرَبُ - فقلتُ: حديثًا سَمِعْتُه أخبرُكَ بِهِ، سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: مَن ولَّاهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ شيئًا من أمرِ المسلمينَ فاحتَجَبَ دونَ حاجتِهِم، وخلَّتِهِم وفَقرِهِم، احتَجَبَ اللَّهُ عنهُ دونَ حاجَتِهِ وخلَّتِهِ وفقرِهِ. قالَ: فجعلَ رجلًا علَى حوائجِ النَّاسِ»[٥].

وعن حرام بن معاوية، قال: قال النبي ﷺ: «من ولي من أمر السلطان شيئاً ففتح بابه لذي الحاجة، والفاقة، والفقر، يفتح الله أبواب السماء لحاجته وفاقته وفقره، ومن أغلق بابه دون ذوي الحاجة والفاقة والفقر، أغلق الله أبواب السماء دون حاجته، وفاقته، وفقره»[٦].

المكانة الاجتماعية للضعفاء وذوي الحاجة

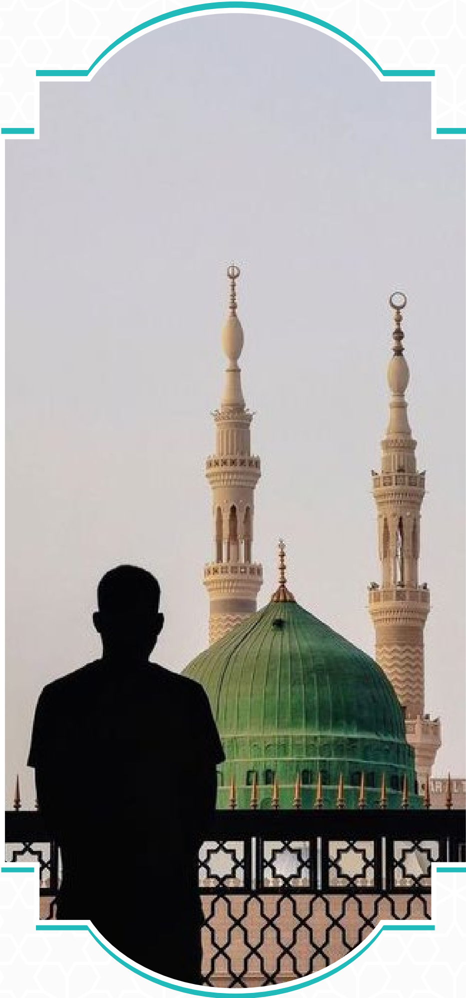
لم يكتفِ رسول الله ﷺ بالتعامل الإيجابي، والمعاملة الحسنة مع الضعفاء وإعادة الاعتبار لهم، بل تعداه إلى أبعد من ذلك، فأوكل إليهم مهاماً عسكرية، وشرعية، وإدارية، فاستخلف الصحابي الجليل ابنُ أمِّ مكْتوم رضي الله عنه مرتين على المدينة في غزوتين غزاهما يصلي بأهلها. قال أنس بن مالك رضي الله عنه إنه رآه يوم القادسية معه راية سوداء وعليه درع له؛ وكذلك روى الترمذي في سننه عن عائشة رضي الله عنها، قالت: أنزل الله (عبس وتولى) في ابن أم مكتوم الأعمى.. أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويُقبِل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا، ففي هذا أُنزلت». فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه ويقول إذا رآه: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي»، ويقول له: «هل لك من حاجة؟»[٧].



٥. أخرجه أبو داود (٢٩٤٨) واللفظ له، والترمذي (١٣٣٢)، وأحمد (١٨٠٦٢).
٦. مصنف عبد الرزاق: كتاب الجامع: باب الإمام راع حديث رقم: ٢٠٦٥٥.
٧. جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) ٢٤/١٠٤ – ١٠٥.

وأصبح بذلك من خيرة الصحابة، شارك في الحكم زمن النبي ﷺ وحمل الراية في القادسية ففتح الله على بصيرته عوضاً عن بصره، فكان يحس بالأعداء ويقاتلهم، وبقي يحارب الفرس حتى قُطعت يده اليمنى التي يحمل بها الراية وسقط شهيداً، وهذا يدل على عمق التشريع الإسلامي وإدراك الصحابة لذلك.

رسول الله ﷺ وتخفيف التكاليف الشرعية عن الضعفاء



لقد وضع رسول الله ﷺ عن الضعفاء بعض التكاليف الشرعية وخفف عنهم في أخرى، ذلك أن الشريعة جاءت بالتيسير، وبرفع الحرج، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال عز وجل: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ٩١]، ليس على الضعفاء العاجزين عن القتال لعلة في تكوينهم، أو لشيخوخة تقعدهم، ولا على المرضى الذين لا يستطيعون الحركة والجهد، ولا على المعدمين الذين لا يجدون ما يتزودون به. ليس على هؤلاء حرج إذا تخلفوا عن المعركة في الميدان، وقلوبهم مخلصة لله ورسوله.

ذكر ابن كثير في قصّة حضور عمرو بن الجموح رضي الله عنه معركة أحد، عن ابن الكلبيّ أنه قال: «كان عمرو بن الجموح آخر الأنصار إسلاماً، ولمّا ندب رسول الله ﷺ النّاس إلى بدر أراد الخروج معهم، فمنعه بنوه بأمر رسول الله ﷺ لشدّة عرجه، فلما كان يوم أُحُد، قال لبنيه: منعتموني الخروج إلى بدر فلا تمنعوني الخروج إلى أُحُدْ. فقالوا: إن الله عذرك، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّ بَنِيّ يريدون أنْ يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنّة. فقال له رسول الله ﷺ: «أمّا أنت فقد عذرك الله، ولا جهاد عليك». وقال لبنيه: «لا عليكم أن تمنعوه، لعل الله يرزقه الشّهادة».

عن قتادة بن الحارث بن ربعي الأنصاريّ رضي الله عنه قال: أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلتُ في سبيل الله حتى أُقتل، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. فقتلوه يوم أُحد وهو وابن أخيه ومولى لهم، فمرَّ عليه رسول الله ﷺ فقال: «كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنّة»[٨].



وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاء عمرُو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ يوم أُحُدٍ فقال: يا رسول الله مَنْ قُتِل اليوم دخل الجنة؟ قال: نعم، قال: فوالَّذي نفسي بيدِه لا أرجعُ إلى أهلي حتَّى أدخل الجنة. فقال له عمر بن الخطاب: يا عمرُو لا تأَلّ (تحلف) على الله. فقال رسول الله ﷺ: «مَهلاً يا عمر فإنَّ منهم مَن لو أقسَم على اللهِ لَأَبَرَّه: منهم عمرو بن الجموح، يخوضُ في الجنَّةِ بعَرْجَتِه». وفي رواية أخرى: «إن منكم مَنْ لَوْ أَقْسَمَ على الله لأَبَرَّه، منهم: عمرو بن الجموح، ولقد رأيته يطأ في الجنة بِعَرْجَتِهِ»[٩].

وكذلك خفَّف الكفارات الواجبة عن الضعفاء فأسقطها أو أرجأها، فالكفارات بأنواعها لا تجب على المعسر حال إعساره، ولما كان المعسر الذي وجبت عليه الكفارة عاجزاً عن نفقة أهله، روى الإمام مسلم في صحيحه أنَّ أَبَا قَتَادَةَ طَلَبَ غَرِيمًا له، فَتَوَارَى عنْه، ثُمَّ وَجَدَهُ، فَقالَ: إنِّي مُعْسِرٌ، فَقالَ: آللَّهِ؟ قالَ: آللَّهِ. قالَ: «فإنِّي سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: مَن سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللَّهُ مِن كُرَبِ يَومِ القِيَامَةِ، فَلْيُنَفِّسْ عن مُعْسِرٍ، أَوْ يَضَعْ عنْه»[١٠].

٨. مسند الإمام أحمد ٥/ ٢٩٩ رقم ٢٢٥٥٣.

٩. صحيح ابن حبان ١٥/٤٩٣ – ٤٩٤.

١٠. صحيح مسلم: حديث رقم ١٥٦٣.



وقال ﷺ: «ما مِن مُؤْمِنٍ إلَّا وأَنَا أَوْلَى به في الدُّنْيا والآخِرَةِ، اقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، فأيُّما مُؤْمِنٍ مَاتَ وتَرَكَ مَالًا، فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَن كَانُوا، ومَن تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا، فَلْيَأْتِنِي، فأنَا مَوْلَاهُ»[١١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بيْنَما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النبيِّ ﷺ، إذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ هَلَكْتُ. قَالَ: ما لَكَ؟ قَالَ: وقَعْتُ علَى امْرَأَتي وأَنَا صَائِمٌ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: هلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَهلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، قَالَ: لَا، فَقالَ: فَهلْ تَجِدُ إطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا. قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَكَثَ النبيُّ ﷺ، فَبيْنَا نَحْنُ علَى ذلكَ أُتِيَ النبيُّ ﷺ بعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ - والعَرَقُ المِكْتَلُ - قَالَ: أيْنَ السَّائِلُ؟ فَقالَ: أنَا، قَالَ: خُذْهَا، فَتَصَدَّقْ به. فَقالَ الرَّجُلُ: أعَلَى أفْقَرَ مِنِّي يا رَسولَ اللَّهِ؟ فَوَاللَّهِ ما بيْنَ لَابَتَيْهَا - يُرِيدُ الحَرَّتَيْنِ - أهْلُ بَيْتٍ أفْقَرُ مِن أهْلِ بَيْتِي، فَضَحِكَ النبيُّ ﷺ حتَّى بَدَتْ أنْيَابُهُ، ثُمَّ قَالَ: أطْعِمْهُ أهْلَكَ»[١٢].

وهذا التخفيف شمل حتى غير المسلمين، قال ابن القيم: «لا جزية على فقير عاجز عن أدائها هذا قول الجمهور... والصحيح أنها لا تجب على عاجز عنها، فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها»[١٣].

---

١١. صحيح البخاري ٢٣٩٩.

١٢. صحيح البخاري: حديث رقم: ٦٧٠٩.

١٣. أحكام أهل الذمة ١/١٥٩.

الرسول ﷺ ونصرة المظلوم



«السلطان في الإسلام يأوي إليه الضعيف، وكل مظلوم من عباد الله، وبه ينتصر المظلوم من الظالم، فقد جاءت الشريعة الغراء لتحقيق العدل، ومحاربة الظلم، وجعلت نصرة المظلوم من حقوقه الواجبة، وحثّت الأمة على نصرته وإنصافه والوقوف بجانبه، كلٌّ بحسب قدرته، قال ابن بطال: «نصر المظلوم فرض واجب على المؤمنين على الكفاية، فمن قام به سقط عن الباقين، ويتعين فرض ذلك على السلطان، ثم على كل من له قدرة على نصرته إذا لم يكن هناك من ينصره غيره من سلطان وشَبهه»[١٤]. »

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: « أمرنا رسول الله ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع، أمرنا بعيادة المريض، واتِّبَاعِ الجنازة، وتَشْميت العاطس، وإِبْرَار القسم أو الْمُقْسِم، ونصر المظلوم، وإجابة الداعي، وإفشاء السَّلام، ونهانا عن خَوَاتِيم أو عن تَخَتُّمٍ بِالذَّهَب، وعن شُرْب بالفِضَّة، وعن المَيَاثِر، وعن الْقَسِّي، وعن لُبْس الحرير، والإِسْتَبْرَق، وَالدِّيبَاج[١٥].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «لما رَجَعَت إلى رسول الله ﷺ مُهَاجرة البحر، قال: ألا تُحَدِّثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟ قال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينا نحن جلوس مرَّت بنا عجوز من عجائز رهابينهم، تحمل على رأسها قُلَّة من ماء، فمرَّت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثمَّ دفعها، فخرَّت على ركبتيها، فانكسرت قلَّتها، فلمَّا ارتفعت، التفتت إليه، فقالت: سوف تعلم -يا غُدر- إذا وضع الله الكرسيَّ، وجمع الأولين والآخرين، وتكلَّمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدًا، قال: يقول رسول الله ﷺ: صَدَقَت صَدَقَت، كيف يقدِّس الله أمَّة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم»[١٦].

---

١٤. شرح صحيح البخاري ٦/٥٧٣.

١٥. صحيح مسلم حديث رقم: رقم: ٢٠٦٦.

١٦. صحيح سنن ابن ماجه ٣٢٥٥.

بعثة النبي ﷺ.. والنور للبشرية



الشيخ حسن قاطرجي

عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

بالتأكيد واليقين جاء النبي ﷺ إلى الوجود ومعه النور الذي به أضاءت الدنيا بعد ظلام، وارتقت بعد انحطاط وإسفاف.. ولقد كان (الانقلاب الإسلامي الحضاري) على يديه ﷺ كفيلاً بعدّه أعظم عظماء التاريخ، وكان بحقّ انقلابًا حقيقيًّا بعيدَ الغَوْر، متّسعَ الشمول، ممتدّ الأثر، جذريَّ التغيير، متميّزَ النُّبْل في خيريّته للبشرية..

وإذا كان السياسيون وعلماء الاجتماع قد اختلفوا في تحديد: ما هي الثورة ؟ ومقوّماتُها؟ إلا أنّ الإسلام بلا شكّ أحدث انقلابًا جذريًّا شاملًا وكان بحقّ أُمَّ الثورات في التاريخ الفكري والحضاري، ومضمونها هو ما يحتاجه عالَمُنا المعاصر، وبهذه بالمناسبة.. كان المستشرق الإنكليزي برنارد لويس، وهو من أخطر المستشرقين وأدهاهم وأوسعهم خبرةً بدهاليز السياسة، قد عنون في كتابه الخطير (الغرب والشرق الأوسط) فصلاً بعنوان: ثورة الإسلام!



خاصّة أن إحدى أخطر حقائق العصر أن الحضارة الغربية قد أفلست إفلاساً كاملاً في إدارة دفّة العالم، وما النزاعات الدولية المهدّدة بتدمير الحجر والبشر والحروب المستعِرّة في عدد من الدول وتصاعد نِسَب جرائم القتل والاغتصاب والانتحار وتعاطي الـمُخدِّرات بمعدّلات مخيفة.. إلا شواهد على هذه الحقيقة التي نطق بها أحد أبناء هذه الحضارة والعارفين المتعمّقين بأحوالها الفيلسوف والمفكر الفرنسي (روجيه دو باسكييه) في قوله:

«لا بد أن المادية الغربية الجامحة إن استمرّت لن تنتهي إلا بتدمير الإنسان».

فالحقيقة المرّة أن البشرية في حالة احتضار مع آلام قاسية يُعاني منها إنسانُها بسبب إفلاسِ الحضارة التي تقودها.. إفلاسِها بمعيار الوجهة الصحيحة في علاقة الإنسان بخالقه وفهم مقصد وجوده وفي علاقته بالكون وبمعيار الأخلاق والقِيَم، مهما تكلمنا عن تقدُّمها المذهل في عالم التكنولوجيا والاتصالات والاكتشافات والعبقرية الإدارية!

وبالرجوع إلى تقارير عديدة صادرة عن الأمم المتحدة في السنوات الأخيرة عن معدَّلات الجرائم وانتشار المخدِّرات والجرائم وعن ظروف السجون في العالم وتصدُّر الولايات المتحدة أعلى نسبة سُجَناء، وإلى حقائق ارتفاع معدَّلات الاغتصاب في سجونها والأرقام المذهلة المخيفة عن عدد القتلى والجرحى والمعوَّقين



خلال قرن كامل ابتداءً من الحرب العالمية الأولى ونتائجها المدمّرة قبل أكثر من ١٠٠ عام، مروراً بالحرب العالمية الثانية وقنبلتي هيروشيما ونكازا كي النوويّتيْن، وجريمة الغرب الكبرى في فلسطين وتهجير شعبها، إلى المخاوف من دمار نووي مفزع يأكل الأخضر واليابس تصل إليه الحرب الروسية - الأوكرانية، عدا الحروب والنزاعات داخل العديد من الدول خاصة الدول التي يفتك في شعوبها طغاةٌ مجرمون لئلا تنال حريتها كما هو حال عدد من الدول العربية!

لقد عادت البشرية إلى همجيتها ووحشيتها وخُلوّها من القيم يوم ابتعدت عن هَدْي السماء كما عبَّر الصحابي الخطيب المفوَّه المدقق العميق سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه عندما قال في موقف من أروع مواقف التاريخ والمكاشفة الصريحة: «كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الـمَيتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف» (تأمَلوا حال الدول القوية الغنية والدول الفقيرة في القرن الواحد والعشرين)، «فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا..».

نداءٌ صادق يجب أن نُعلنه وخبر من أصدق الأخبار وأوثقِها وأشدِّها تأثيراً على مستقبل المسلمين ومستقبل البشرية، وهو: أن رسالة نبيّنا ﷺ هي التي ستردّ للمسلمين وللبشرية قاطبة الحياة الحقيقية الطيبة الهانئة الآمنة من جديد كما قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ووعد عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]

ولكن لن يُعطي العالَم سَمْعَه لهذا النداء إلا عندما يتقدم المسلمون الصالحون من عرب أو أجانب بوعي وهِمّة وتميُّز في الخُلق وصلة بالله تُنقذ الروح من الشقاء، وإتقان في الأخذ بالأسباب.. فهل نعي مسؤولياتنا ؟ ونحقق التغيير المنشود الذي حققه الإسلام في الميادين الأربعة التالية عندما جاء أول مرة؟

الميدان الأول: العقيدة والفكر فحاربتْ الوثنية والشرك والخُرافة وحقّقتْ للإنسان أعظم ما يتماهى مع كرامته الإنسانية، وهو توحيدُ الله الخالق وعبوديتُه وإفرادُه بالحاكمية، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]. في آيات أخرى كثيرة جداً.

والميدان الثاني: فلسفة الحياة وفهم الإنسان لمقصِدِ وجوده فيها، ومكانةُ الدنيا من الآخرة، ومهمتُه في العُمران الحضاري في رحلة الامتحان التي يقضيها على الأرض.

والميدان الثالث: عالَم الأخلاق.. حيث ارتقى (الإسلام) بالإنسان إلى آفاق مُذهلة في النُّبْل والرحمة والعدل والمشاعر، ليزهُوَ التاريخ بتفرُّد أخلاق أجيال المسلمين الأولى التي هي من أثر أخلاق النبي ﷺ.. أخلاقِهِ التي عُدت إحدى أهم مقاييس اختياره أعظمَ عظماء التاريخ الإنساني حتى عند الدارسين الغربيّين، فمثلًا اعترف المفكِّر الفرنسي القانوني مارسيل بوازار في كتابه «إنسانية الإسلام» ص64 اعترافاً مُهمّاً عندما قال: «لا بدّ أن يكون محمد - الذي عرف كيف يَنتزِعُ رضا أوسع الجماهير - إنساناً فوق مستوى البشر حقاً، ولا بدّ أن يكون نبيّاً حقيقياً من أنبياء الله».

صلوات الله وسلامه عليه، علماً أننا نحن المسلمين تُغنينا شهادة الله رب العالمين..

والميدان الرابع: نظام الحكم لأن الإسلام دينٌ ودولة، وعبادةٌ وحُكْم.. ولقد أحدث الإسلام في مجال العلاقة بين الحاكم والمحكوم والعلاقات الدَّوْلية وفلسفة الحروب والفتوحات انقلاباً إنسانياً وسياسياً تفتخر به البشرية.

كل ما تقدم لا ينبغي أن نقتصر فيه على التغنّي بالأمجاد وقراءة صفحات التاريخ... بل يجب أن نُنتجه من جديد وهو ما تنتظره البشرية بفارغ الصبر من (قوةٍ رحيمةٍ عادلةٍ) تتقدم لتُنقذها من وَهْدَتها وعذابها!

وليسمَعْ المسلمون مليًّا لكلام أول بريطاني ترجم معاني القرآن الكريم إلى الإنكليزية أدق ترجمة وأبلغها وهو البحّاثة مارمادوك باكثول (ت: ١٩٣٦، رحمه الله): «يمكن للمسلمين أن ينشروا حضارتهم في العالم بالسرعة نفسِها التي نشروها سابقاً بشرط أن يرجعوا إلى أخلاقهم السابقة، لأن هذا العالَم الخاوي لا يستطيع الصمود أمام روح حضارتهم».

وهـا إنّـا وإنْ كـنّـا غَفَلنا .. فإنّا بعد صَحْوتنا نقولُ

هو الإسلام دينُ الله يبْقَى .. ويحمل صَرْحَه جيلٌ فجيلُ

الهجرة النبوية رؤية مختلفة ٣

قراءة نصية في جوانب من فقه الهجرة



د. عبد السلام البسيوني

عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

وقد رغّب ربنا تعالى عبده المأزوم في الهجرة؛ فقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]

• وعدم الخروج إلا لعذر، كبيرة عظيمة، حتى لو مات في طريق هجرته! فمن لم يفعل، وقعد حيث الظلم، وعنده فرصة الخروج فقد ظلم نفسه، يقول ربي تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧] ولم يمنعهم من الخروج غير الخوف على أموالهم، والنفور من مفارقة أوطانهم، وفي ذلك بيان لسوء عاقبة هؤلاء الذين آثروا العيش في أرض الكفر مع الذل، على الهجرة إلى أرض الإسلام. وحكمهم كما يقول القرطبي في تفسير الآية، إنهم (مسلمون ظالمون لأنفسهم في تركهم الهجرة)!



وفي حديث قاتل المائة: كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانًا، ثم خرج يسأل، فأتى راهبًا فسأله فقال له: هل من توبة؟ قال: لا، فقتله، فجعل يسأل، فقال له رجل: ائت قرية كذا وكذا، فأدركه الموت، فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقربي، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجد إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له[1].

• واستُثني المعذور بمرض، أو عجْز عن الخروج (قيود المطارات، ومصادرة الجوازات، وأذون الخروج، والمتابعات، والمطاردات) كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨-٩٩]

• وقد أمر تبارك وتعالى بالعمل الجاد، واتباع كل السبل المشروعة لإعتاق المستضعفين، بالقتال، أو الفداء، أو التهريب، أو فعل ما يحمون ويؤمنون به، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

١. البخاري: ٣٤٧٠.



وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥] والقتال هو أعلى المخاطر، فما دونه أخف منه وأهون! قال الإمام القرطبي: «حض على الجهاد، وهو يتضمن تخليص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين، الذين يسومونهم سوء العذاب، ويفتنونهم عن الدين؛ فأوجب تعالى الجهاد لإعلاء كلمته، وإظهار دينه، واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده، وإن كان في ذلك تلف النفوس».

•• وتخليص الأسارى واجب على جماعة المسلمين إما بالقتال وإما بالأموال، وذلك أوجب؛ لكونها دون النفوس؛ إذ هي أهون منها. قال مالك: واجب على الناس أن يفدوا الأسارى بجميع أموالهم! وهذا لا خلاف فيه؛ لقوله عليه السلام: «فكوا العاني»[٢]. وكذلك قالوا: «عليهم أن يواسوهم فإن المواساة دون المفاداة».

•• والمهاجر في معية الله تعالى وكلاءته؛ كما طمأن موسى عليه السلام قومه وقد كاد يدركهم عدو الله فرعون: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] وقال ﷺ لصاحبه في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]

وعن سيدي أبي أمامة الباهلي مرفوعًا: «ثلاثةٌ كلُّهم ضامنٌ على اللهِ إن عاش كُفِيَ، وإن مات دخل الجنةَ: من دخل بيتَه بسلامٍ فهو ضامنٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ، ومن خرج إلى المسجدِ فهو ضامنٌ على اللهِ، ومن خرج في سبيل اللهِ فهو ضامنٌ على اللهِ»[٣].

---

٢. البخاري، ٣٠٤٦.

٣. صحيح الأدب المفرد، ٨٣٢.

رعاية المهاجر وحمايته ورعاية أهله فريضة، ولا تخفى فضيلة المؤاخاة في دعم المهاجرين الأوائل، ومقام أهل الصُّفة، وفي سيرة المصطفى ﷺ من رعايتهم بالتزويج، والكفالة، والضيافة، والتشغيل، والدعم المعنوي بالثناء، والمؤازرة، شيء يطول الكلام فيه. يقول ربي تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢٢]. ويقول سبحانه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]؛ أي الفيء والغنائم (للفقراء المهاجرين).

وعن سيدتي أم حبيبة أم المؤمنين أنها كانت عند ابن جحش فهلك عنها، وكان فيمن هاجر إلى أرض الحبشة، فزوجها النجاشي رسول الله ﷺ وهي عندهم[٤].

ولما قدم المهاجرون المدينة من مكة، وليس بأيديهم شيء، وكانت الأنصار أهل الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار؛ على أن يعطوهم ثمار أموالهم كل عام، ويكفوهم العمل والمؤونة[٥].



وتكون رعايتهم من أكرم المال، كانت الأنصار تخرج إذا كان جُداد النخل من حيطانها أقناء البُسْر، فيعلقونه على حبل بين أسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل منه فقراء المهاجرين، فيعمد أحدهم فيدخل قنوًا فيه الحشَف، يظن أنه جائز؛ في كثرة ما يوضع من الأقناء، فنزل فيمن فعل ذلك: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ يقول: لا تعمدوا للحشف منه تنفقون، ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ أي: لو أهدي لكم ما قبلتموه إلا على استحياء من صاحبه، غيظًا أنه بعث إليكم ما لم يكن لكم فيه حاجة، واعلموا أن الله غني عن صدقاتكم[٦].

---

٤. أبو داود، ٢٠٨٦.

٥. البخاري، ٢٦٣٠.

٦. أخرجه ابن ماجه، ١٤٨٧.

وكان ﷺ يوصي برعاية الفقير، فروى أبو داود مرفوعًا: «يا معشر المهاجرين والأنصار! إن من إخوانكم قومًا ليس لهم مال ولا عشيرة، فليضم أحدكم إليه الرجلين أو الثلاثة»[٧].

•• **الأسن للمهاجر أن يبقى في مهاجَره: فعن سيدي سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه:** جاء النبي ﷺ يعودني وأنا بمكة، وهو (سعد) يكره أن يموت بالأرض التي هاجر منها![٨].

وكذا فعل النبي ﷺ، ففي الصحيح عن سيدي أسامة بن زيد بن حارثة، أنه قال: يا رسول الله، أتنزل في دارك بمكة؟ فقال: (وهل ترك لنا عقيل من رباع)؟

وبعد فتح مكة خاف الأنصار أن يتركهم النبي ﷺ، فقال: «قلتم: أما الرجل فقد أخذته رأفة بعشيرته، ورغبة في قريته؟! ألا فما اسمي إذن؟ -ثلاث مرات- أنا محمد عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم». قالوا: والله، ما قلنا إلا ضنًّا بالله ورسوله، قال: «فإن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم»[٩].



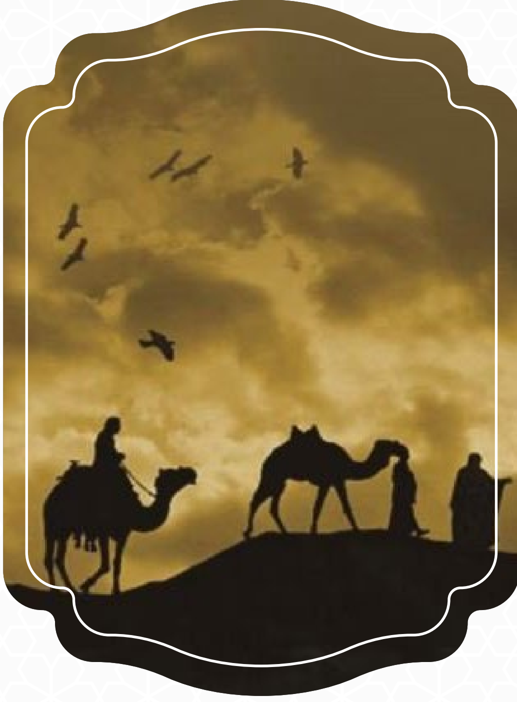
•• **ترتيب أمر الهجرة أساس: فعن عائشة رضي الله عنها:** هاجر ناس إلى الحبشة من المسلمين، وتجهز أبو بكر مهاجرًا، فقال النبي ﷺ: «على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي»، فقال أبو بكر: أوَترجوه بأبي أنت؟ قال: «نعم». فحبس أبو بكر نفسه على النبي ﷺ لصحبته، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر أربعة أشهر. قال عروة: قالت عائشة: فبينا نحن يوماً جلوس في بيتنا في نحر الظهيرة، فقال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مقبلًا متقنعًا، في ساعة لم يكن يأتينا فيها، قال أبو بكر: فدا لك أبي وأمي، والله إن جاء به في

---

٧. أبو داود، ٢٥٣٤.

٨. البخاري، ٢٧٤٢.

٩. البخاري، ٢٧٤٢.



هذه الساعة إلا لأمر، فجاء النبي ﷺ فاستأذن، فأذن له فدخل، فقال حين دخل لأبي بكر: «أخرج من عندك»، قال: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله. قال: «فإني قد أذن لي في الخروج»، قال: فالصحبة بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «نعم». قال: فخذ -بأبي أنت يا رسول الله- إحدى راحلتي هاتين، قال النبي ﷺ: «بالثمن». قالت: فجهزناهما أحث الجهاز، وضعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فأوكأت به الجراب، ولذلك كانت تسمى ذات النطاق. ثم لحق النبي ﷺ وأبو بكر بغار في جبل يقال له: ثور، فمكث فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله ابن أبي بكر، وهو غلام شاب لقن ثقف، فيرحل من عندهما سحرًا، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرًا يُكادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رِسلهما، حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث[10].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يركب وأبو بكر رديفه، وكان أبو بكر يعرف في الطريق لاختلافه إلى الشام، وكان يمر بالقوم، فيقولون: من هذا بين يديك يا أبا بكر؟ فيقول: هادٍ يهديني، فلما دنوا من المدينة بعث إلى القوم الذين أسلموا من الأنصار -أبي أمامة وأصحابه- فخرجوا إليهما، فقالوا: ادخلا آمنين مطاعين، فدخلا... الحديث[11].

رابطة الهجرة لحمة ورباط، ووشيجة ذات قيمة كبيرة: يقول تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾. [الأنفال: ٧٢].

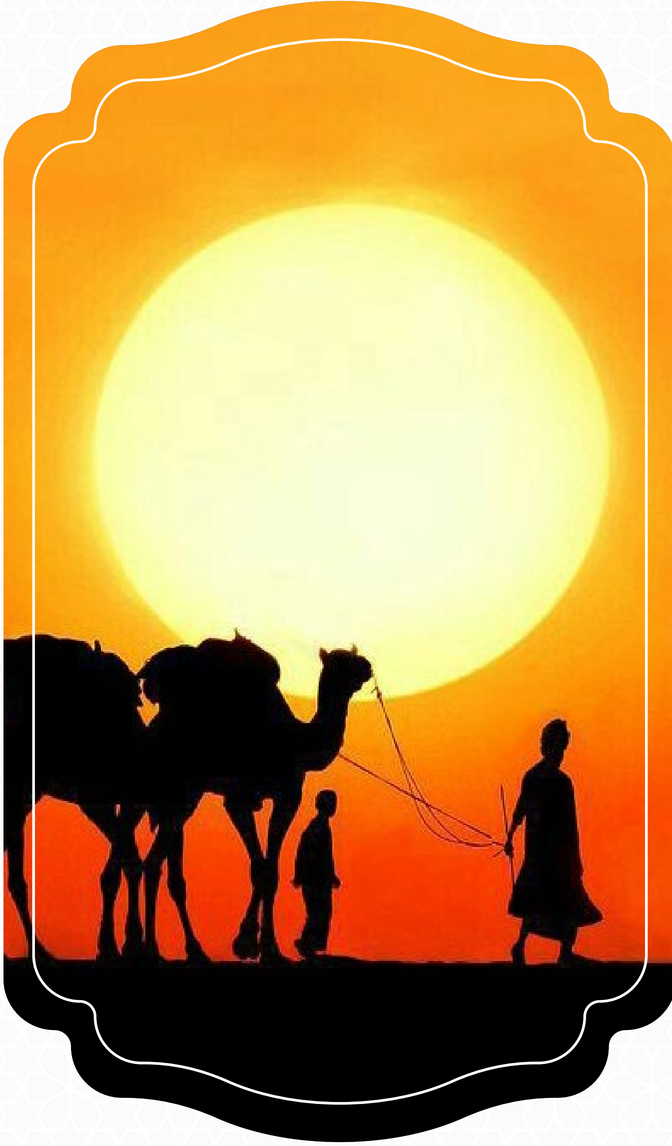
---

١٠. ففي البخاري، ٥٨٠٧.

١١. الصحيح المسند، للوادعي، ١٠٤/١.

وفي السلسلة الصحيحة مرفوعًا: «المهاجرون بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة»[١٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث الأنصاري المهاجري دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ [النساء: ٣٣]، نسختها: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.



• • ترك الهجرة إذا خيف على الدين إثم كبير: يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا * وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٧- ١٠٠]

• • الهجرة تقي الأثرة: يقول تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]

---

١٢. الصحيحة، ١٠٣٦.

العلاقة بين الحاكم والمحكوم

في مجتمع المدينة المنورة



أ.د. جلال الدين محمد صالح

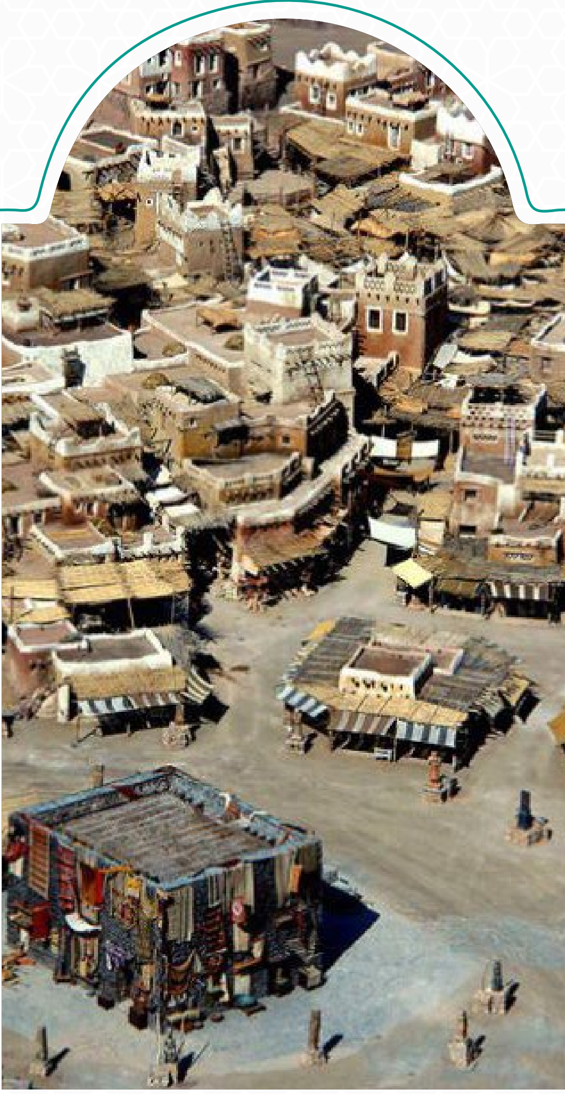
رئيس مجلس شورى رابطة علماء إرتريا

أقام المسلمون بقيادة النبي ﷺ دولة المدينة - النموذج الذي مثل أول كيان سياسي في الإسلام - بين كيانين كبيرين متدافعين في قيادة العالم، لهما مفهومهما الخاص للسلطة، الكيان الفارسي، والكيان الروماني.

وبظهور هذا الكيان الإسلامي الناشئ أخذت السلطة والسلطان معنى جديداً، غير معهود حينها على مستوى العالم كله، وهو عقد المبايعة، جسدته صحيفة المدينة، أول صحيفة دستورية في العالم، يشارك المواطن في كتابتها ومناقشتها وإبداء القبول بها طواعية من دون إكراه.

وكان هذا أول تغيير يحدث في مفهوم الإنسانية لمدلول السلطة، وعلاقتها بالسلطان، تقوم على عقد المبايعة، مبدأ الشرعية الذي تستند عليه، وهو أول سابقة سياسية في التعريف بالعقد الاجتماعي، يعيد تعريف السلطة، وينظم العلاقة بين الآمر والمأمور، في إطار مؤسسي دستوري، يُبنى على المواطنة ـ بمصطلح عصرنا ـ بين كل الطوائف المتعاهدة، والمتسالمة بمختلف معتقداتها على قيادة الرسول ﷺ السياسية لا الدينية، إذ كانت لكل جماعة قيادتها الدينية الخاصة بها، والتي تدين لها بالولاء الديني، دون النبي والمؤمنين به.

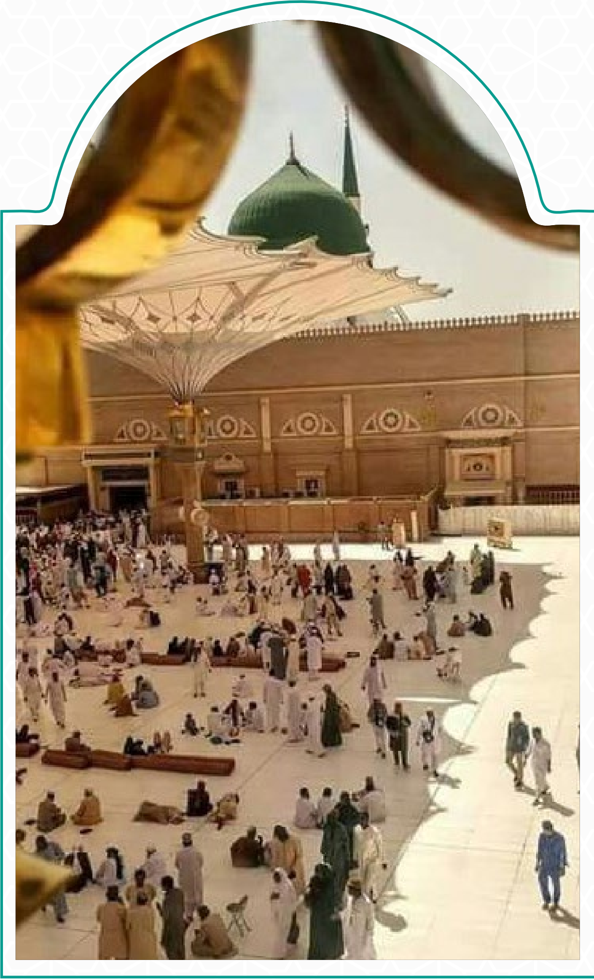
ومن قبل دولة المدينة كانت السلطة تخبط في الخرافة والإشراك، وتتقمص منزلة الألهية بل والربوبية، إذ كان السلطان يدعي لنفسه مقام الخالق، يحيي ويميت، يَسأل ولا يُسأل، ويُلْزِمُ ولا يُلْزَمُ، يأخذ ولا يعطي، وكانت السلطة مَذَلَّةً لأقوام، وغطرسةً لآخرين، لا قيود عليها في استحلال ما بأيدي الناس من الأموال والأعراض، ولا معنى لها في أذهان من هم تحت قبضتها غير هذا المعنى، فكانت دولة المدينة بوثيقتها التعايشية التعاقدية خروجاً على كل هذا المألوف في تصورات الإنسان المتخلف للسلطة والسلطان، ونسفاً له من الأساس، وانقلاباً عليه من القواعد، بما قامت عليه من تصور موضوعي لعلاقة الإنسان بالإنسان، ولمفهوم العدل بمعناه الحقيقي، حين لا يتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، وحين يبقى الإنسان مجرد إنسان، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، وحين يخضع لقانون المساءلة والمحاسبة: من أين لك؟



وحين يتحرر من تقديس السلطة، ويدرك أن السلطان ما هو إلا ابن امرأة تأكل القديد، وإن كان نبياً، كما وصف الرسول ﷺ نفسه بقوله لذلك الأعرابي: «هَوِّنْ عليك، فإني لست بِمَلِكٍ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»[1].

---

١. السلسلة الصحيحة، حديث ١٨٧٦.



وذلك حين رآه يتصبب عَرَقًا، تعظيما لهيبته ﷺ، ظاناً أنه كالملوك الجبابرة المستكبرين على العباد، إلا أن النبي قال له: (لستُ بِمَلِكٍ) نافياً عن نفسه ذلك التصور الأرستقراطي الاستكباري للسلطة، وتقبيحاً لما كان الملوك الجبابرة يتصفون به من استكبار واستعلاء تسلطي على من دونهم، وما كانت رعاياهم تعاملهم به من خنوع وسجود، وقد حذر ﷺ من أن يُسْجَدَ له غلواً في تبجيله، ولا أن يقام له تعظيماً، وقد أشار على أصحابه بالصلاة جلوساً، حين رآهم قاموا وهو قاعد بسبب مرضه، ولما سلم قال لهم -كما في رواية مسلم-: «إن كدتم آنفاً تفعلون فعل فارس والروم، يقومون على ملوكهم وهم قعود، فلا تفعلوا».

وتأسيساً على هذا الفقه في تحديد معنى السلطة، وضرورة كبح جماح الطغيان والاستعلاء في نفس من يتولاها، يقرر ابن رجب الفقيه الحنبلي «أن حب الشرف بالحرص على تَعَوُّدِ الأمر والنهي، وتدبير أمور الناس، إذا كان القصد بذلك مجرد علو المنزلة على الخلق، والتعاظم عليهم، وإظهار صاحب هذا الشرف حاجة الناس الكبيرة إليه، وذلهم له في طلب حوائجهم منه، فهذا نفسه مزاحمة لربوبية الله تعالى وإلهيته»[٢].

وبداهة أن السلطة الراشدة نسبياً هي مطلب الإنسانية جمعاء، ومَحَطُّ أنظار العقلاء؛ لكونها أفضل آلية في تحقيق الأمن المجتمعي، والطمأنينة النفسية، والرخاء الاقتصادي، وهي -بهذا المقياس- ولاية تكليف من المجتمع بعقد يحدد مداها الزماني والمكاني وإطارها الإلزامي وآليات تداولها، وتدويرها، وموجبات طاعتها.

---

٢. ابن رجب، ذم الحرص على المال والشرف، ص٤٧.

ويعيد بعض الباحثين أصل فكرة العقد الاجتماعي الذي تحدث عنه الفيلسوف السويسري جان جاك روسو (١٧١٢- ١٧٧٨م) وهو عقد افتراضي إلى عقد البيعة الحقيقي الواقعي الذي تأسست عليه دولة المدينة.

وثمة من يرجح فرضية نقل الفيلسوف الأندلسي أصلاً فرحان أبو زيد (١٦٧٠- ١٧٦٧م) عقد البيعة إلى الفيلسوف الأوروبي الشهير جان جاك روسو حين التقاه بجنيف، إذ كان يتردد على مجلسه العلمي في سكنه المتواضع في أطراف جنيف، وفرحان هذا يتحدر من أسرة أندلسية متنصرة بروتستانتية، وكرمت بلدية جنيف هذا العالم الموسوعي فأطلقت اسمه على الشارع الذي كان فيه مسكنه، وصممت النافذة التي تجاور اللوحة المكتوب عليها اسمه على الطابع الأندلسي[٣].

وعقد البيعة في دولة المدينة يعني انتفاء الصفة الكهنوتية عن طبيعتها، وانبثاقها عن إرادة بشرية محضة، تعاقدية تعاهدية، مجردة عن كل ما كان متعارفاً عليه من قبل، من إضفاء خصائص الإلهية على السلطان، واعتقاد أنه مختار الله في الأرض، وهو فوق كل عقود وعهود تضبطه.

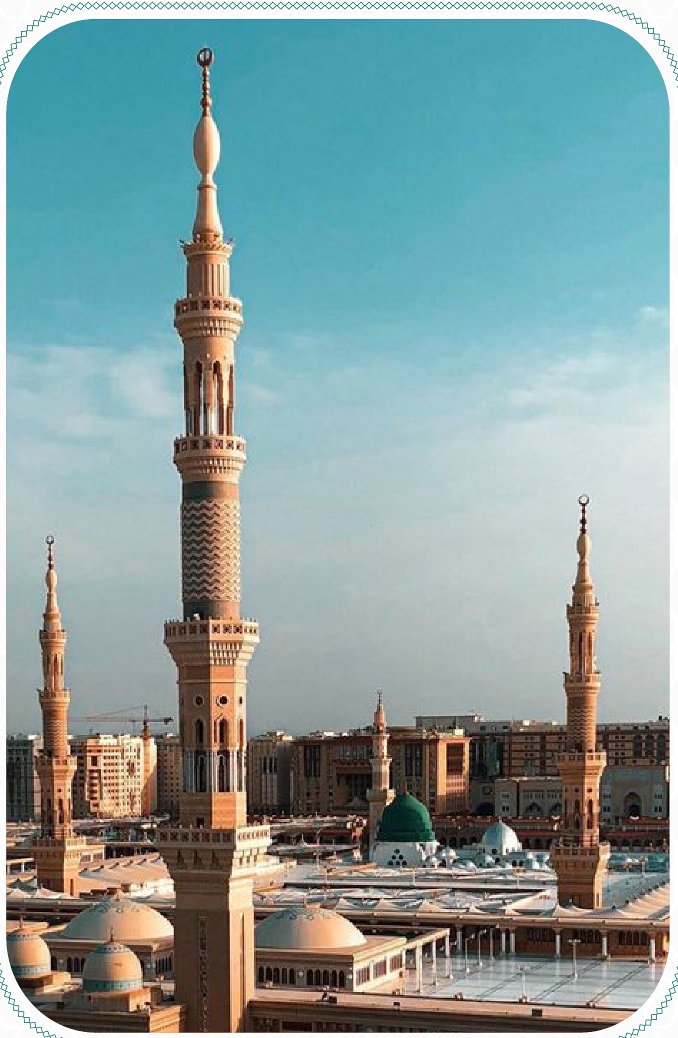


٣. لمزيد من التوسع عن حياة هذا الفيلسوف راجع: إيوب، أحمد محمد وليد، أخبار الفلاسفة، دمشق، دار العرب، ط، ٢٠١٣م، ص ٤١٦- ٤٢١.

وتجلى هذه الخصلة التجديدية لطبيعة السلطة والسلطان -كما قامت عليها دولة المدينة- في أن الأطراف المتعاقدة على هذا العقد الاجتماعي لم تنطلق في إبرامه من عقيدة واحدة وهي جميعها تتسالم على قيادة الرسول ﷺ السياسية، بل كانت أصنافاً في ذلك على النحو التالي:

- صنف منها كان يؤمن أنه رسول من عند الله فَيُسْلِمُ له الأمر على هذا الأساس، نبياً مرسلاً، وسلطاناً مُحَكَّماً فيما شجر بينهم، من غير أن يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضى به ويسلموا له تسليماً، وهم العصبة المؤمنة من الأنصار والمهاجرة.

- وصنف كان يراه مجرد زعيم اجتمع الناس عليه رهبة من سلطانه أو رغبة في خيراته، وهم الجماعات الوثنية، وهؤلاء أسلموا له حاكماً لا نبياً.



- وصنف تظاهر بالتسالم الإيماني، وأضمر النفور القلبي، والمكايدة السلطانية، وهم المنافقون بزعامة عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وهؤلاء يرونه في باطنهم حاكماً انتزع السلطة من زعيمهم ابن سلول، ولكن إذا جاؤوه قالوا بأفواههم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلا أن الله يشهد على نفاقهم هذا، فيدمغهم بالكذب ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

- وصنف آخر من غير هؤلاء وهم قادة اليهود وأحبارهم، أسلموا له إسلام سلطان فقط في جلهم، لا إسلام إيمان.

وفي حين كانت السلطة السياسية للرسول ﷺ نافذة على الجميع وشاملة للكل بموجب هذا العقد الذي تعاقدوا عليه، كانت سلطته الدينية في فرض الشعائر التعبدية توحيداً وصلاة وصياماً وحجاً، وفي تحريم المحرمات من المطعومات والمشروبات والموطوءات، محصورة على المؤمنين به دون غيرهم من الوثنيين واليهود، تقيداً بشريعة رفع الإكراه في الدين، وترك الناس أحراراً فيما يعتنقون ويعتقدون، ما داموا لم يدخلوا طوعاً في عقد التدين بما أنزل إليه من ربه، كما دخلوا معه طوعاً في عقد سلطانه وفق ما نصت عليه وثيقة المدينة، وما داموا لا يؤمنون به رسولاً من عند الله، ولا يُحِلُّون ما أحله ويحرمون ما حرمه، وما داموا أوفياء للعقد الذي أبرموه في حفظ الأمن وانتفاء الغدر، بالولاء لقيادة الرسول السياسية، والدفاع عن دولة المدينة إذا ما أمَّها عدو بسوء، لهم كامل الخيار في التحاكم إليه، وله كامل الخيار في الإعراض عنهم: ﴿... فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة: من الآية ٤٢]



وجرياً على هذه السياسة «مضت السُّنة أن يُرَد أهل الكتاب في حقوقهم ومواريثهم إلى أهل دينهم، إلا أن يأتوا راغبين في حكم الله، فيحكم بينهم بكتاب الله»[٤].

---

٤. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ١٨٥ - ١٨٦).

السراج المنير وأثره في واقعنا المعاصر

الشيخ عبد الله الطبلوهي

باحث شرعي



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.. وبعد:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: آية ٤٦]، فأخبر سبحانه وتعالى أنه أرسل النبي ﷺ سراجاً منيراً، «والله سبحانه وتعالى سمى نفسه نوراً، وجعل كتابه نوراً، ورسوله نوراً، ودينه نوراً، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نورا يتلألأ»[١].

---

١. اجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم.

وفي هذا التعبير الموجز «سراج منير» دلالات عديدة منها:

- أن نور النبي ﷺ ودينه وهداه وحجته ساطع ظاهر لمن طلب الحق ولمن فتح عينه لدخول النور المبين، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

- من اهتدى بنور النبي ﷺ انقشعت من حياته ظلمات الجاهلية ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].



- النور التام الكامل هو نور النبي ﷺ فنوره كنور الشمس مع نور القمر ويزيد؛ فالقمر هو النور والشمس هي السراج، وهو ﷺ سراج منير، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

- من أراد أن يضيء النور لنفسه وللناس في الدنيا فليقتبس نوره من النور الأكبر الأتم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

- نور النبي ﷺ يعم كل شيء كما يعم السراج المنير كل الجهات، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

- نور النبي ﷺ يبدد ويهزم ظلمات الجهل والشرك والظلم والطغيان، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢- ٣٣].

•• هذا النور الأكبر غطى ونسخ ما كان قبله من شرائع، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال عليه الصلاة والسلام: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[٢].

•• من حاد عن الضياء الظاهر حلت عليه الظلمة وأُتي من قِبل نفسه، لأنه أعمى البصيرة أبى الاستضاءة بنور الحق وحجب النور عن نفسه، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٣٤]، وقال جل وعلا: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة الروم: ٥٣].

•• إنه نور «يجلو الظلمات، ويكشف الشبهات، وينير الطريق، نوراً هادئاً هادياً كالسراج المنير في الظلمات، وهكذا كان رسول الله ﷺ وما جاء به من النور؛ جاء بالتصور الواضح البين النير لهذا الوجود، ولعلاقة الوجود بالخالق، ولمكان الكائن الإنساني من هذا الوجود وخالقه، وللقيم التي يقوم عليها الوجود كله، ويقوم عليها وجود هذا الإنسان فيه، وللمنشأ والمصير، والهدف والغاية، والطريق والوسيلة. في قول فصل لا شبهة فيه ولا غموض، وفي أسلوب يخاطب الفطرة خطاباً مباشراً وينفذ إليها من أقرب السبل وأوسع الأبواب وأعمق المسالك والدروب»[٣].



---

٢. رواه مسلم.

٣. في ظلال القرآن، لسيد قطب.

من آثار السراج المنير في حياتنا المعاصرة:

١ صمود الإسلام في وجه أعتى الحملات الشيطانية

فقد أجلب المشركون وأولياء الشيطان على الإسلام والمسلمين بخيلهم ورجلهم ومكروا مكرهم الكبار، وكادوا كيدهم العظيم، وتوالت الحملات الشيطانية مئات السنين تستهدف المسلمين في عقيدتهم وأنفسهم وعقولهم وأخلاقهم، بما لو حوربت به أمة أخرى لمُحيت من على وجه الأرض وبادت حضارتها وانقرضت وأصبحت من الغابرين؛ ولكن الإسلام لأنه الحق والسراج المنير صمد فكان صموده معجزة متجددة تدل ذوي الألباب على صدق دعوته وقوة حجته وأنه مؤيد بمدد من السماء.



٢ انتشار جهود الإصلاح وحركات التجديد وجنود الحق

فالسراج منير يضيء في كل زمان ومكان لمن استضاء به، وما على المصلحين إلا تصحيح الأوضاع وفق هذا الحق الكامل؛ ولذلك تخرج كل حين في هذه البلد وتلك، وهنا وهناك، ثلة من الأخيار المصلحين الذين يجددون للناس ما اندرس من العلوم الشريفة والأخلاق الحميدة والمواقف المجيدة، في ظاهرة عجيبة لا تخرج إلا من مشكاة النبوة المحمدية، قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[٤].

---

٤. رواه أبو داود.

٣ إشراق القلوب بنور الحق رغم كثرة الصادين عن سبيل الله

فلا تزال أفواج المهتدين بهذا السراج المنير هادرة متتابعة من كل لون وجنس؛ سواء ممن هم مسلمون قد انهمكوا في الشهوات وأغوتهم الشبهات أو من غيرهم من يهود ونصارى ووثنيين وملاحدة، في كل بقاع الأرض وأصقاعها، رغم كثرة الصادين عن سبيل الله تعالى خدمة للشيطان واتباعاً للهوى وإفساداً في الأرض، وسبحان الله القائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

٤ حمد الله على نعمة الإسلام في زمن انتشار الجاهلية

فالمسلم عندما يرى جنون الجاهلية المعاصرة، واستشراء فسادها العريض، وانقلاب الفطرة، وانتكاس الأخلاق، وعبادة المال، وشذوذ الجنس والأمراض الناتجة عنه، والانتحار، والحروب الدموية التي لا ضابط لها، والحياة البهيمية التي يعيشها المعرضون عن النور المبين؛ يزداد إيماناً مع إيمانه وحمداً لله وشكراً، فبضدها تتمايز الأشياء، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

٥ انكشاف زيف الدعوات المنحرفة والحركات الضالة

فأنوار الحق بظهورها وعلوها وقوتها وثباتها ووضوحها تحرق ظلمة الفساد وسواد الضلال وقبح المعصية، وصدق الله القائل: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وختاماً: فهذا هو السراج المنير ﷺ قد أفلح من استن بسنته واقتفى أثره واتبع هديه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، فاللهم وفقنا للاستضاءة من نوره الشريف حتى يعمنا النور ونكون ممن استجبت دعاءه: «اللهُمَّ اجْعَلْ لِي فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي لِسَانِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَمِنْ فَوْقِي نُورًا، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ شِمَالِي نُورًا، وَمِنْ بَيْنِ يَدَيَّ نُورًا، وَمِنْ خَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي نَفْسِي نُورًا، وَأَعْظِمْ لِي نُورًا»[٥].

والحمد لله رب العالمين.

---

٥. متفق عليه.

كمثل الغيث



الشيخ أحمد عبد الكريم

إمام وخطيب بالأوقاف

بينما كان الظلم يعبث في الخليقة، والظلام الدامس يغطي أرجاء الكون، ورايات الباطل والمعاصي ترفرف بلا حياء، إذ بشعاع نور يضرب في الآفاق، ومنادٍ يتبع النور أن قد ولى عهد الظلام إلى غير رجعة، وصرخ الصارخ هذا نجم أحمد ﷺ قد أتى، فأشرقت الأرض لنوره، وظلل الغمام مسيره، وارتشق الكون عبيره، فكانت بعثته ﷺ بحق بمثابة بعثاً للقلوب، وحياةً بعد الممات.



أرضُ بني سعدٍ تشهدُ

۞ أرضٌ مجدبة، وصحراءُ قاحلة، وأطفال جائعة، وضروع خاوية، وما هي إلا لحظات، إذ بالأرض القاحلة يملؤها العشب وتحول إلى ساحة خضراء، وإذ باللبن يسري، ويكف الأطفال عن البكاء وتحول دموعهم إلى ضحكات فقد جاء الطفل اليتيم محمد ﷺ، تقول حليمة:

«فلمّا قدِمنا مكّةَ لم يبقَ منّا امرأةٌ إلّا عُرِضَ عليْها رسولُ اللَّهِ ﷺ فتأباهُ».

وهمت حليمة بالرجوع إلا أن رحمة من الله لها سبقت، فكانت على موعد مع السعد والخير والبركة، تقول: «فقلتُ لزوجي: لأرجعنَّ إلى ذلِكَ اليتيمِ فلآخذنَّهُ فأتيتُهُ فأخذتُهُ فقالَ زوجي عسى اللَّهُ أن يجعَلَ فيهِ خيرًا. قالت: فواللَّه ما هوَ إلّا أن جعلتُهُ في حجري، فأقبلَ عليهِ ثديي بما شاءَ منَ اللَّبنِ فشربَ وشربَ أخوهُ حتّى رُوِيا وقامَ زوجي إلى شارِفِنا منَ اللَّيلِ



فإذا بِها حافلٌ فحلبَ وشرِبنا حتّى رُوينا فبتنا شباعًا رواءً وقد نامَ صبيانُنا قالَ أبوهُ واللَّهِ يا حليمةُ ما أراكِ إلّا قد أصبتِ نَسَمةً مباركةً ثم خرَجنا فواللَّهِ لخرجتُ أتاني أمامَ الرَّكبِ قد قطعتْهنَّ حتّى ما يتعلَّقُ بِها أحدٌ فقدِمنا منازلَنا من حاضرِ بني سعدِ بنِ بَكرٍ، فقدمنا على أجدَبِ أرضِ اللَّهِ فوالّذي نفسي بيدِهِ إن كانوا ليسرِّحونَ أغنامَهم ويسرِحُ راعيَّ غنمي فتروح غنمي بطانًا لُبَّنًا حُفَّلًا وتروحُ أغنامُهم جياعًا فيقولونَ لرعاتِهم ويلَكم ألا تسرَحونَ حيثُ يسرَحُ راعي حليمةَ فيسرحونَ في الشِّعب الَّذي يسرح فيه راعينا فتروحُ أغنامُهم جياعًا ما بِها من لبنٍ وتروحُ غنمي لبَّنًا حفَّلًا»[١].

---

١. أخرجه ابن حبان في صحيحه وقال الذهبي في تاريخ الإسلام: إسناده جيد.

يستسقى الغمام بوجهه

كان مَقدم رسول الله ﷺ رحمة للعالمين، وبركة على كل مَن في الكون، وقد عرف أهله ذلك ولمسوه، فكان جده عبد المطلب يدنيه منه ويجلسه على مكان السيادة، وكانت فاطمة بنت أسد رضي الله عنها زوجة أبي طالب لا تقدم الطعام لأولادها حتى يحضر محمد التماساً لبركته، فكانوا يستبشرون بوجهه، ويفرحون بقدومه، وكانت قريش إذا خرجت للاستسقاء ودعاء الله أن ينزل عليهم الغيث، كان عمه أبو طالب يأخذه معه التماساً لبركته، لعل الله ينزل المطر ويغيث الناس بسببه. عن عائشة أنها تمثلت بهذا البيت وأبو بكر رضي الله عنه يقضي:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ •• رَبِيعُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ
يَلُوذُ بِهِ الْهُلَّاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ •• فَهُمْ عِنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وَفَوَاضِلِ

فقال أبو بكر: ذَاكَ وَاللَّهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.



الطير ينسف الحلم

كان من فضل النبي ﷺ على العالمين أن جعل الله قدومه فاتحة خير للمظلومين، وإيذاناً وإرهاصاً بانتهاء عصر الظُّلمة والطواغيت، وبداية عهد جديد للإيمان والتوحيد. وقد ذكر الله في كتابه مآل أبرهة وجيشه في سورة الفيل فقال عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١-٥]، فأهلك الله عز وجل جيش القهر والظلم، وأهل الفساد والشر.

يقول ابن كثير في تفسير سورة الفيل: «هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا عزموا على هدم الكعبة ومحو آثارها من الوجود فأبادهم الله وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم وأضل عملهم وردهم بشر خيبة، وكانوا قوماً نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كانت عليه قريش من عبادة الأوثان». ثم يقول رحمه الله: «ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام وُلد -على أشهر الأقوال- ولسان حال القدر يقول لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء»[٢].

الشرف لكل العرب



وببركته ﷺ، وفضله وشرفه وكرامته، نجى الله عز وجل قريشاً من كارثة كادت تعصف بمكانتها بين العرب كراعية للمقدسات، ومضيافاً لزوار بيت الله الحرام، وذلك أنهم لما جددوا بناء الكعبة وأرادوا وضع الحجر الأسود مكانه، وكل قبيلة تود أن تنال هذا الشرف، فاختلفوا ودب الشقاق بينهم، حتى نادى صوت العقل فيهم: نُحَكِّم أوّل داخل علينا. فكان رسول الله ﷺ. عَنْ علي بن أبي طالب أن البيت لما انْهَدَمَ فَبَنَتْهُ جُرْهُمُ، ثُمَّ انْهَدَمَ فَبَنَتْهُ قُرَيْشٌ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ شَابٌّ، فَلَمَّا أَرَادُوا أَنْ يَرْفَعُوا الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ اخْتَصَمُوا فِيهِ، فقالوا: نحكّم بَيْنَنَا أَوَّلُ رَجلٍ يَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ السِّكَّةِ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوَّلَ مَنْ خَرَجَ عَلَيْهِم فَقَضَى بَيْنَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي مِرْطٍ ثُمَّ تَرْفَعُهُ جَمِيعُ الْقَبَائِلِ كُلُّهُمْ»[٣].

---

٢. تفسير ابن كثير.

٣. شعب الإيمان للبيهقي.

يكسب المعدوم

صلة الأرحام، ومساعدة المحتاج، وإكرام الضيف والوقوف بجوار المظلومين، إنه العطاء في قمة الكمال البشري، جعل السيدة خديجة سيدة نسائها تقسم بأن الله لن يخزيه أبداً، لا حاضراً ولا مستقبلاً، يقين لا يخالطه ذرة من شك، أن من يبذل ويُعطي لن يضام أو يُخزَى، بل يكرم ويُرضى، والمتأمل لشخصية النبي ﷺ يجد فيه الإنسان الكامل من كل الوجوه، وقد يكون الإنسان محموداً عند الناس، لكنه لا ينال نفس الدرجة عند أهله لقربه منهم، ومعاشرته لهم، أما رسول الله ﷺ، فهذه شهادة زوجه أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وهي تعطي تقريراً عنه وذلك قبل أن يكون نبياً، وكيف أن الإنسان ينبغي أن يكون مؤثراً فيمن حوله، ومعيناً للناس على نوائب الدهر:

«لما رجع رسول الله ﷺ من الغار يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، ودخل عَلَى السيدة خَدِيجَةَ قَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي حَتَّى هدأ، وذهب عنه الخوف قص عليها الخبر، ثم قال لها: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي، فقالت رضي الله عنها: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ»[٤].

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ أليست صنائع المعروف تقي مصارع السوء؟ إن من يُكسب المعدوم ويسهم في تخفيف آلام الناس، ويقوم بحق الضيف ويعين على نوائب الخير والحق.. لحري وجدير بأن لا يخزيه الله أبداً.

فكانت رسالته وبعثته هداية ونوراً أُغيث به اللهفان، ورُوي بشريعته الظمآن، وهُدِي بنوره الحيران، بوركت به أرض بني سعد فاخضرت، واستسقيت السماء بوجهه فأمطرت، وهلَّ على الدنيا فأعطرت.

صلوات ربي وسلامه عليك، بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

---

٤. رواه البخاري.

أئمة الهدى

﴿قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾

من تراث علمائنا الراحلين

رسالة محمد ﷺ
الأستاذ الإمام محمد عبده ١٠٤

مِنة الله على المؤمنين
الأستاذ سيد قطب ١١٣

عناية الرسول ﷺ بأهل الصُفَّة
د. حارث سليمان الضاري ١٢٣

نظرة فلاسفة ومفكري أوروبا لنبي الإسلام محمد
شكيب أرسلان ١٣٥

في ذكرى المولد النبوي الكريم
الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس ١٤٨

رسول الإسلام كيف صدّقت أفعاله أقواله؟
السيد سليمان الندوي الحسيني ١٥٥

غيثٌ.. أصاب أرضاً
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ١٦٣

التسامي والأمة في دعوة الرسول ﷺ
الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي ١٦٦



رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

الأستاذ الإمام محمد عبده*



رحمه الله



ليس من غرضنا في هذه الوريقات أن نلم بتاريخ الأمم عامة، وتاريخ العرب خاصة في زمن البعثة المحمدية، لنبين كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسة إلى قارعة تهز عروش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم، وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء إلى من دونهم من رعاياهم الضعفاء، وإلى نار تنقض من سماء الحق على أدم[1] الأنفس البشرية لتأكل ما اعشوشبت به من الأباطيل القاتلة للعقول، وصيحة فصحى تزعج الغافلين وترجع بألباب الذاهلين وتنبه المرؤوسين إلى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين، والهداة الضالين والقادة الغارين، وبالجملة تؤوب بهم إلى رشد يقيم الإنسان على الطريق التي سنها الله له: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ ليبلغ بسلوكها كماله، ويصل على نهجها إلى ما أُعد في الدارين له.

---

* الأعمال الكاملة، تحقيق: د. محمد عمارة، ٣/ ٤٣٩ وما بعدها.

١. من معانيه: السمرة والسواد.

ولكنا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف:

كانت دولتا العالم، دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب في تنازع وتجالد مستمر، دماء بين العالمين مسفوكة وقوى منهوكة وأموال هالكة وظلم من الإحن حالكة، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والإسراف والفخفخة والتفنن في الملاذ بالغةً حد ما لا يوصف، في قصور السلاطين والأمراء والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة، وكان شَرَهُ هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد، فزادوا في الضرائب وبالغوا في فرض الإتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم، وأتوا على ما في أيديها من ثمرات أعمالها، وانحصر سلطان القوي في اختطاف ما بيد الضعيف، وفكر العاقل في الاحتيال لسلب الغافل، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب، لفقد الأمن على الأرواح والأموال.



غمرت مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم، فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب، ويظنها الناظر إليها من ذوي الألباب، ففُقد بذلك الاستقلال الشخصي وظن أفراد الرعايا أنهم لم يُخلقوا إلا لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم، كما هو الشأن في العجماوات مع من يقتنيها.

ضلت السادات في عقائدها وأهوائها، وغلبتها على الحق والعدل شهواتُها، ولكن بقي لها من قوة الفكر أردأ بقاياها، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الإلهي الذي يخالط الفِطَر الإنسانية قد يفتق الغُلُف التي أحاطت بالقلوب، ويمزق الحُجُب التي أُسدلت على العقول، فتهتدي العامة إلى السبيل، ويثور الجم الغفير على العدد القليل، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سُحباً من الأوهام ويُهيئوا كِسَفاً من الأباطيل والخرافات ليقذفوا بها في عقول العامة، فيغلظ الحجاب ويعظم الرَّيْن ويختنق بذلك نور الفطرة ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم.



وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل، وعدو كل ما يثمره النظر، إلا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس، وكان لهم في المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ومدد لا ينفد.

هذه حالة الأقوام التي كانت في معارفهم، وذلك كان شأنهم في معايشهم.. عبيد، أذلّاء، حَيارَى في جهالة عمياء، اللهم إلا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية والشرائع السابقة آوت إلى بعض الأذهان، ومعها مقت الحاضر ونقص العلم بالغابر.

ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها، بما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع، فكان يُرى الدنس في مظنة الطهارة، والشَّرَه حيث تُنتظر القناعة، والدعارة حيث تُرجى السلامة والسلام، مع قصور النظر عن معرفة السبب وانصرافه لأول وهلة إلى أن مصدر كل ذلك هو الدين، فاستولى الاضطراب على المدارك وذهب بالناس مذهب الفوضى في العقل والشريعة معًا، وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين في شعوب متعددة، وكان ذلك ويلاً عليها فوق ما رُزِئت به من سائر الخطوب.

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة في النزعات، خاضعة للشهوات، فخر كل قبيلة في قتال أختها وسفك دماء أبطالها وسبي نسائها وسلب أموالها، تسوقها المطامع إلى المعامع، ويُزين لها السيئاتِ فسادُ

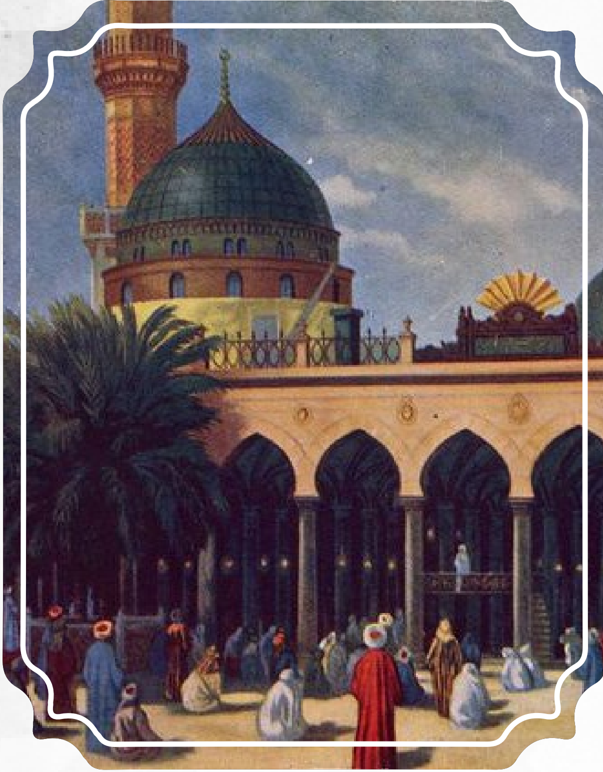
الاعتقادات، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حداً صنعوا أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها، فلما جاعوا أكلوها! وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهناً قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عار حياتهن أو تنصلاً من نفقات معيشتهن، وبلغ الفحش منهم مبلغاً لم يعُد معه للعفاف قيمة. وبالجملة: فكانت رُبُط النظام الاجتماعي قد تراختْ عُقَدها في كل أمة وانفصمت عُراها عند كل طائفة.

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجل منهم، يوحي إليه رسالته ويمنحه عنايته، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم، التي أظلت رؤوس جميع الأمم؟

نعم.. كان ذلك، وله الأمر من قبل ومن بعد، في الليلة الثانية عشر من ربيع الأول عام الفيل (٢٠ أبريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام)، وُلد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي، بمكة، وُلد يتيماً توُفي والده قبل أن يولَد ولم يترك له من المال إلا خمس جمال وبعض نعاج وجارية، ويُروى أقل من ذلك،وفي السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً، فاحتضنه جده عبد المطلب، وبعد سنتين من كفالته توفي جده، فكفله من بعده عمه أبو طالب، وكان شهماً كريماً غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله، وكان ﷺ من بني عمه وصبية قومه كأحدهم، على ما به من يتم فقد فيه الأبوين معًا، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول، ولم يقُم على تربيته مهذِبٌ ولم يُعنَ بتثقيفه مؤدِب، بين أتراب من نبت الجاهلية وعشراء من حلفاء الوثنية، وأولياء من عبدة الأوهام وأقرباء من حفدة الأصنام، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدناً وعقلاً وفضيلة وأدباً، حتى عُرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه، بالأمين.

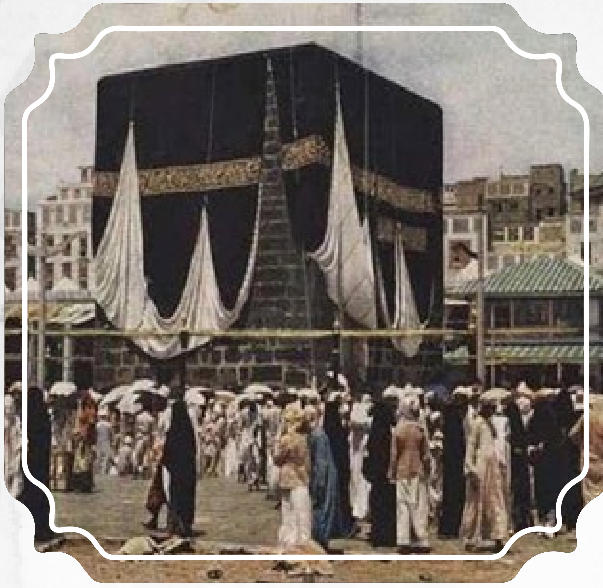


أدب إلهي لم تَجرِ العادة بأن تُزين به نفوس الأيتام من الفقراء خصوصاً مع فقر القُوَّام، فاكتهل ﷺ كاملاً والقوم ناقصون، رفيعاً والناس منحطّون، موحداً وهم وثنيون، سِلْماً وهم شاغبون، صحيح الاعتقاد وهم واهمون، مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون، وعن سبيله عادلون.



من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمّياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه، لا سيما إن كان من ذوي قرابته وأهل عصبته، ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينبهه، ولا عضد إذا عزم يؤيده، فلو جرى الأمر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم وأخذ بمذاهبهم إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، ويكون للفكر والنظر مجال، فيرجع إلى مخالفتهم إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده، ولكن الأمر لم يجرِ على سنته؛ بل بُغّضت إليه الوثنية من مبدأ عمره، فعاجلته طهارة العقيدة كما بادره حسن الخليقة. وما جاء في الكتاب من قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] لا يُفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم، حاش لله، إن ذلك لهو الإفك المبين، وإنما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص وطلب السبيل إلى ما هُدوا إليه من إنقاذ الهالكين وإرشاد الضالين، وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته.

وجد شيئاً من المال يسد حاجته -وقد كان له في الاستزادة منه ما يرفّه معيشته- بما عمل لخديجة، رضي الله عنها، في تجارتها وبما اختارته بعد ذلك زوجاً لها، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه؛ لكنه لم تَرُقه الدنيا ولم تغرِه زخارفها، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله في الوصول



إلى ما ترغبه الأنفس من نعيمها، بل كلما تقدم به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ونما فيه حب الانفراد والانقطاع إلى الفكر والمراقبة والتحنث بمناجاة الله تعالى، والتوسل إليه في طلب المخرج من همه الأعظم في تخليص قومه ونجاة العالم من الشر الذي تولاه، إلى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه إليه الإلهام الإلهي، وتجلى عليه النور القدسي وهبط عليه الوحي من المقام العلي، في تفصيلٍ ليس هذا موضعه.

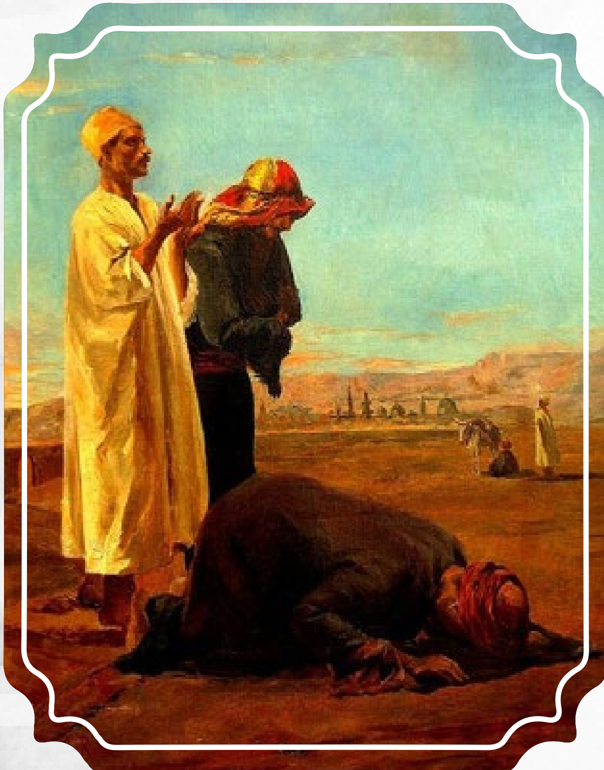
لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سُلب من ملكه، وكانت نفوس قومه في انصراف تام عن طلب مناصب السلطان، وفي قناعة بما وجدوه من شرف النسبة إلى المكان دل عليهما ما فعل جده عبد المطلب عند زحْف أبرهة الحبشي على ديارهم، جاء الحبشي لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام وبيتهم الحرام ومنتجع حجيجهم ومستوى العلية من آلهتهم، ومنتهى حجة القرشيين في مفاخرتهم لبني قومهم. وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الإبل فيها لعبدالمطلب مائتا بعير، وخرج عبد المطلب في بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته، فقال هي أن ترد إليّ مائتي بعير أصبتها، فلامه الملك على المطلب الحقير وقت الخطب الخطير، فأجابه: «أنا رب الإبل أما البيت فله رب يحميه».

هذا غاية ما ينتهي إليه الاستسلام وعبد المطلب في مكانه من الرياسة على قريش؛ فأين من تلك المكانة محمد ﷺ في حالة من الفقر ومقامه في الوسط من طبقات أهله حتى ينتجع مُلكاً أو يطلب سلطاناً؟ لا مال لا جاه لا جند لا أعوان لا سليقة في الشعر لا براعة في الكتاب، لا شهرة في الخطاب، لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة أو يرقى به إلى مقام ما بين الخاصة.

ما هذا الذي رفع نفسه فوق النفوس؟ ما الذي أعلى رأسه على الرءوس؟ ما الذي سما بهمته على الهمم حتى انتدب نفسه لإرشاد الأمم وكفالته لهم كشف الغمم بل وإحياء الرمم؟

ما كان ذلك إلا ما ألقى الله في رُوعه من حاجة العالم إلى مقومٍ لما زاغ من عقائدهم، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم. ما كان ذلك إلا وجدانه ريح العناية الإلهية، ينصره في عمله، ويمده في الانتهاء إلى أمله قبل بلوغ أجله. ما هو إلا الوحي الإلهي يسعى نوره بين يديه يضيء له السبيل، ويكفيه مؤنة الدليل. ما هو إلا الوعد السماوي قام لديه مقام القائد والجندي.

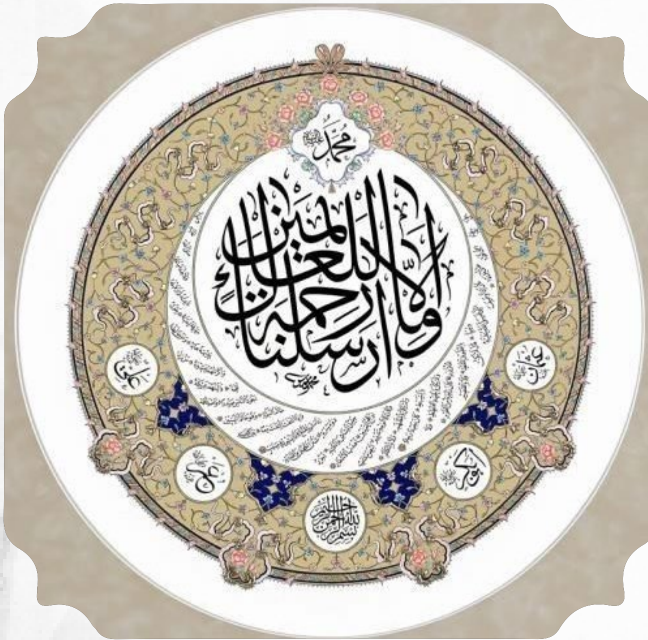
أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد والاعتقاد بالعليّ المجيد والكل ما بين وثنية متفرقة ودهرية وزندقة؟ نادى في الوثنيين بترك أوثانهم، ونبذ معبوداتهم، وفي المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم، وفي الثنوية بإفراد إله واحد بالتصرف في الأكوان، وردّ كل شيء في الوجود إليه، أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنوروا سر الوجود الذي قامت به. صاح بذوي الزعامة ليهبطوا إلى مصاف العامة في الاستكانة إلى سلطان معبود واحد هو فاطر السموات والأرض والقابض على أرواحهم في هياكل أجسادهم. تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى، فبين لهم بالدليل وكشف لهم بنور الوحي أن نسبة أكبرهم إلى الله كنسبة أصغر المعتقدين به.



وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية إلى أدنى سلم من العبودية، والاشتراك مع كل ذي نفس إنسانية في الاستعانة برب واحد يستوى جميع الخلق في النسبة إليه، لا يتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة. وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له، ويحلوا أغلالهم التي أخذت بأيديهم عن العمل وقطعتهم دون الأمل.

مال على قراء الكتب السماوية والقائمين على ما أودعته من الشرائع الإلهية، فبكت الواقفين عند

حروفها بغباوتهم، وشدد النكير على المحرفين لها الصارفين لألفاظها إلى غير ما قُصد من وحيها، اتباعاً لشهواتهم، ودعاهم إلى فَهمها والتحقق بسر علمها حتى يكونوا على نور من ربهم، واستفلت كل إنسان إلى ما أودع فيه من المواهب الإلهية، ودعا الناس أجمعين ذكوراً وإناثاً عامة وسادات، إلى عرفان أنفسهم، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل وميزه بالفكر وشرفه بهما وبحرية الإرادة فيما يرشده إليه عقله وفكره، وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها دون شرط ولا قيد، إلا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة والفضيلة الكاملة، وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم دون واسطة أحد إلا من خصهم الله بوحيه، وقد وكل إليهم معرفتهم بالدليل كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع، والحاجة إلى أولئك المصطفين إنما هي معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه، وليست في الاعتقاد بوجوده، وقرر ألّا سلطان لأحد من البشر على آخر منه إلا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل، ثم الإنسان بعد ذلك يذهب بإرادته إلى ما سخرت له بمقتضى الفطرة.



"دعا الإنسان إلى معرفة أنه جسم وروح وأنه بذلك من عالمين متخلفين وإن كانا ممتزجين، وأنه مطالب بخدمتهما جميعًا وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الإلهية من الحق. دعا الناس كافة إلى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقون في الحياة الأخرى، وبيّن لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الإخلاص لله في العبادة والإخلاص للعباد في العدل والنصيحة والإرشاد."

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ولا حول له ولا قوة، كل هذا كان منه والناس أحباء ما ألفوا، وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة، أعداء ما جهلوا وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة، كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم، وعبيد شهواتهم، لا يفقهون دعوته ولا يعقلون رسالته. عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى فقير أمي مثله، لا يرون فيه ما يرفعه إلى نصيحتهم والتطاول إلى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف.

لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة، ويناضلهم بالدليل ويأخذهم بالنصيحة ويزعجهم بالزجر وينبههم للعبر ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة، كأنما هو سلطان قاهر في حكمه عادل في أمره ونهيه أو أب حكيم في تربية أبنائه شديد الحرص على مصالحهم، رءوف بهم في شدته رحيم في سلطته.

ما هذه القوة في ذلك الضعف؟ ما هذا السلطان في مظِنة العجز؟ ما هذا العلم في تلك الأمية؟ ما هذا الرشاد في غمرات الجاهلية؟ إن هو إلا خطاب الجبروت الأعلى، قارعة القدرة العظمى، نداء العناية العليا. ذلك خطاب الله القادر على كل شيء، الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً، ذلك أمر الله الصادع، يقرع الآذان ويشق الحجب ويمزق الغلف وينفذ إلى القلوب على لسان مَن اختاره لينطق به واختصه بذلك، وهو أضعف قومه، ليقيم من هذا الاختصاص برهاناً عليه بعيداً عن الظنة بريئًا من التهمة! لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه.

أي برهان على النبوة أعظم من هذا؟ أمي قام يدعو الكاتبين إلى فهم ما يكتبون وما يقرءون؟! بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون؟ في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء؟ ناشيء بين الواهمين هب لتقويم عِوج الحكماء؟ غريب في أقرب الشعوب إلى سذاجة الطبيعة وأبعدها عن فهم نظام الخليقة والنظر في سننه البديعة، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ويخط للسعادة طرقاً لن يهلك سالكها ولن يخلص تاركها؟!

ما هذا الخطاب المفحم؟ ما ذلك الدليل الملجم؟ أأقول ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم؟!

لا، لا أقول ذلك، ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠]. نبي صدق الأنبياء ولكن لم يأت في الإقناع برسالته بما يلهي الأبصار أو يحير الحواس أو يدهش المشاعر، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له، واختص العقل بالخطاب وحاكم إليه الخطأ والصواب، وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. [فصلت: ٤٢]

مِنة الله على المؤمنين



الأستاذ الشهيد سيد قطب *
رحمه الله

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]

إن ختام هذه الفقرة بهذه الحقيقة الكبيرة.. حقيقة الرسول ﷺ وقيمتها الذاتية، وعِظَم المِنة الإلهية بها، ودورها في إنشاء هذه الأمة وتعليمها وتربيتها وقيادتها، ونقلها من الضلال المبين إلى العلم والحكمة والطهارة.. إن هذا الختام يتضمن لمسات قرآنية كثيرة منوعة عميقة.

---

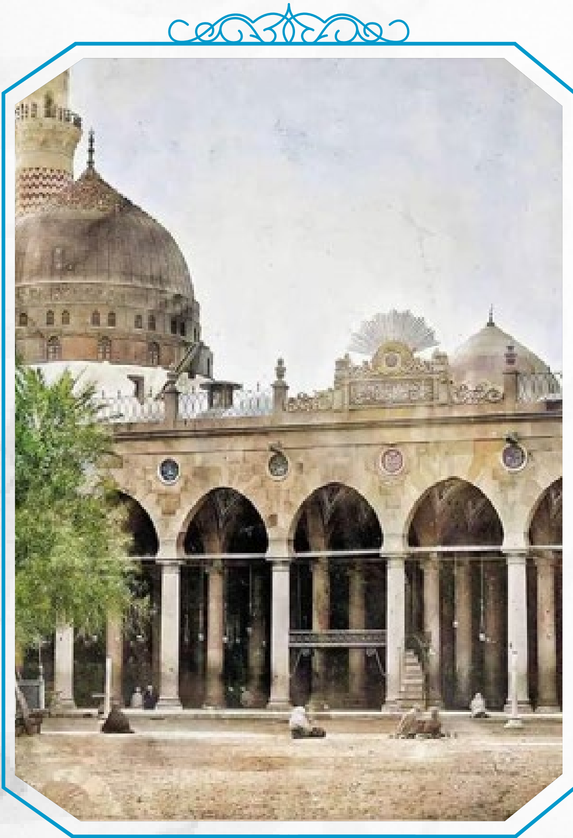
* الأستاذ سيد قطب، في ظلال القرآن، ١/ ٥٠٦ وما بعدها. باختصار يسير وعنوان المقال من وضع هيئة التحرير.

إنها تجيء ابتداء تعقيباً على الغنائم والطمع فيها والغلول، والانشغال بهذا الأمر الصغير، الذي كان الانشغال به هو السبب المباشر الذي قلب الموقف في المعركة، وبدل النصر هزيمة، وفعل بالمسلمين الأفاعيل.. فالإشارة إلى حقيقة الرسالة الكبيرة، والمنة العظيمة المتمثلة فيها، لمسة عميقة من لمسات التربية القرآنية الفريدة. تبدو في ظلها غنائم الأرض كلها، وأسلاب الأرض كلها، وأعراض الأرض كلها، شيئاً تافهاً زهيداً، لا يذكر ولا يقدر. شيئاً تخجل النفس المؤمنة أن تذكره، بل تستحي أن تفكر فيه فضلاً عن أن تشغل به!

وهي تجيء في سياق الحديث عن الهزيمة والقرح والألم والخسارة التي أصابت الجماعة المسلمة في المعركة..

فالإشارة إلى تلك الحقيقة الكبيرة وما تمثله من منة عظيمة لمسة عميقة من لمسات التربية القرآنية العجيبة، تصغر في ظلها الآلام والخسائر، وتصغر إلى جانبها الجراح والتضحيات، على حين تعظم المنة، ويتجلى العطاء الذي يرجح كل شيء في حياة الأمة المسلمة على الإطلاق.

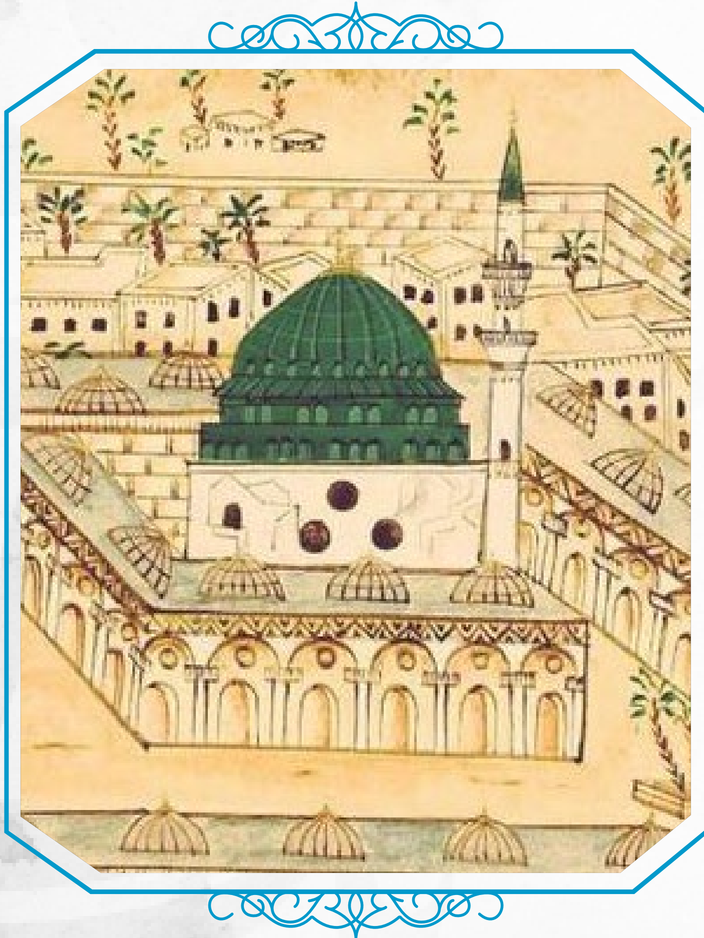
ثم.. الإشارة إلى آثار هذه المنة في حياة الأمة المسلمة ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، وهي تشي بالنقلة من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع، ومن عهد إلى عهد. فتشعر الأمة المسلمة بما وراء هذه النقلة من قدر الله الذي يريد بهذه الأمة أمراً ضخماً في تاريخ الأرض، وفي حياة البشر، والذي يعدها لهذا الأمر الضخم بإرسال الرسول ﷺ فما ينبغي لأمة هذا شأنها، أن تشغل بالها بالغنائم التي تبدو تافهة زهيدة في ظل هذا الهدف الضخم، ولا أن تجزع من التضحيات والآلام، التي تبدو هينة يسيرة في ظل هذه الغاية الكبيرة.



هذه بعض اللمسات المستفادة من ذكر هذه المنة في هذا السياق. نذكرها باختصار وإجمال، لنواجه النص القرآني الحافل بالإيحاءات والظلال:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾

إنها المنة العظمى أن يبعث الله فيهم رسولاً، وأن يكون هذا الرسول ﴿ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾. إن العناية من الله الجليل، بإرسال رسول من عنده إلى بعض خلقه، هي المنة التي لا تنبثق إلا من فيض الكرم الإلهي. المنة الخالصة التي لا يقابلها شيء من جانب البشر. وإلا فمن هم هؤلاء الناس، ومن هم هؤلاء الخلق، حتى يذكرهم الله هذا الذكر، ويُعنى بهم هذه العناية؟ ويبلغ من حفاوة الله بهم، أن يرسل لهم رسولاً من عنده، يحدثهم بآياته سبحانه وكلماته، لولا أن كرم الله يفيض بلا حساب، ويغمر خلائقه بلا سبب منهم ولا مقابل؟



وتتضاعف المنة بأن يكون هذا الرسول «من أنفسهم»، لم يقل «منهم» فإن للتعبير القرآني «من أنفسهم» ظلالاً عميقة الإيحاء والدلالة.. إن الصلة بين المؤمنين والرسول هي صلة النفس بالنفس، لا صلة الفرد بالجنس. فليست المسألة أنه واحد منهم وكفى إنما هي أعمق من ذلك وأرقى. ثم إنهم بالإيمان يرتفعون إلى هذه الصلة بالرسول، ويصلون إلى هذا الأفق من الكرامة على الله. فهو منة على المؤمنين.. فالمنة مضاعفة، ممثلة في إرسال الرسول، وفي وصل أنفسهم بنفس الرسول، ونفس الرسول بأنفسهم على هذا النحو الحبيب.

ثم تتجلى هذه المنة العلوية في آثارها العملية.. في نفوسهم وحياتهم وتاريخهم الإنساني:

﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾

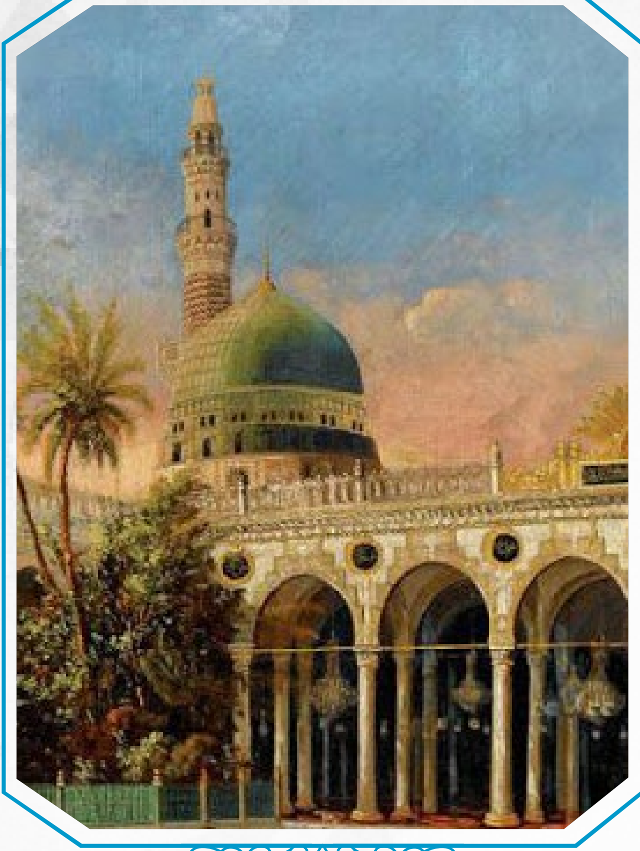
تتجلى هذه المنة في أكبر مجاليها. في تكريم الله لهم. بإرسال رسول من عنده يخاطبهم بكلام الله الجليل: يتلو عليهم آياته. ولو تأمل الإنسان هذه المنة وحدها لراعته وهزته حتى ما يتمالك أن ينصب قامته أمام الله، حتى وهو يقف أمامه للشكر والصلاة! ولو تأمل أن الله الجليل سبحانه يتكرم عليه، فيخاطبه بكلماته. يخاطبه ليحدثه عن ذاته الجليلة وصفاته وليعرفه بحقيقة الألوهية وخصائصها. ثم يخاطبه ليحدثه عن شأنه هو، هو الإنسان، هو العبد الصغير الضئيل وعن حياته، وعن خوالجه، وعن حركاته وسكناته. يخاطبه ليدعوه إلى ما يحييه، وليرشده إلى ما يصلح قلبه وحاله، ويهتف به إلى جنة عرضها السماوات والأرض. فهل هو إلا الكرم الفائض الذي يجري بهذه المنة، وهذا التفضل، وهذا العطاء؟

" إن الله الجليل غني عن العالمين وإن الإنسان الضئيل لهو الفقير المحووج.. ولكن الجليل هو الذي يحفل هذا الضئيل، ويتلمسه بعنايته، ويتابعه بدعوته! والغني هو الذي يخاطب الفقير ويدعوه ويكرر دعوته! فيا للكرم! ويا للمنة! ويا للفضل والعطاء الذي لا كفاء له من الشكر والوفاء! "

﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾

يطهرهم ويرفعهم وينقيهم. يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم. ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم. ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم.. يطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة، وما تبثه في الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة مزرية بالإنسان وبمعنى إنسانيته.. ويطهرهم من دنس الحياة الجاهلية، وما تلوث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم.

وقد كان لكل جاهلية من حولهم أرجاسها، وكان للعرب جاهليتهم وأرجاسها. من أرجاسها هذا الذي وصفه جعفر بن أبي طالب وهو يحدث نجاشي الحبشة في مواجهة رسولي قريش إليه، وقد جاءا إليه ليسلمهما المهاجرين من المسلمين عنده.. يقول جعفر:



«أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف.. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. فدعانا إلى الله وحده لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام».

ومن أرجاسها ما حكته عائشة رضي الله عنها وهي تصور أنواع الاتصال بين الجنسين في الجاهلية كما جاء في صحيح البخاري، في هذه الصورة الهابطة الحيوانية المزرية:

«إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء، فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته، فيصدقها، ثم ينكحها. والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه! ويعتزلها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه! فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب. وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الرجل! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها. فإذا حملت ووضعت، ومر عليها ليالٍ بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت. فهو ابنك يا

فلان. تسمي من أحبت منهم باسمه، فيلحق به ولدها. ولا يستطيع أن يمتنع منه الرجل! والنكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها، جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاطه، ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك!».

ودلالة هذه الصورة على هبوط التصور الإنساني وبهيميته لا تحتاج إلى تعليق. ويكفي تصور الرجل، وهو يرسل امرأته إلى «فلان» لتأتي له منه بولد نجيب. تماماً كما يرسل ناقته أو فرسه أو بهيمته إلى الفحل النجيب، لتأتي له منه بنتاج جيد!

ويكفي تصور الرجال ما دون العشرة!

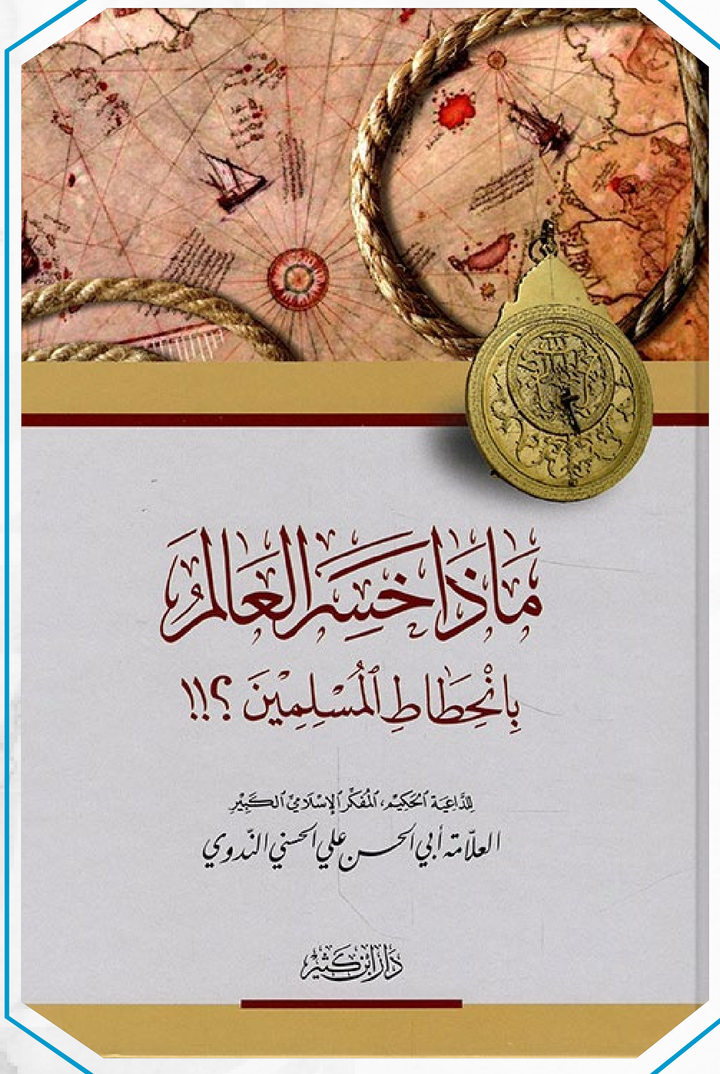
يدخلون إلى المرأة مجتمعين «كلهم يصيبها!»

ثم تختار هي أحدهم لتلحق به ولدها!

أما البغاء وهو الصورة الرابعة فهو البغاء!

يزيد عليه إلحاق نتاجه برجل من البغاة! لا يجد في ذلك معرة! ولا يمتنع من ذلك!

إنه الوحل. الذي طهر الإسلام منه العرب وزكاهم. وكانوا لولا الإسلام غارقين إلى الأذقان فيه! ولم يكن هذا الوحل في العلاقات الجنسية إلا طرفاً من النظرة الهابطة إلى المرأة في الجاهلية... يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه القيم (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين):



«انغمست الأمة في الوثنية وعبادة الأصنام بأبشع أشكالها. فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص، بل كان لكل بيت صنم خصوصي.... وكان للعرب شأن كل أمة مشركة في كل زمان ومكان آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب. فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله، ويعبدونهم، ويتوسلون بهم عند الله. واتخذوا كذلك معه الجن شركاء لله، وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم، وعبدوهم»[1].

ويكفي أن يتصفح الإنسان هذه الصورة البدائية الغليظة من الوثنية، ليعرف أي رجس كانت تنشره في القلوب والتصورات وفي واقع الحياة! ويدرك النقلة الضخمة التي نقلها الإسلام للقوم، والطهارة التي أسبغها على تصوراتهم وعلى حياتهم سواء. ومن هذه الأرجاس تلك الأدواء الخلقية والاجتماعية، التي كانت في الوقت ذاته من مفاخرهم في أشعارهم! ومن مفاخراتهم في أسواقهم! من الخمر إلى القمار إلى الثارات القبلية الصغيرة، التي تشغل اهتماماتهم، فلا ترتفع على تلك التصورات المحلية المحدودة. وهانت عليهم الحرب وإراقة الدماء حتى كانت تثيرها حادثة ليست بذات خطر.

وكان ذلك علامة فراغ الحياة من الاهتمامات الكبيرة، التي تشغلهم عن تفريغ الطاقة في هذه الملابسات الصغيرة. إذ لم تكن لهم رسالة للحياة، ولا فكرة للبشرية، ولا دور للإنسانية، يشغلهم عن هذا السفساف. ولم تكن هناك عقيدة تطهرهم من هذه الأرجاس الاجتماعية الذميمة.. وماذا يكون الناس من غير عقيدة إلهية؟ ماذا تكون اهتماماتهم؟ وماذا تكون تصوراتهم؟ وماذا تكون أخلاقهم؟

إن الجاهلية هي الجاهلية ولكل جاهلية أرجاسها وأدناسها. لا يهم موقعها من الزمان والمكان؛ فحيثما خلت قلوب الناس من عقيدة إلهية تحكم تصوراتهم، ومن شريعة منبثقة من هذه العقيدة تحكم حياتهم، فلن تكون إلا الجاهلية في صورة من صورها الكثيرة.. والجاهلية التي تمرغ البشرية اليوم في وحلها لا تختلف في طبيعتها عن تلك الجاهلية العربية أو غيرها من الجاهليات التي عاصرتها في أنحاء الأرض، حتى أنقذها منها الإسلام وطهرها وزكاها.

---

١. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٣٤.

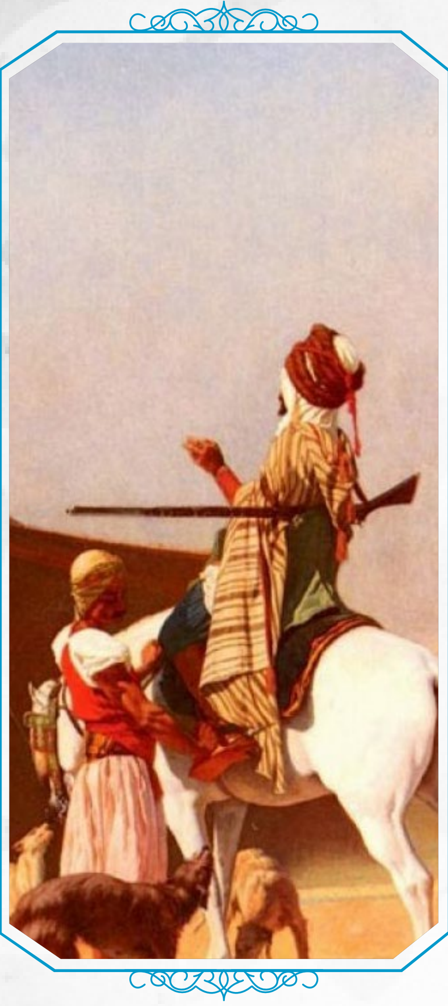
إن البشرية اليوم تعيش في ماخور كبير! ونظرة إلى صحافتها وأفلامها ومعارض أزيائها ومسابقات جمالها، ومراقصها، وحاناتها. وإذاعاتها. ونظرة إلى سعارها المجنون للحم العاري، والأوضاع المثيرة، والإيحاءات المريضة، في الأدب والفن وأجهزة الإعلام كلها.. إلى جانب نظامها الربوي، وما يكمن وراءه من سعار للمال، ووسائل خسيسة لجمعه وتثميره، وعمليات نصب واحتيال وابتزاز تلبس ثوب القانون.. وإلى جانب التدهور الخلقي والانحلال الاجتماعي، الذي أصبح يهدد كل نفس وكل بيت، وكل نظام، وكل تجمع إنساني.. نظرة إلى هذا كله تكفي للحكم على المصير البائس الذي تدلف إليه البشرية في ظل هذه الجاهلية.

إن البشرية تتآكل إنسانيتها، وتتحلل آدميتها، وهي تلهث وراء الحيوان، ومثيرات الحيوان، لتلحق بعالمه الهابط! والحيوان أنظف وأشرف وأطهر لأنه محكوم بفطرة حازمة لا تميع، ولا تأسن كما تأسن شهوات الإنسان حين ينفلت من رباط العقيدة، ومن نظام العقيدة، ويرتد إلى الجاهلية التي أنقذه الله منها، والتي يمتن الله على عباده المؤمنين بتطهيرهم منها في تلك الآية الكريمة: ويعلمهم الكتاب والحكمة..



وكان المخاطبون بهذه الآية أميين جهالاً، أمية القلم، وأمية العقل سواء. وما كان لهم من المعرفة شيء ذو قيمة بالمقاييس العالمية للمعرفة، في أي باب من الأبواب. وما كان لهم في حياتهم من هموم كبيرة تنشئ معرفة ذات قيمة عالمية في أي باب من الأبواب. فإذا هذه الرسالة تحيلهم أساتذة الدنيا، وحكماء العالم، وأصحاب المنهج العقيدي والفكري والاجتماعي والتنظيمي، الذي ينقذ البشرية كلها من جاهليتها في ذلك الزمان. والذي يرتقب دوره في الجولة القادمة بإذن الله لإنقاذ البشرية مرة أخرى من جاهليتها الحديثة، التي تمثل فيها كل خصائص الجاهلية القديمة، من النواحي الأخلاقية والاجتماعية وتصور أهداف الحياة الإنسانية وغاياتها كذلك! على الرغم من فتوحات العلم المادي والإنتاج الصناعي، والرخاء الحضاري!

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾



ضلال في التصور والاعتقاد، وضلال في مفهومات الحياة، وضلال في الغاية والاتجاه، وضلال في العادات والسلوك. وضلال في الأنظمة والأوضاع، وضلال في المجتمع والأخلاق..

والعرب الذين كانوا يخاطبون بهذه الآية كانوا يذكرون ولا شك ماضي حياتهم وأوضاعهم، ويعرفون طبيعة النقلة التي نقلهم إليها الإسلام، وما كانوا ببالغيها بغير الإسلام وهي نقلة غير معهودة في تاريخ بني الإنسان. كانوا يدركون أن الإسلام والإسلام وحده هو الذي نقلهم من طور القبيلة، واهتمامات القبيلة، وثارات القبيلة، لا ليكونوا أمة فحسب. ولكن ليكونوا على حين فجأة ومن غير تمهيد يتدخل فيه الزمن أمة تقود البشرية، وترسم لها مثلها، ومناهج حياتها، وأنظمتها كذلك، في صورة غير معهودة في تاريخ البشرية الطويل.

كانوا يدركون أن الإسلام والإسلام وحده هو الذي منحهم وجودهم القومي، ووجودهم السياسي ووجودهم الدولي، وقبل كل شيء وأهم من كل شيء وجودهم الإنساني، الذي يرفع إنسانيتهم، ويكرم آدميتهم، ويقيم نظام حياتهم كله على أساس هذا التكريم، الذي جاءهم هدية ومنة من لدن ربهم الكريم. والذي أفاضوه هم على البشرية كلها بعد ذلك، وعلموها كيف تحترم «الإنسان» وتكرمه بتكريم الله. غير مسبوقين في هذا، لا في الجزيرة العربية ، ولا في أي مكان... وكانوا يدركون أن الإسلام والإسلام وحده هو الذي جعل لهم رسالة يقدمونها للعالم، ونظرية للحياة البشرية، ومذهباً مميزاً للحياة الإنسانية.. والأمة لا توجد في الحقل الإنساني الكبير إلا برسالة ونظرية ومذهب، تقدمه للبشرية، لتدفع بالبشرية إلى الأمام. وقد كان الإسلام، وتصوره للوجود، ورأيه في الحياة، وشريعته للمجتمع، وتنظيمه للحياة البشرية، ومنهجه المثالي الواقعي الإيجابي لإقامة نظام يسعد في ظله «الإنسان».. كان الإسلام بخصائصه هذه هو «بطاقة الشخصية» التي تقدم بها العرب للعالم، فعرفهم، واحترمهم، وسلمهم القيادة.

وهم اليوم وغداً لا يحملون إلا هذه البطاقة. ليست لهم رسالة غيرها يتعرفون بها إلى العالم. وهم إما أن يحملوها فتعرفهم البشرية وتكرمهم وإما أن ينبذوها فيعودوا هملاً كما كانوا لا يعرفهم أحد، ولا يعترف بهم أحد! وما الذي يقدمونه للبشرية حين لا يتقدمون إليها بهذه الرسالة؟

يقدمون لها عبقريات في الآداب والفنون والعلوم؟ لقد سبقتهم شعوب الأرض في هذه الحقول. والبشرية تغص بالعبقريات في هذه الحقول الفرعية للحياة. وليست في حاجة ولا في انتظار إلى عبقريات من هناك في هذه الحقول الفرعية للحياة! يقدمون لها عبقريات في الإنتاج الصناعي المتفوق، تحني له الجباه، ويغرقون به أسواقها، ويغطون به على ما عنده من إنتاج؟ لقد سبقتهم شعوب كثيرة، في يدها عجلة القيادة في هذا المضمار! يقدمون لها فلسفة مذهبية اجتماعية، ومناهج اقتصادية وتنظيمية من صنع أيديهم، ومن وحي أفكارهم البشرية؟ إن الأرض تعج بالفلسفات والمذاهب والمناهج الأرضية. وتشقى بها جميعا غاية الشقاء!

ماذا إذن يقدمون للبشرية لتعرفهم به، وتعترف لهم بالسبق والتفوق والامتياز؟

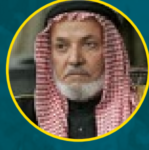
لا شيء إلا هذه الرسالة الكبيرة. لا شيء إلا هذا المنهج الفريد. لا شيء إلا هذه المنة التي اختارهم الله لها، وأكرمهم بها، وأنقذ بها البشرية كلها على أيديهم ذات يوم. والبشرية اليوم أحوج ما تكون إليها، وهي تتردى في هاوية الشقاء والحيرة والقلق والإفلاس! إنها وحدها بطاقة الشخصية التي تقدموا بها قديماً للبشرية، فأحنت لها هامتها. والتي يمكن أن يقدموها لها اليوم، فيكون فيها الخلاص والإنقاذ.

إن لكل أمة من الأمم الكبيرة رسالة. وأكبر أمة هي التي تحمل أكبر رسالة. وهي التي تقدم أكبر منهج. وهي التي تتفرد في الأرض بأرفع مذهب للحياة. والعرب يملكون هذه الرسالة وهم فيها أصلاء، وغيرهم من الشعوب هم شركاء فأي شيطان يا ترى يصرفهم عن هذا الرصيد الضخم؟ أي شيطان؟!

لقد كانت المنة الإلهية على هذه الأمة بهذا الرسول وبهذه الرسالة عظيمة عظيمة. وما يمكن أن يصرفها عن هذه المنة إلا شيطان.. وهي مكلفة من ربها بمطاردة الشيطان!

عناية الرسول ﷺ بأهل الصُفَّة

وأثرهم في نصرة الإسلام ونشر تعاليمه



د. حارث سليمان الضاري[1]

رحمه الله



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الغرّ الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد: فهذا بحث متواضع في التعريف بأهل الصُفَّة من أصحاب رسول الله ﷺ، وبيان مكانتهم رضي الله عنهم، وما قاموا به من جهود، وما قدموا من تضحيات في خدمة الإسلام والدفاع عنه، ونشر تعاليمه، والدعوة إليه؛ مما استدعى ثناء الله تعالى عليهم، وعناية الرسول ﷺ بهم، ورعايته لهم، أداءً لما لهم علينا من حقوق، وإبرازًا لأثرهم المهم في تثبيت دعائم الإسلام، ونشر تعاليمه.

١. مختصر من بحث مطول عن (أهل الصُفَّة)، نشر في مجلة (آفاق الثقافة والتراث) بدبي، العدد (٣٩)، رجب ١٤٢٣هـ تشرين الأول ٢٠٠٢م.

التعريف بالصُفَّة وأهلها

(أولًا: التعريف بالصُفَّة)

الصُفَّة لغة: الظلة، وقيل: واحدة صفف الدار[٢]. وقيل: ما يجعل على الراحة من الحبوب[٣].

وفي المفهوم الإسلامي: تطلق ويراد بها، الظلة التي أمر النبي ﷺ بإنشائها بجوار المسجد النبوي الشريف ليسكنها من لا أهل لهم ولا سكن ولا عريف في المدينة من فقراء المهاجرين، الذين انضموا إلى موكب النور والإيمان، كانت بمثابة القسم الداخلي لفقراء طلبة العلم في مدرسة الإسلام الأولى: المسجد النبوي الشريف، الذي بُدئ بإنشائه في العام الأول من هجرة النبي ﷺ إلى المدنية.

قال الدارقطني: الصُفة هي ظلة كان المسجد في مؤخرها[٤]. وقال الحافظ ابن حجر: الصُفَّة مكان في مؤخر المسجد النبوي مظلَّلٌ أُعِدَّ لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى ولا أهل، وكانوا يكْثرون فيه ويقلون بحسب من يتزوج منهم أو يموت أو يسافر[٥].

(ثانيًا: التعريف بأهل الصُفَّة)

أهل الصُفَّة: هم فقراء المهاجرين إلى النبي ﷺ ممن لا مال لهم ولا مأوى، من العرب وغيرهم، الذين سكنوا صفة المسجد النبوي لفترات تفاوتت قلة وكثرة، حسب تغير أحوال ساكنيها المادية والاجتماعية، كما مرَّ قريبًا.

قال أبو هريرة رضي الله عنه عريف أهل الصُفَّة في زمانه: وأهل الصُفَّة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها[٦]. وروى ابن سعد عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال: كان أهل الصُفَّة ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ لا منازل لهم، فكانوا ينامون على عهد رسول الله ﷺ في المسجد ويظلون فيه ما لهم مأوى غيره[٧]. وعن أبي الأسود الدؤلي عن طلحة بن عمرو قال: كان الرجل

٢. معجم البلدان، ياقوت الحموي: ١٤/١٣.

٣. النهاية في غريب الحديث، مجد الدين ابن الأثير: ٣٧/٣.

٤. ينظر: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، نور الدين أبو الحسن السمهودي: ٤٨/٢.

٥. فتح الباري، ابن حجر: ٢٨٧/١١.

إذا قدم على النبي ﷺ، وكان له بالمدينة عريف نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصُفَّة قال: وكنت فيمن نزل الصُفَّة، فوافقت رجلًا، وكان يجري علينا رسول الله ﷺ كُلَّ يوم مُدًّا من تمر بين رجلين[٨].



وعلى هذا لم تكن الصُفَّة دار عجزة أو أيتام ألجأتهم الظروف إليها طلبًا للعيش وضرورات الحياة، كما يظن من لا علم له بها وبأهلها، وإنما كانت مأوى ومسكنًا لمن هاجروا إليها طلبًا للحياة الروحية: للإيمان الذي هبت نسائمه من قبل طيبة، وهربًا من حياة التيه والضياع: حياة الشرك والضلال، الذي لَفَّ بظلامه الإنسانية قرونًا متطاولة، فتركوا لذلك الأهل والمال والولد والوطن، وأصبحوا لا يلوون على شيء من ذلك زهدًا به، ورغبة بالإيمان الذي هفت إليه قلوبهم، واختارهم الله تعالى له، ليسهموا في حمل راية الدفاع عنه، والدعوة إليه، ونشر تعاليمه في الآفاق.

مكانة أهل الصُفَّة، ورعاية النبي ﷺ لهم

أولًا: مكانة أهل الصُفَّة عند الله تعالى ورسوله ﷺ

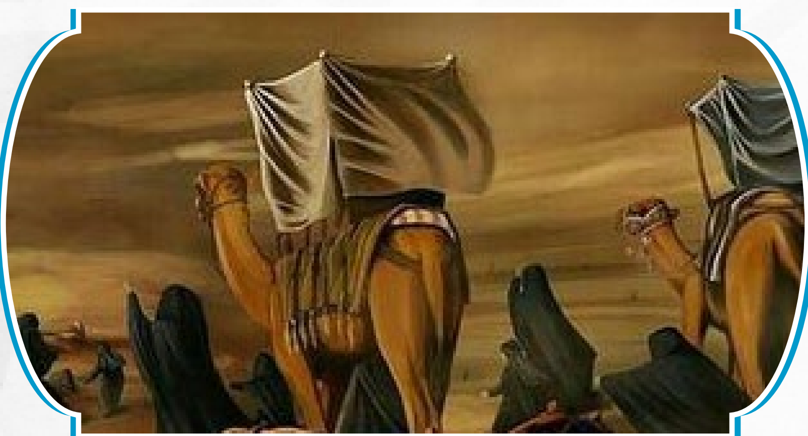
حظيَ أهل الصُفَّة رضي الله عنهم بمكانة سامية عند الله تعالى، وعند رسوله ﷺ، وعند إخوانهم من الصحابة الآخرين رضي الله عنهم، فإلى جانب تعديل الله تعالى العام للصحابة وترضيه عنهم، ووعده لهم بالحسنى والنعيم المقيم، ورعاية النبي ﷺ لهم، وتعهده بهم، وثنائه عليهم، فإنهم قد وصفوا بصفات تدل

٦. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا، حديث رقم (٦٤٥٢): ١٨٣/٤.
٧. الطبقات الكبرى، ابن سعد: ٢٥٥/١.
٨. حلية الأولياء: ٣٣٩/١.

على كبير فضلهم وسمو مكانتهم؛ إذْ وصفهم الله تعالى بالداعين لربهم بالغداة والعشي في أول النهار وآخره، بالتسبيح والتحميد والدعاء والأعمال الصالحة من الصلوات المفروضة وغيرها، كما وصفهم بالذين يريدون وجهه فلا يريدون أحدًا سواه ولا يريدون عرضًا من أعراض الدنيا، يريدون طاعته والإخلاص فيها[٩]. وذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[١٠]، التي صح أنها نزلت في فقراء المسلمين من أهل الصُفَّة وغيرهم، فقد روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترؤن علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس الرسول ﷺ ما شاء أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[١١].

وفي رواية عند أبي نعيم، قال: كنا نستبق إلى النبي ﷺ، فقالت قريش: تدني هؤلاء دوننا؟ فكأنّ النبي ﷺ همَّ بشيء، فنزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[١٢].

وروى ابن ماجه وأبو نعيم عن: خباب بن الأرت رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعُيينة بن حصن الفزاري، فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعدًا في ناس من الضعفاء من المسلمين، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسًا تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك، فنستحي أن ترانا مع هذه



٩. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٦/٤٣١،٤٣٢.
١٠. سورة الأنعام: آية ٥٢.
١١. صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حديث رقم (٢٤١٠): ٤/١٧٨٥.
١٢. حلية الأولياء: ١/٣٤٥.

الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنّا، فإذا نحن فرغنا فأقعدهم إن شئت، قال: «نعم». قالوا: فاكتب لنا عليك كتابًا، قال: فدعا بصحيفة ودعا عليًا ليكتب، ونحن قعود في ناحية، فنزل جبريل عليه السلام فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. إلى أن قال: فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. قال خبّاب: فكنا نقعد مع النبي ﷺ، فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها، قمنا وتركناه حتى يقوم»[١٣].



وبهذا نرى أن المولى تعالى بعد أن نهى النبي ﷺ من طردهم، لما اتصفوا به من الأوصاف الماضية، من ذِكرهم له تعالى وعبادتهم إياه، وإخلاصهم الطاعة له، وإعراضهم عمن سواه مهما كان السبب، حتى ولو كان الطرد مؤقتًا ومعللًا بتأليف قلوب من ظنَّ فيهم خيرًا، أو رجا منهم عونًا للإسلام أو نصرة: يأمره بالصلة بهم، وصَبْرِ نفسه معهم، ودوام النظر إليهم، رعاية بهم وتكريمًا لهم وذلك بقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾[١٤].

وبعد هذا التوجيه الإلهي زاد النبي ﷺ صلته بهم وجلوسه معهم، وعدم قيامه من مجلسه قبل قيامهم، كما أفادت هذه الرواية وغيرها: استجابةً للتوجيه الإلهي الكريم، وتطييبًا لنفوس هؤلاء الذين صبروا أنفسهم على الإيمان، واستهانوا من أجله بكل ما عرض لهم من ضيق وضنك ومعاناة؛ فقد جاء عنه ﷺ أنه قال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي مَنْ أمرتُ أن أصبر نفسي معهم»[١٥]. وجاء عنه أيضًا حين قال له قائل من أصحابه: أعطيتَ يا رسول الله عيينةَ والأقرع مائة مائة وتركتَ جُعيلَ بن سُراقة الضمري أنه قال: «أما

---

١٣. سنن ابن ماجه: كتاب الزهد، باب مجالسة الفقراء، حديث رقم (٤١٢٧): ١٣٨٢١٣٨٣/٢، وقال محقق السنن: الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي: ورجاله ثقات، وحلية الأولياء: ٣٤٤/١.

١٤. سورة الكهف: آية ٢٨.

والذي نفسي بيده لجعيلُ بن سُراقةَ خير من طِلاع الأرض كلهم مثل عيينة والأقرع، ولكني تآلفتهما ليسلما ووكلت جُعيلا إلى إسلامه»[١٦].

وهكذا نرى الإسلام يتألق في هذا الجانب الاجتماعي الإنساني: هديًا وعدلًا، وتقديرًا للجهود، وقبولًا للسؤال، وصدقًا في الجواب، وحكمة في التصرف، كتألقه في كل المعاني والقيم التي جاد بها على الإنسانية، وهو بهذا يؤصل مبدأ التفاضل بين الناس، على أساس التقوى لله، والإخلاص في طاعته، وليس المظاهر المجردة، ولا غيرها من الاعتبارات الدنيوية، التي لا يرتفع بها وضيع، ولا ينخفض بدونها كريم.

ثانيًا: رعاية النبي ﷺ لأهل الصُفَّة



اهتمَّ النبي ﷺ بأهل الصُفَّة اهتمامًا زائدًا، ورعاهم رعاية الأب الحاني على أبنائه، والأستاذ البار لتلاميذه النجباء، والداعي الحريص على أتباعه الأوفياء، والإنسان الذي اجتمعت فيه كل المعاني الإنسانية الخيرة، تخفف بذلك كثيرًا من المعاناة المادية والنفسية التي كانوا يعانونها أو بعضهم حيث كان يتفقدهم، ويقضي أغلب أوقاته معهم، ويشاركهم غالب أحوالهم حتى الجوع والفاقة. فقد رُوي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: أقبل أبو طلحة يومًا، فإذا النبي ﷺ قائم يُقرِئْ أصحابَ الصُفَّة، على بطنه فصيل من حجر يقيم به صلبه من الجوع»[١٧].

---

١٥. سنن أبي داود، كتاب العلم، باب في القصص، حديث رقم (٣٦٦٦): ٣/٣٢٣، وحلية الأولياء: ١/٣٤٣.

١٦. حلية الأولياء: ١/٣٥٣.

وقد تمثلت رعايتهُ ﷺ لهم بأمور أهمها

١ رعايته العلمية لهم:

كان النبي ﷺ كما هو معلوم المعلّم الأول لأصحابه رضي الله عنهم، من أهل الصُفَّة وغيرهم، وقد نال أصحابُ الصُفَّة نصيبًا وافرًا من تعليمه لهم ورعايته إياهم، لتفرغهم نسبيًا للعلم، وملازمتهم له ﷺ أكثر من غيرهم فكان ﷺ يعلمهم القرآن الكريم والسنة المشرفة كما كان يعلمهم السلوك والعمل، والتعامل فيما بينهم، في المسجد وفي الصُفَّة، وخارجهما، وكان يرغبهم في قراءة القرآن بمضاعفة الأجر والثواب على ذلك.

فقد رُوي عن عقبة بن عامر قال: (خرج إلينا رسول الله ﷺ ونحن في الصُفَّة، فقال: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطيعة رحم؟ فقلنا يا رسول الله نحب ذلك، قال: أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل، خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل)»[١٨].



وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أتى علينا رسول الله ﷺ، ونحن أناس من ضعفة المسلمين، ورجلٌ يقرأ علينا القرآن ويدعو لنا، ما أظن رسول الله ﷺ يعرف أحدًا منهم، وإن بعضهم ليوارى من بعض من العُرْي، فقال رسول الله ﷺ بيده فأدارها شبه الحلقة فاستدارت له الحلقة، فقال: «بم كنتم تراجعون؟» قالوا: هذا رجل يقرأ القرآن ويدعو لنا، قال: (فعودوا لما كنتم فيه)»[١٩].

١٧. حلية الأولياء: ١/٣٤٢، والفصيل: هو القطعة من الحجر.
١٨. صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه، حديث رقم (٨٠٣): ١/٥٥٢. والناقة الكوماء: هي الناقة مشرفة السنام عاليته.

وعن زرعة بن عبد الرحمن عن أبيه، وكان من أهل الصُفَّة قال: جلس عندنا رسول الله ﷺ، وفخذي مكشوفة، فقال: «خَمِّر عليك أما علمت أنَّ الفخذ عورة»[٢٠]. واسم أبيه كما ذكر الحافظ أبو نعيم هو: جرهد.

وهكذا نراه ﷺ قد تولى تعليمهم وتثقيفهم بما حباه الله تعالى من كتاب وحكمة، حتى أعدهم الإعداد المطلوب للقيام بمهام الدعوة إلى الإسلام ونشر تعاليمه.

٢ رعايته التربوية والنفسية لهم:



كان أهل الصُفَّة رضي الله عنهم على الرغم من قوة إيمانهم بالإسلام وتضحياتهم الجسام من أجله: يعانون أو بعضهم نفسياً مما هم فيه من فاقة وقلة، كبَشَر، وكان النبي ﷺ أعرفَ من غيره بمعاناتهم وأقدرَ من يستطيع علاجها أو تخفيفها على الأقل؛ لذا نراه ﷺ يبادر إليهم ويسألهم عن أحوالهم وما يهمهم، ويبين لهم أن ما هم فيه من حال خير لهم، وهي من صالحهم في النهاية، فيطيب بذلك نفوسَهم ويخفف من معاناتهم، ويرفع من معنوياتهم.

فعن الحسن، قال: جاء رسول الله ﷺ إلى أهل الصُفَّة فقال: «كيف أصبحتم» قالوا: بخير، فقال رسول الله ﷺ: «أنتم اليوم خير، وإذا غُدي على أحدكم بجفنة وريحَ بأخرى وسَتَرَ أحدُكم بيتَه كما تُستر الكعبة» فقالوا: يا رسول الله نصيب ذلك؟ قال: «نعم» قالوا: نحن يومئذ خير نتصدق ونعتق، فقال رسول الله ﷺ: «لا بل أنتم اليوم خير، إنكم إذا أصبتموها تحاسدتم وتقاطعتم وتباغضتم»[٢١]. وعن ثابت البناني قال: كان سلمان في عصابة يذكرون الله عز وجل قال: فمَرَّ النبي ﷺ فكفوا، فقال: «وما كنتم تقولون؟» فقلنا: نذكر الله يا رسول الله قال: «قولوا فإني رأيت الرحمة تنزل عليكم فأحببت أشاركم فيها» ثم قال: الحمد لله جعل في أمتي

---

١٩. حلية الأولياء: ٣٤١/١.

٢٠. سنن الدارمي، كتاب الاستئذان، باب في أن الفخذ عورة، حديث رقم (٢٦٩٢): ١٧٣٤/٣، ومعنى: خَمِّر عليك: غطي فخذك.

من أمرت أن أصبّر نفسي معهم»[٢٢] يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾. وبهذا الأسلوب التربوي النفسي الحكيم دفع النبي ﷺ هذه الفئة المؤمنة الصادقة إلى الترفع عن الخواطر الدنيوية، والصبر على المعاناة، والتطلع إلى ما عند الله تعالى من ثواب ونعيم مقيم، وحَرِّيٌ بمن رضي بالإسلام دينًا وبالدعوة إليه سبيلًا: أن يَقْتَدِيَ بهم في الصبر على المعاناة، والاستهانة بكل المعوقات، والرغبة فيما عند الله تعالى، وما عند الله خير وأبقى.



٣ رعايته المادية لهم

اهتم النبي ﷺ بفقراء أصحابه رضي الله عنهم وأهل الصُفَّة منهم خاصة، ورعاهم رعاية مادية متميزة، إضافة إلى رعايته لهم: علميًا وتربويًا ونفسيًا، وكان من مظاهر ذلك: تقديمه لهم ما كان متيسرًا لديه، مما هو موجود عنده أو مُهدى إليه، قليلًا كان أو كثيرًا، وأحيانًا مع حاجته الماسة إليه، وكان يشرف بنفسه على إطعامهم وتفقد أحوالهم من هذه الناحية.

فعن مجاهد بن جبر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: والله إن كنت لأعقد على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، إلى أن قال: حتى مرَّ بي رسول الله ﷺ، فعرف ما في وجهي من الجوع، فقال: أبو هريرة، قلت: لبيك يا رسول الله، فدخلت معه البيت فوجد لبنًا في قدح فقال: «من أين لكم هذا»؟ قيل: أرسل به إليك فلان فقال: «يا أبا هريرة انطلق إلى أهل الصُفَّة فادعهم» قال: وكان أهل الصُفَّة أضياف الإسلام، لا أهل ولا مال، إذا أتت رسول الله ﷺ صدقة أرسل بها إليهم ولم يصب منها شيئًا، وإذا جاءته هدية أصاب منها وأشركهم فيها فساءني إرساله إيايَ، فقلت: كنت أرجو أن أصيب

٢١. حلية الأولياء: ٣٤٠/١، والحسن: هو البصري رضي الله عنه.
٢٢. المصدر نفسه: ٣٤٢٣٤٣/١.

من هذا اللبن شربة أتقوى بها، وما هذا اللبن في أهل الصُفَّة، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بُدًّا، فأتيتهم فأقبلوا مجيبين، فلما جلسوا، قال: «خُذْ يا أبا هريرة فأعطهم» فجعلت أعطي الرجل فيشرب حتى يَرْوي، حتى أتيت على جميعهم، وناولته رسولَ الله ﷺ، فرفع رأسه إليَّ مبتسمًا، وقال: «بقيت أنا وأنت» قلت: صدقت يا رسول الله قال: «فاشرب» فشربت، فقال: «اشرب» فشربت، فما زال يقول: اشربْ فأشرب، حتى قلت: والذي بعثك بالحق ما أجد له مساغًا، فأخذ فشرب من الفَضْلَةِ[٢٣].

فهذه الرواية الصحيحة وحدها كافية للدلالة على مدى رعاية النبي ﷺ لأهل الصُفَّة، ومشاركته لهم، وإيثارهم على نفسه، وفرحه بشبعهم، وبما أفاء الله تعالى عليه وعليهم من بركة اللبن، وما في ذلك من شحنات إيمانية قوية تدفعهم إلى الاستهانة أكثر فأكثر، بكل ما بهم من معاناة من أجل الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ.

ومن ذلك: دفعه لصدقات الموسرين من أصحابه إليهم وإلى غيرهم من فقراء المسلمين، وكذلك توزيعه عليهم ما قد يحصل من غنائم من أعداء المسلمين. ومن ذلك أيضًا: توزيعه إياهم على أصحابه لإطعامهم، فيذهب الرجل منهم برجلين، ويذهب الآخر بثلاثة أو أربعة أو أكثر من ذلك كلٌّ حَسَب استطاعته وما يسر الله تعالى له من طعام، فعن أبي عثمان النهدي أنه حدثه عبد الرحمن بن أبي بكر: (أن أصحاب الصفة كانوا أناسًا فقراء، وأن النبي ﷺ قال: من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، وإن أربع فخامس، أو سادس. وإن أبا بكر جاء بثلاثة، فانطلق النبي ﷺ بعشرة)[٢٤].



٢٣. سبق تخريجه.

٢٤. صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب السمر مع الضيف والأهل، حديث رقم (٦٠٢): ١/٢٠٣.

وعن محمد بن سيرين قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمسى قَسَّمَ ناسًا من أهل الصُفَّة بين ناس من أصحابه، فكان الرجل يذهب بالرجل، والرجل يذهب بالرجلين، والرجل يذهب بالثلاثة حتى ذكر عشرة، فكان سعد بن عبادة يرجع كل ليلة إلى أهله بثمانين منهم يعشيهم[٢٥]. ورَوى ابن سعد عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال: كان أهل الصُفَّة ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ لا منازل لهم، فكانوا ينامون على عهد رسول الله ﷺ في المسجد ويظلون فيه ما لهم مأوى غيره، فكان رسول الله ﷺ يدعوهم إليه بالليل إذا تعشى، فيفرقهم على أصحابه، وتتعشى طائفة منهم مع رسول الله ﷺ، حتى جاء الله بالغنى[٢٦].



والرسول ﷺ يضع لنا بهذا النهج: المثل الأسمى في التعامل مع مثل هذه المواقف والأحوال الإنسانية التي قد يتعرض لها المسلمون أو بعضهم في مسيرة الحياة، وما أكثر ما تعرضوا ويتعرضون له اليوم من أحوال شاقة ومؤلمة، حيث أمر كل مستطيع من الصحابة رضي الله عنهم، أن يقوم بإطعام من يستطيع إطعامه من غير كلفة، تعميمًا للمشاركة بشرف القيام بواجب إطعام إخوانهم، وكفايتهم من هذه الناحية، وتحقيقًا لمبدأ التعاون على البر والتقوى، الذي دعا إليه الإسلام الحنيف، وإلى جانب ما كان يقوم به النبي ﷺ نحو أهل الصُفَّة في هذا المجال، كان الموسرون من إخوانهم الصحابة رضي الله عنهم، يقومون أيضًا ببرهم ومساعدتهم مباشرة وبما استطاعوا.

رُوي عن الحسن أنه قال: بُنيت الصُفَّة لضعفاء المسلمين، فجعل المسلمون يوغلون إليها ما استطاعوا من خير[٢٧]. وناهيك بما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من تفانٍ وتنافس في البذل والإنفاق في سبيل الله وإعلاء كلمته في الأرض.

---

٢٥. حلية الأولياء: ١/٣٤١.

٢٦. الطبقات الكبرى: ١/٢٥٥.

٢٧. حلية الأولياء: ١/٣٤٠، ومعنى: يوغلون: يوصلون إليهم ما أقدرهم الله تعالى عليه، مما يحتاجون إليه من طعام وغيره.

أثر أهل الصُفَّة في نصرة الإسلام ونشر تعاليمه

كان لأهل الصُفَّة أثرٌ بارز في نُصْرة الإسلام ونشر تعاليمه، إذ شاركوا إخوانهم الآخرين من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم مشاركة فعّالة وهامة في كل ميادين العمل الإسلامي الممكنة في عهد الرسول ﷺ وبعده، فكان منهم: المجاهدون في سبيل الله ونصرة دينه، والشهداء الذي ضربوا أروع الأمثلة في الثبات والبطولة والاستشهاد، ومنهم العلماء والمفتون والولاة، والرواة الذين حملوا عِلم النبي ﷺ ونشروه بين الناس، ومنهم من قام بأعمال أخرى اقتضتها ظروف الدعوة وضرورة حمايتها، كحراسة النبي ﷺ، وإيصال الكتب والمراسلات وغير ذلك من المهمات التي كانوا يكلَّفون بها من قبل النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده.

ومنهم من قام بأكثر من عمل أو مهمة، من تلك الأعمال والمهمات الجليلة؛ وللتدليل لما ذكرنا يجدر بنا أن نعرض وبإيجاز لبعض ما قاموا به من أعمال، وما بذلوا من جهود في نصرة الإسلام ونشر تعاليمه والدعوة إليه، وهي:



١. الثبات على الإسلام وتحمل الأذى من أجل ذلك.
٢. الجهاد والاستشهاد لنصرة الإسلام.
٣. الرواة والمعلمون.
٤. القادة والولاة والمفتون.
٥. خدمتهم للنبي ﷺ.
٦. حراستهم للنبي ﷺ.
٧. قيامهم ببعض المهمات التي اقتضتها ظروف الدعوة الإسلامية، وضرورة حمايتها من أعدائها في بداية أمرها.

نظرة فلاسفة ومفكري أوروبا
لنبي الإسلام محمد ﷺ



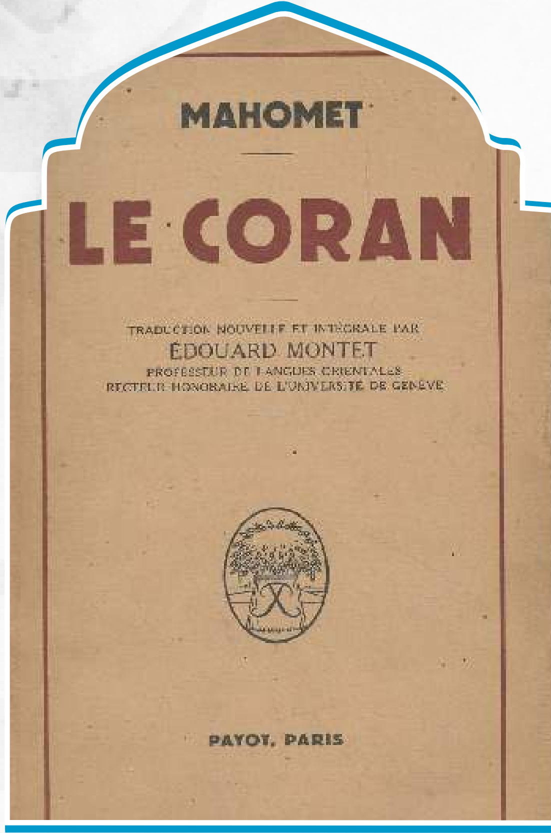
أمير البيان شكيب أرسلان*

رحمه الله

قال غروسه صاحب (مدنيات الشرق): «كان محمد لما قام بهذه الدعوة شاباً كريماً نجداً، ملآن حماسة لكل قضية شريفة، وكان أرفع جداً من الوسط الذي كان يعيش فيه. وقد كان العرب يوم دعاهم إلى الله منغمسين في الوثنية وعبادة الحجارة، فعزم على نقلهم من تلك الوثنية الى التوحيد الخالص البحت، وكانوا يفنون في الفوضى وقتال بعضهم بعضاً، فأراد أن يؤسس لهم حكومة ديمقراطية موحدة. وكانت لهم عادات وأوابد وحشية تقرب من الهمجية، فأراد أن يلطف أخلاقهم ويهذب من خشونتهم... إلخ».

* من تحقيق شكيب أرسلان لكتاب (حاضر العالم الإسلامي) لـ لوثروب ستودّارد، (٣١/١ وما بعدها)، ط: دار الفكر، بيروت، ط ٣، ١٣٩١ هـ، باختصار قليل وإضافة عناوين جانبية.

وقال الأستاذ: (مونته) أستاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف في كتابه (محمد والقرآن) ما يلي: «أما محمد فكان كريم الأخلاق حسن العشرة، عذب الحديث، صحيح الحكم صادق اللفظ، وقد كانت الصفات الغالبة عليه هي صحة الحكم وصراحة اللفظ، والاقتناع التام بما يعمله ويقوله».



وقال الأستاذ (مونته) في كتابه المذكور صفحة ٨١ ما يلي بالحرف: «إن طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الإخلاص. فقد كان محمد مصلحاً دينياً ذا عقيدة راسخة، ولم يقم إلا بعد أن تأمل كثيراً وبلغ سن الكمال بهاتيك الدعوة العظيمة التي جعلته من أسطع أنوار الإنسانية في الدين. وهو في قتاله الشرك والعادات القبيحة التي كانت عند أبناء زمنه كان في بلاد العرب أشبه بنبي من أنبياء بني إسرائيل الذين نراهم كباراً جداً في تاريخ قومهم. ولقد جهل كثير من الناس محمداً وبخسوه حقه وذلك لأنه من المصلحين النادرين الذين عرف الناس أطوار حياتهم بدقائقها».

وقال في صفحة ٢٢ ما يلي: «إن الديانة الإسلامية كعقيدة توحيد، ليس فيها شيء مجهول في ديانات التوحيد الأخرى، إلا أن ظهورها في جزيرة العرب بروح عربية عالية جعل لها طابعاً جديداً باهراً، وقد سماها محمد «الإسلام» إشارة إلى تمام الانقياد لإرادة الباري تعالى وهي في هذه العقيدة مشابهة للمسيحية إلا أن عقيدة هذا الانقياد لإرادة الله تتجلى من القرآن بقوة لا تعرفها النصرانية. وقد بقي في الإسلام من عادات العرب القديمة تعدد الزوجات والرق، إلا أن الإسلام جعل للأولى حداً، وللثانية شروطاً من حسن المعاملة، وقد بلغ من محمد التزام هذا التلطيف من معاملة الرقيقين أن قال: ما خلق الله شيئاً أحب إليه من تحرير الرقيق ولا حلل شيئاً أكره إليه من الطلاق. ولقد منع القرآن الذبائح البشرية، ووأد البنات والخمر والميسر، وكان لهذه الإصلاحات تأثير غير متناهٍ في الخلق، بحيث ينبغي أن يعد محمد في صف أعاظم المحسنين للبشرية».

ثم ذكر (مونته) أركان الإسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحج وقال إن حكمة الصلاة خمس مرات في اليوم هي إبقاء الإنسان من الصباح إلى المساء تحت تأثير الديانة، ليكون دائماً بعيداً عن الشر... وحكمة الصيام تعويد المؤمن غلبة شهوات الجسم وزيادة القوة الروحية في الإنسان، وحكمة الحج هي توطيد الإخاء بين المؤمنين وتمكين الوحدة العربية.

قال مونته: «فهذا هو البناء العظيم الذي وضع محمد أساسه، وثبت ولا يزال ثابتاً بإزاء عواصف الدهور الدهارير».

ولا يزال الأستاذ مونته حياً يرزق وهو من علماء جنيف ومن كبار أساتيذ جامعتها ومن أكابر المستشرقين وله ترجمة بديعة للقرآن.


ناصر الدين دينيه

•• **الأستاذ اتيان دينه :** ومن ألطف الكتب في السيرة النبوية كتاب للمسيو (اتيان دينه) الفرنسي الذي أسلم وحج وألف كتاباً عن حجته إلى البيت الحرام من أبدع ما كتب في هذا العصر، كما أن كتابه عن حياة النبي ﷺ لا يقل عن كتابه في الحج في سلاسة عبارته، ودقة معانيه، وقوة حجته، مع التزام خطة الاعتدال والجدال بالتي هي أحسن. ومن بدائع تآليف (دينه) كتابه في الرد على لامنس اليسوعي ومؤلفين آخرين ممن تنقصوا الإسلام والرسول عليه السلام، وهو المسمى «إنك لفي وادٍ وإنا لفي واد».

فالمسيو (دينه) يبين فساد طريقة هؤلاء الأوربيين الذين حاولوا أن يحللوا السيرة المحمدية وتاريخ ظهور الإسلام بحسب العقلية الأوربية، فضلّوا بذلك ضلالاً بعيداً لأن هذا غير هذا ولأن المنطق الأوربي لا يمكن أن يأتى بنتائج صحيحة في تاريخ الأنبياء الشرقيين.

قال (دينه) إن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبي بهذا الأسلوب الأوربي البحث لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ويمحصون بزعمهم، حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة نبيهم، وكان ينبغي لهم بعد هذه التدقيقات الطويلة العريضة العميقة أن يتمكنوا من هدم الآراء المقررة، والروايات المشهورة من السيرة النبوية، فهل تسنى لهم شيء من ذلك؟ الجواب: لم يتمكنوا من إثبات أقل شيء جديد. بل إذا أمعنا النظر في الآراء الجديدة التي أتى بها هؤلاء المستشرقون، من فرنسيس وإنكليز وألمان وبلجيكيين وهولانديين... إلخ، لا نجد إلا خلطاً وخبطاً، وإنك لترى كل واحد منهم يقرر ما نقضه غيره من هؤلاء المدققين بزعمهم أو ينقض ما قرره.

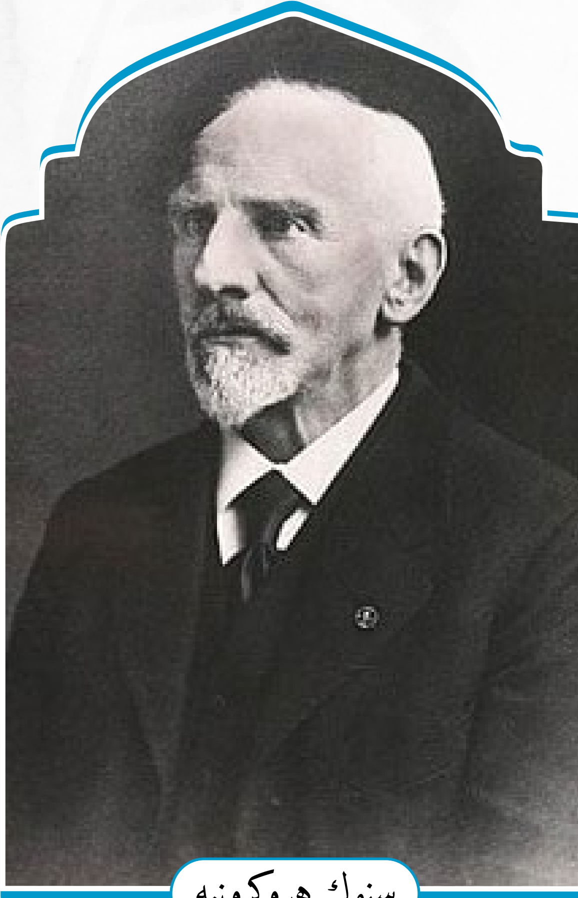
ثم أخذ (دينه) يورد الأمثال على هذه التناقضات؛ فمنها أن المستشرق دوزى الهولاندي قال إن محمداً لم يكن يشبه قومه، فقد كان ذا تصور قوي ولم يكن عند العرب مثل هذا التصور، وكان ديّناً بطبيعته ولم يكن العرب دينين. وأن (لامنس) قال بإزاء ذلك أن محمداً كان شبيهاً بقومه وأن هذه المشابهة هي التي كانت سر نجاحه بينهم. وقال (دوزي) إن محمداً كان ميالاً إلى الصمت والكآبة يحب العزلة والهيام في الأودية البعيدة، ويطيل التأمل في الليالي. وعارض (لامنس) في هذا الرأي وقال إنه لا ينطبق على المعهود من كراهية محمد للعزلة ومن شهرة نفوره من النسك.

وقال (نولدكه) إن سبب الوحي النازل على محمد والدعوة التي قام بها هو ما كان ينتابه من داء الصرع. وقال الأستاذ (غويه) إن هذا الافتراض ليس بصحيح لأن الذاكرة عند المصابين بالصرع تكون معطلة، والحال هي العكس عند محمد الذي كان يتذكر كل ما يسمع، في أثناء هذه النوبات.

قال (اتيان دنيه): «وإن أردنا استقصاء هذه التناقضات التي نجدها بين تمحيصات هؤلاء الممحصين بزعمهم، يطول بنا الأمر ولا نقدر أن نعرف أية حقيقة ولا يبقى أمامنا إلا أن نرجع إلى السير النبوية التي كتبها العرب. نعم إنهم كتبوها بأسلوب شرقي ساذج. وأودعوها تفاصيل قد تكون من أثر الحب والتحمس إلا أن الذي يفهم أسلوبها يعلم ما بها من الحقائق المدهشة. فأما المؤلفون الذين زعموا أنهم يريدون ترجمة محمد بصورة علمية، شديدة التدقيق، فلم يتفقوا منها ولا على نقطة مهمة، وبرغم جميع ما

نقبوه ونقروه، وحاولوا كشفه بزعمهم، فلم يصلوا ولن يصلوا إلا إلى تمثيل أشخاص في تلك السيرة ليسوا أعرق في الحقيقة الواقعية من أبطال أقاصيص فالترسكوت واسكندر دوماس. فهؤلاء القصاصون تخيلوا أشخاصاً من أبناء جنسهم يقدرون أن يفهموهم ولم يلحظوا إلا اختلاف الأدوار بينهم. أما أولئك المستشرقون فنسوا أنه كان عليهم قبل كل شيء أن يسدوا الهوة السحيقة التي تفصل بين عقليتهم الغربية والأشخاص الشرقيين الذين يترجمونهم وأنهم دون هذه الملاحظة جديرون بأن يقعوا في الوهم في كل نقطة, هل يتوقفون عند هذه الملاحظة ويعلمون أن طريقتهم هذه لا تنفذ الى حقيقة؟ الجواب: لا نظن ذلك. وهو لأنهم مولعون بحب الطريف يحاولون الإتيان ببدع غير مسبوق».

ثم نقل دينه قول (سنوك هركرونيه) عن كتاب (غريم) في ترجمة الرسول وهو أن (غريم) أراد الإبداع والأطراف فجاء بصورة غير صحيحة. ثم ذكر (دينه) كيف أن الأب (لامنس) اليسوعي في أول كتابه عن محمد صاح متأوهاً من كون القرآن جاء وصرف العرب عن حلاوة الإنجيل التي كانوا بدأوا يذوقونها، ولم يقدر أن يغفر للقرآن ذنب إدخاله في الإسلام ثلاثمائة مليون نسمة من جميع أجناس البشر واستتبابه إلى يوم الناس هذا ينمو وينتشر في إفريقيه وآسيه بمرأى ومسمع من المبشرين المسيحيين. فلذلك زعم الأب (لامنس) أن يشنها على الإسلام غارة شعواء ويحمل عليه حملة صليبية يكون هو بطرسها الناسك على أمل أن يصرع الإسلام!


سنوك هروكرونيه

إلا أن حالة عقلية كهذه يقول (دينه) إنها لا تلتئم مع بحث علمي مبني على تجرد محض من الهوى وتنزُّه عن البُغض. ثم جاء (دينه) رحمه الله بالأدلة القاطعة على سفسطات (لامنس) وسردها مع ردها واحدة واحدة مما لا يتسع له هذا المكان الذي لا نتوخى فيه إلا الإشارة والدلالة محيلين من شاء التوسع في هذا البحث على الكتب نفسها.

•• مؤلفات الأوربيين عن الرسول ﷺ

إن الكتابات في أوروبة عن النبي ﷺ ودينه وشرعه والملة الإسلامية، بحر لا ساحل له وفيها الغث والثمين، والحالي والعاطل، والحق والباطل، ومن مؤلفيها المحب والقالي، والمنصف والمتعسف، والناصح والكاشح، كما هو الشأن في كل أمر. ولكن العصر الأخير في أوروبة أنصف الرسول ﷺ كثيراً بالقياس الى الأعصر التي سبقت كما يظهر من الشواهد التي أتينا بها من قبيل أنموذجات. ولو كان المسلمون استيقظوا من سباتهم وتعلموا من الأوروبيين روح «التضحية» كما يقال ونشروا للإسلام دعاية منظمة وأنفقوا عليها عن سعة، لأمكنهم أن يصححوا أباطيل كثيرة ويبددوا أوهاماً كثيفة تتعلق بهم وبدينهم وبنبيهم، ولاهتدى في أوروبة إلى الإسلام خلق كثير أثروا تأثيراً محسوساً في مجرى السياسة العامة.

ولكننا مع الأسف لا نزال بعيدين عن درجة هذا الانتباه ولا يزال أعداء الإسلام يناصبونه القتال في كل سهل وجبل وفى كل بر وبحر، ولا تبرح مكافحة الإسلام لهم هي في نسبة الخردل إلى الجندل. فمتى ينشط الإسلام من عقاله ويستأنف همته الأولى؟ هذا ما لا يجاوب عليه غير المستقبل.


جولدزيهر

وقال المؤرخ الفرنسي الشهير «لافيس» «إنه كان مشهوراً بالصدق منذ صباه حتى كان يلقب بالأمين... إلخ».

وقال (غولد سيهر) سيد المدققين، وحجة المستشرقين، في كتابه (عقيدة الإسلام وشريعته) في الصفحة الثالثة من هذا الكتاب الجليل ما يلي:

«إن دعوة النبي العربي كان فيها نخبة مبادئ دينية اعتقدها هو بالاختلاط مع اليهود والنصارى وغيرهم، واقتنع بها، ورآها جديرة بإحياء الشعور الديني بين

قومه. ولقد كانت هذه المبادئ المقتبسة من الأديان الأخرى في نظره ضرورية لتثبيت سير الإنسان بحسب الإرادة الإلهية، فتلقاها هو بصدق وأمانة، وبمقتضى إلهام أيدته فيه المؤثرات الخارجية وجاءه وحياً إلهياً كان هو مقتنعاً بكونه وحياً إلهيا نازلاً على لسانه».

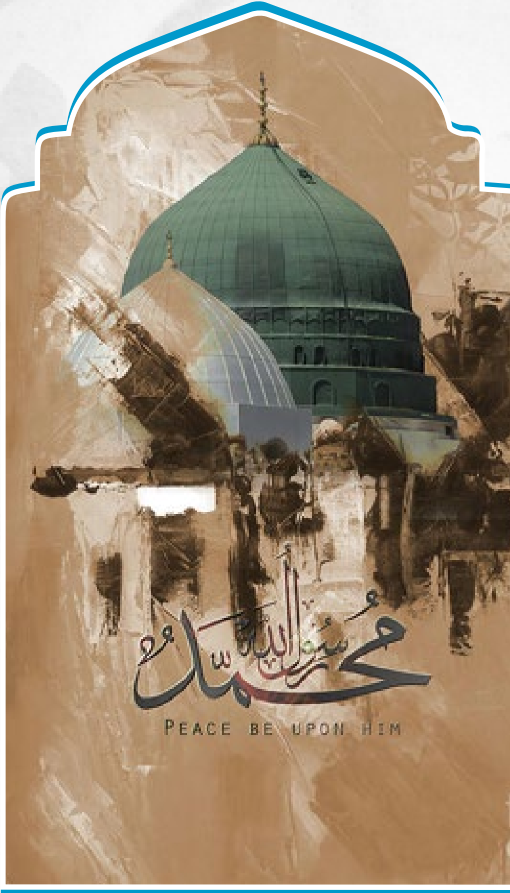
•• تنبيه مهم

إننا ننبه القراء إلى أن هؤلاء الذين نحن نستشهد بكلامهم في حق محمد ليس فيهم واحد مسلم، وذلك أننا لا نرى حاجة إلى الاستشهاد على صدق الرسول عليه السلام بكلام المسلمين المؤمنين بالله ورسوله. وإنما نريد أن نقيم الأدلة من أقوال علماء الأوربيين الذين ليسوا بمسلمين ليقال فيهم إنهم قالوا ما قالوه متأثرين بعقيدتهم التي نشأوا عليها، وإنما هم من العلماء المنصفين الذين نشدوا الحق، وبغوا التحرى جهد طاقتهم. وقد كانت خلاصة آرائهم وزبدة أقوالهم إن محمداً كان صادقاً، وكان أميناً، وكان معتقداً بأن الله ابتعثه لهداية قومه، وإرشاد سائر البشر إلى الدين القيم، وكان مقتنعاً بأن الله تعالى يوحي إليه، وأنه لم يقل شيئاً إلا وهو مقتنع به. وهذا هو الرأي السائد الآن بين العلماء المحققين من أهل أوربة، ولم يبق فيهم من يقيم وزناً لتلك المطاعن التي كان أحبارهم ورهبانهم وأعداء الدين الإسلامي منهم يوجهونها إلى شخص النبي ﷺ، ويطبعون بها ناشئتهم ويجعلونها مداراً لدعايتهم.

وأما قول «غولد سيهر» إن الإسلام فيه نخبة مبادئ أصلها من اليهودية والمسيحية فليس فيه شيء يدعو إلى الإنكار، وما جاء القرآن إلا مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل، والإسلام إنما هو ملة إبراهيم حنيفاً، وقد جاء محمد بتأييد تلك الملة لا بنقضها كما لا يخفى.

•• كبار علماء أوروبا ينصفون الرسول

وقال «ماكس مايرهوف» في كتابه «العالم الإسلامي» الصفحة العاشرة: «إن محمداً في سنة ٦١٠ للمسيح كان كثير التفكر، والانفراد، وكان يقصد إلى البادية ويخلو بنفسه في جبل حراء قرب مكة. فرأى ذات يوم رؤيا، هي أن الملك جبريل تجلى له وناوله كتاباً، وقرأ عليه هذه الآيات التي هي السورة السادسة

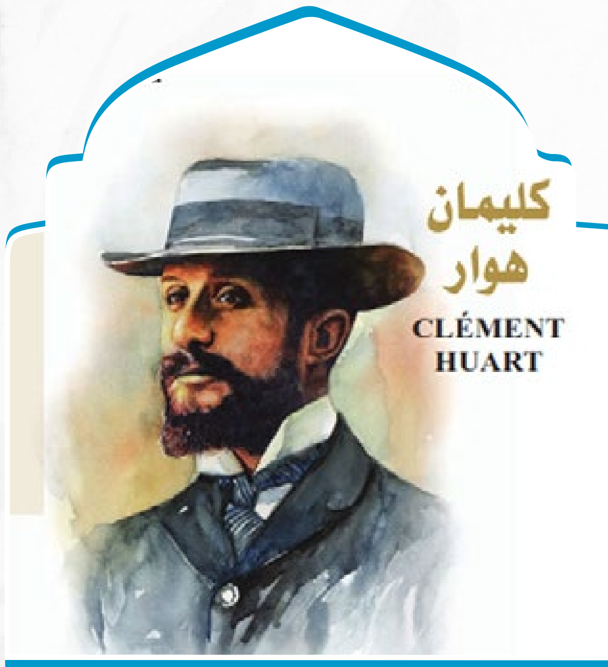


والتسعون من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فنزل عليه هذا الكلام وحياً وجاء فأخبر امرأته بما وقع له. ثم جاءه وحي آخر فيما بعد، فلما شعر به تغطى بثوب وسمع هذه الكلمات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ ومذ ذاك الوقت اقتنع بأن الله اختاره مبشراً بعقيدة جديدة، وتسمى برسول الله، ليدعو إلى الله بلسان عربي مبين. إلى أن يقول: «أراد بعضهم أن يرى في محمد رجلاً مصاباً بمرض عصبي، أو بداء الصرع، ولكن تاريخ حياته من أوله إلى آخره ليس فيه شيء يدل على هذا، كما أن ما قام به فيما بعد من التشريع والإدارة يناقض هذا القول».

وأما «غودفروا دمبومبين» و«بلاتونوف» في (تاريخ العالم) فقد وصلا من التدقيق والتمحيص إلى حد لا أعرفه لمؤرخ وبلغ منهما ذلك أن قالا: «إن النصرانية لا يزال أصلها مجهولاً». كما أني رأيتهما في كثير من الأمور المجمع عليها في الإسلام لا يبرحان متوقفين؛ ففي الصفحة ١٣٢ من الجزء السابع من تاريخهما نجدهما يقولان: «إنه غير ممكن الجزم بصورة حقيقية لمحمد، ولا بصورة حقيقية لأحد من كبار رجال العالم. وكل ما هناك إنما هو الروح التي تتجلى لهم في تواريخهم التقليدية وفي كيفية تمثيل الخلف لصورهم. ولا شك في أنه يكون من باب الفلسفة العليا أن تميز الحقائق الراهنة عن الاعتقادات ولكننا نجد أنفسنا عاجزين عن ذلك هنا. وغاية ما نقدر أن نجزم به هنا هو تبرئة محمد من الكذب ومن المرض. وإنما كان محمد رجلاً ذا مواهب إلهية عليا، ساد بها أبناء عصره، وهي رباطة الجأش، وطهارة القلب، وجاذبية الشمائل، ونفوذ الكلمة، وأنه كان عابداً عظيماً، وأنه نظير جميع العباد العظام كان يجمع بين حرارة الاعتقاد بالرسالة التي هو مأمور بها من جانب الحق تعالى، وبين ملكة الأعمال الدنيوية ومعرفة استخدام الوسائل اللازمة لنجاح تلك الرسالة».

وجميع هؤلاء تقريباً، ولز الانكليزي أيضاً، وهو ممن تناول النبي ﷺ بشيء من النقد، قد أجمعوا على أن من أنصع الأدلة على صدقه كون أهله وأقرب الناس إليه هم أول من آمنوا به. فقد كانوا مطلعين على جميع سرائره، ولو ارتابوا في صدقه ما آمنوا.

وبرغم انتقادات «ولز» التي حاد فيها عن الصواب، لم يستطع أن ينكر كثيراً من الحقائق مثل قوله: «إن ديانة محمد كان فيها روح حقيقية من العطف، والكرم، والإخاء، وكانت بسيطة، مفهومة، سائغة، وكانت ملأى بمكارم الأخلاق، وعلو النفس، والمعالى التي يشغف بها أهل البادية».



وقال العلامة هوار أستاذ الألسن الشرقية بباريز وصاحب «تاريخ العرب» المتداول بين الأيدي وذلك في الصفحة ٩٤ من الجزء الأول: «كيف تعرف محمد إلى خديجة وكيف أمكنه أن يحصل على ثقتها ويتزوج بها؟ الجواب على الشق الأول لا يزال غير معروف عندنا. وأما على الثاني فقد اتفقت الأخبار على أن محمداً كان في الدرجة العليا من شرف النفس، وكان يلقب بالأمين، أي بالرجل الثقة المعتمد عليه إلى أقصى درجة، أي كان المثل الأعلى في الاستقامة».

ثم إنك لا تجد في «تاريخ العرب» للأستاذ «هوار» كلمة واحدة تدل على أن محمداً كان مرائياً أو مداجياً، أو كان يقول ما لا يعتقد أو يعتقد ما لا يقول.

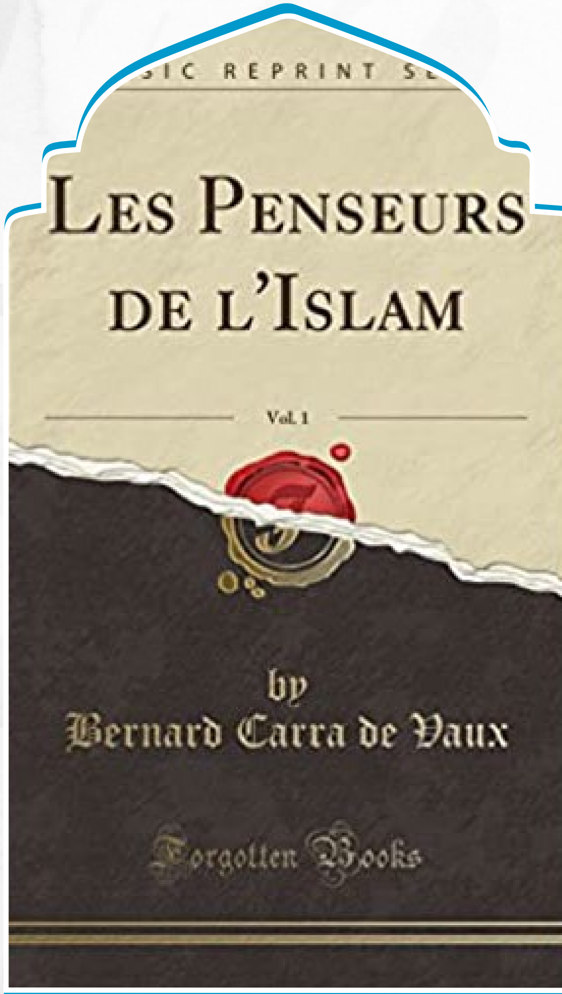
وقد ذكر «كارادوفو» المستشرق الفرنسي الفاضل صاحب كتاب (مفكرى الإسلام) في الجزء الثالث من هذا الكتاب حياة صاحب الرسالة ﷺ، وتحرى فيها مزيد التحرى، ودقق أشد التدقيق، وانتهى إلى القول:

«إن محمداً من سن الخامسة والعشرين إلى الأربعين. كان كثير التفكر، هادئاً، ساكناً، وكان حليماً، تقياً، حسن الأخلاق، وأنه عندما بلغ الأربعين توجهت جميع قواه العقلية إلى جهة التأمل في جوهر

الألوهية، والبحث عن الحقيقة الدينية، ومذ ذاك الوقت أخذ يعتزل الناس ويخلو بنفسه في غار بقرب مكة اسمه حراء. وكان محمد أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يكن فيلسوفاً، ولكنه لم يزل يفكر في هذا الأمر إلى أن تكونت في نفسه بطريق الكشف التدريجي المستمر عقيدة كان يراها الكفيلة بالقضاء على الوثنية».

فهذا أيضاً من المستشرقين المتبحرين الذين لم يدينوا بالإسلام، ولم يعتقدوا بالوحي المتنزل على محمد ﷺ، لكنه ذهب إلى أنه عرف الحق بطريق التأمل، والقذف في الروع، مما لا يبعد كثيراً عن العقيدة التي عليها المسلمون.

قصة بحيرا الراهب



ولقد تعرض «كارادوفو» إلى خرافة الراهب بحيرا التي يزعم بعض المسيحيين أنه هو الذي كان علم محمداً العقيدة، وهو الذي ألّف القرآن، وقال إن هذه الأسطورة موجودة وإنها مكتوبة بالعربي، وأنه كان نشر عنها فصلاً في مجلة «الشرق المسيحي» ولم ير فيها شيئاً يستحق الاعتبار، ولكنه لا يزال في سورية قسيسون من الفئة التابعة لرومه يعتقدون بأن بحيرا كان معلماً لمحمد، وأنه هو الذي لقنه القرآن وقد ذكر «كارادوفو» ما قيل عن بحيرا أنه كان راهباً من أنطاكية، ذهب سائحاً إلى جنوبي سورية، وتوغل في صحراء سينا، ثم ذهب إلى بلاد العرب يعلمهم دين جدهم إسماعيل... إلخ، إلا أنه ينعت هذه القصة كلها بقوله: «خرافة».

وكيف لا تكون خرافة القصة التي تجعل مثل بحيرا الراهب الأعجمي ينطق بمثل القرآن الذي عجزت عنه مصاقع خطباء العرب، وفحول شعرائهم أفصح وأبلغ ما كانوا، ولعل أصل هذه الخرافة التي لا يخجل

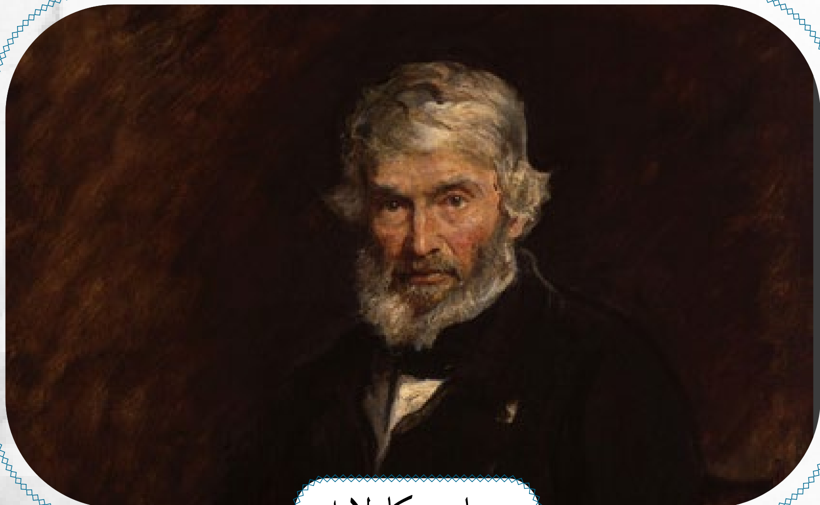
بعض الناس من روايتها أو الاشارة إليها، ما يرويه المؤرخون من أن النبي ﷺ كان قد ذهب مع عمه أبي طالب إلى الشام في قافلة، وكان في الثانية عشرة من العمر، وأنه لما مر أبو طالب والقافلة ببُصرى دعاهم إلى الطعام راهب اسمه بحيرا. فلما صاروا حول الخوان قال الراهب إنه معكم صبي لا يزال غائباً فلماذا لا يحضر؟ فاستدعوه فحضر. وطفق الراهب يسأله أسئلة ويستحلفه باللات والعزى أن يجاوب عليها فأجابه الصبي بما يشعر اقشعرار بدنه من ذكر اللات والعزى، ووجد الراهب من أجوبته ومن سيمائه أنه هو النبي الذي رأى صفته في الكتب، والذي سيكون خاتم الرسل. وأوصى الراهب أبا طالب بأن يحذر على ابن أخيه من اليهود.

قد نقل هذا الخبر ابن هشام في السيرة النبوية. ونقلها أصحاب «الانسيكلوبيديا» الإسلامية عن ابن هشام. وقالوا إن بعضهم يزعم أن أبا بكر كان في هذه الواقعة. ثم قالوا إن المسعودي ذكر أن اسم الراهب كان سرجيوس وأنه كان من عبد القيس. وذكر الحلبي أن اسمه كان سرجيوس أو جرجيوس.

وقرأت في تاريخ أبي الفرج الملطىّ الأسقف المسيحى، أن الراهب لما رأى محمداً ﷺ مع عمه تفرس فيه وقال: «سيكون لهذا الصبى شأن عظيم و يذيع شكره في المشارق والمغارب».

ولو أردنا أن نورد كل ما جاء في كتب المحققين من الأوربيين من الشهادات بصدق محمد ﷺ لما أمكننا أن ننتهى، وإنما أوردنا بعض هذه الأنموذجات مثالاً نكتفى به عن غيره.

ويقال إن «كارلايل» الكاتب الانكليزي الشهير قد كان من الأوربيين الأوائل الذين شددوا النكير، على المطاعن الأثيمة والأكاذيب التي كان رجال الكنيسة قد ألصقوها بأذهان الأوربيين في حق الرسول العربي الكريم.


توماس كارلايل

رأي ملاحدة أوربة بحق محمد ﷺ

وسأختم هذه الحاشية بنقل ما قاله «فولتير»، وذلك أن «البرنس تسينسندروف» النمساوي الذي تولى حكومة النمسا في أواخر أيامه، كان في أيام شبابه جاء إلى سويسرة، وزار كلاً من «فولتير» و«جان جاك روسو»، وذلك في شهري سبتمبر وأكتوبر سنة ١٧٦٤، وله مذكرات عن هذه الزيارات غير مطبوعة، محفوظة في دار الآثار الوطنية في فيينا، قد اطلع عليها المسيو «لونال» الفرنسي، وأرسل عنها مقالة إلى جريدة الطان مؤرخة في ١٤ أكتوبر ١٩٢٤.

وقد نقلت أنا هذه المقالة تلخيصاً ونشرت ذلك في مجلة «الزهراء» عددها المؤرخ في ١٥ صفر سنة ١٣٤٤ والمهم منها أن فولتير في أحد مجالسه مع البرنس تسينسدورف أجرى ذكر «لوثير» و« كلفين» فقال للبرنس:

«إنهما لا يستحقان أن يكونا صانعي أحذية عند محمد».

ومن المعلوم أن الأوربيين لا سيما الأمم البروتستانتية منهم، يعتقدون أنه لولا الإصلاح الديني الذي قام به «لوثير» و« كلفين» لما انبثق فجر الحرية في أوربة، ولكانت القرون الوسطى قد امتدت إلى عصرنا هذا. فأما «فولتير» فقد رآهما مقصرين رجعيين ناكصين على الأعقاب، لأنهما لم يتجاسرا على إعلان الحقائق التي أعلنها محمد، مع أنه قد تقدمهما في الزمن. وهذه شهادة ملحد لم يقرن به أحد في ملاحدة الدهر، ولا تمارى أحد في كونه العامل الأعظم في الثورة الفرنسية.


فولتير

ولقد ذكرت في مقدمة مقالتي هذه في «الزهراء» أسباب اهتمامي لهذه الجملة التي قالها «فولتير» عن مقايسة «لوثير» و« كلفين» إلى محمد وهي أن:



لوثير وكلفين

بعض النشء الجديد لا يعتقدون بشيء ولا يحفلون بأمر ما لم ترو لهم فيه كلاماً عن فيلسوف أوربى عظيم، لا سيما إذا كان من كبار الملاحدة. وأي فيلسوف لعمري أعظم إلحاداً، وأى ملحد أشهر فلسفة، من «فولتير» الذي لم يتقدمه ولا تأخر عنه في هذا الباب مثله؟ ولقد أنطقه الحق بما نطق به كما رأيت.

في ذكرى
المولد النبوي الكريم



الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس*

رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم، وعلى اسم الجزائر الراسخة في إسلامها، المتمسكة بأمجاد قوميتها وتاريخها، أفتتح الذكرى الأولى بعد الأربعمائة والألف من ذكريات مولد نبي الإنسانية ورسول الرحمة، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله، عليه وعلى آله الصلاة والسلام، في هذا النادي العظيم الذي هو وديعة الأمة الجزائرية عند فضلاء هذه العاصمة ووجهائها.

---

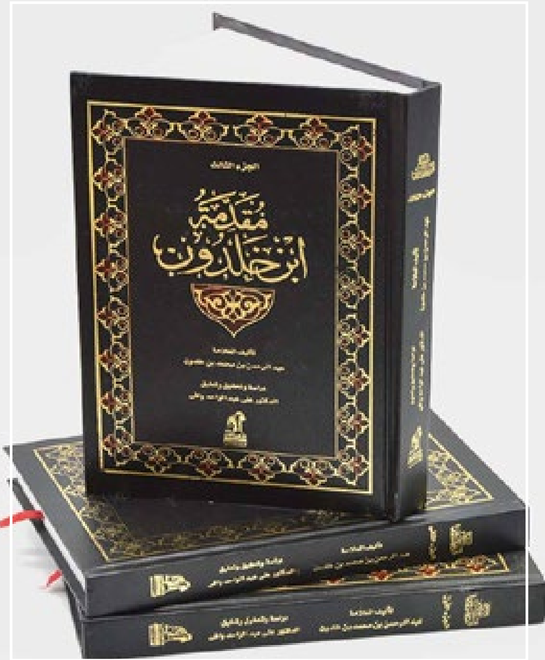
* من خطاب الشيخ عبد الحميد بن باديس في ذكرى المولد النبوي الشريف، ١٣٤٨هـ، ١٩٢٩. الأعمال الكاملة ٢/ ٢٨٧، وما بعدها.

لسنا وحدنا في هذا الموقف الشريف لإحياء هذه الذكرى العظيمة، بل يشاركنا فيها نحو خمسمائة مليون من البشر في أقطار المعمور، كلهم تخفق أفئدتهم فرحاً وسروراً وتخضع أرواحهم إجلالاً وتعظيماً لمولد سيد العالمين.

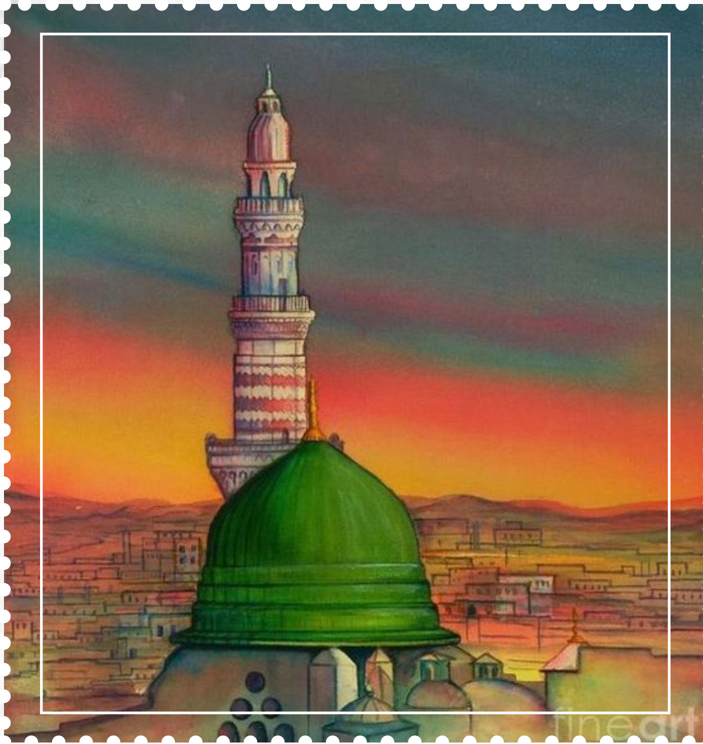
قلوب خمسمائة مليون! هذه قوة كبيرة في هذا العالم مرتبطة بالحب متدرعة بالإيمان. فلو شعرت حقيقة الشعور ببعضها لأثمرت للإنسانية فوائد كبرى وعملت لها أعمالاً عظيمة.

بل تشاركنا في موقفنا هذا الإنسانية كلها، وإذا لم يكن بلسان مقالها فبلسان حالها. فمن الإسلام الذي جاء به صاحب هذه الذكرى عرفت الإنسانية وذاقت حرية العقول والرقاب، ومنه عرفت وذاقت العدل على أتم معناه، ومنه عرفت وذاقت المساواة بين العباد فيما هم متساوون فيه، وبهذه الأصول العظيمة أمكن اشتراك أمم كثيرة تحت راية الإسلام في خدمة العلم والمدنية، حتى أزهرت رياضهما، وسمت صروحهما في الشرق والغرب، واغترفت من معينهما أبناء الإنسانية جمعاء. نقلت المدنية الإسلامية أصول المدنيات السابقة نقل الأمين، ونخلتها نخل الناقد البصير، وزادت عليها من نتائج أفكارها وثمار أعمالها ما كان الأساس المتين لمدنية اليوم.

هذا الذي نقوله يعترف به العلماء المنصفون من الغربيين أنفسهم، ويشهد به مثل قانون ابن سينا الذي لا زال يدرس إلى القرن الثامن عشر في جامعاتهم، ومثل مقدمة ابن خلدون التونسي، تلميذ مواطنينا شيوخ تلمسان، واضع علم الاجتماع، المترجمة إلى جميع لغاتهم. كنا نسمع هذا الاعتراف من الأفراد، ولكننا اليوم صرنا نسمعه من الأمم؛ ففي العام الماضي كان احتفال إسبانيا، أمتها وحكومتها، بانقضاء ألف سنة على تأسيس الخلافة الإسلامية في قرطبة، ومعنى ذلك الاعتراف لهذه



الخلافة الإسلامية العربية بفضلها على مدنية اليوم، ورفعها منار العلم والعمران أيام كانت أمم الغرب في همجية عمياء. وفي هذه السنة كان الاحتفال في جامعة ألمانيا ببرلين بذكرى أبي القاسم الزهراوي الأندلسي، الطبيب الجراح الذي لا تزال نظرياته واستنباطاته معتمَداً عليها إلى اليوم. وكان الاحتفال في القاعة الكبرى التي لا يحتفل فيها إلا بأكابر العلماء الذين خدموا الإنسانية خدمة جليلة. ومعنى هذا، الاعتراف لعلماء العرب بخدمة العلم والإنسانية في ظل الإسلام منذ قرون.



فالإسلام الذي جاء به صاحب هذه الذكرى هو أبو المدنية أمس واليوم، وأعني بمدنية اليوم المدنية من جهة العلم والعمران، لا من جهة الأخلاق والاجتماع؛ فهنالك ما يتبرأ منه الإسلام. لا عجب بعد هذا البيان أن نقول إن الإنسانية تشاركنا بالاحتفال في هذا المقام.

ما الداعي إلى إحياء هذه الذكرى؟

المحبة في صاحبها.

إن الشيء يحَب لحسنه أو لإحسانه، وصاحب هذه الذكرى قد جمع على أكمل وجه بينهما؛ فله من الحسن ما كان به أكمل الناس حتى اضطلع بالقيام بأعباء ما جاء به، ويعرف ذلك الكمال مَن درس أي خُلق من أخلاقه وأي يوم من أيامه. وله من الاحسان ما أنقذ به البشرية وكان رحمة خاصة وعامة، وعم الإنسانية جمعاء على ما قدمنا في البيان. فمن الحق والواجب أن يكون هذا النبي الكريم أحب إلينا من أنفسنا وأموالنا ومن الناس أجمعين، ولو لم يقل لنا في حديثه الشريف: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين». وكم فينا من يحبه هذه المحبة ولم يسمع بهذا الحديث؟

فهذه المحبة تدعونا إلى تجديد ذكرى مولده في كل عام.



ما الغاية من تجديد هذه الذكرى؟

استثمار هذه المحبة.

إن محبتنا فيه تجعلنا نحب كل خُلق من أخلاقه، وكل عمل من أعماله؛ ففي ذكريات مولده نذكر من أخلاقه ومن أعماله ما يزيدنا فيه محبة ويحملنا على الاقتداء به؛ فنستثمر تلك المحبة بالهِداية في أنفسنا، ونشرها في غيرنا، تلك الهداية التي لا يسعد العالم سعادة حقة إلا إذا تمسك بها.

ماذا نريد أن نذكر في مجلسنا هذا منها؟

عندما أصلُ إلى هذا المقام، وأقف أمام أخلاقه وأعماله عليه وعلى آله الصلاة والسلام، أجدني أمام ما يتقاصر عنه علمي و يتضاءل أمامه شخصي وأنشد ما قاله شاعرنا العربي:

هو البحر من أي الجهات أتيته ... فلجته المعروف والجود ساحله

ومن أين لعاجز مثلي أن يفي خلقاً من أخلاقه أو عملاً من أعماله حقه من البيان؟

لكنني سأقول على كل حال حسب جهدى، وأقتصر على ذكر خلقين من أخلاقه، أراهما ركنين أساسيين في حياته وفي شريعته وهما: الرحمة، والقوة.

إذا أراد الله تعالى شيئاً هيأ أسبابه؛ فمع علمنا بأن ما كان له ﷺ من الرحمة والقوة هو من العطاء الرباني والفيض الإلهي الذي تقصر عنه وسائل العباد، فإننا لا نمتنع من ذكر ما هيأ الله له من أسباب مناسبة لهذين الخلقين. فمن العبادة الفكرية النظر في صنع الحكيم العليم في ربط الأمور بعضها ببعض واقترانها في الوجود والتقدير. فلنبحث في هذين الخلقين وما هيء لهما من حال مناسب، وما نشأ عنهما من أخلاق فاضلة، وما كان لهما من ثمار محمودة، ومظاهر في حياته وشريعته جليلة جلية؛ لنزداد بصيرة في العلم، وهداية في الاقتداء فنقول:

مبدأ رحمته: كان صلى الله عليه وآله وسلم يتيماً في صغره مات أبوه وهو حمل، وماتت أمه وهو ابن بضع سنوات، فأورثه ذلك اليتم رقة في قلبه، وما كانت كفالة جده ولا عمه ولا حضانة نسائهم بمغنية عن عطف الأم وحنانها، ولا جابرة صدع القلب من فقدها، وهذه الرقة هي فيه أساس الرحمة.

مبدأ قوته: وكان ﷺ ابن بيت عظيم، يشهد مجالس جده عبد المطلب شيبة الحمد وأعمامه من حوله. ويرى هيبتهم ومكانتهم في قومهم، فأورثه ذلك عظمة وعزة نفس: عزة أنفة وإباية، وعظمة شرف وكرم وترفُّع عن الدنايا. ولا ينكر تأثير اسم العائلة وتاريخها ومشاهدة حال أفرادها في أبنائها. وأنا أعرف شخصاً ما قرأ العلم ولا اجتهد فيه في أول أمره إلا لعلمه بأن أجداده كانوا علماء. وهذه العظمة هي أساس القوة.

مظاهر رحمته: كانت رحمته بالمرسل إليهم: ما أدمى ساقه، وشج وجهه وكسرت رباعيته، وهو يقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». وقال تعالى في رحمته بمن أرسل إليهم: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ قاتل ﴿نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ وكان كما قال تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. ورحمة للعالم كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.



مظاهر قوته: كانت قوته لتحمل أعباء الرسالة وتبليغها للخلق، قوة أدبية وقوة حربية. فمن الأولى ثباته في مواقف التبليغ. كقوله لعمه أبي طالب -وقد فهم منه أنه ضعف عن نصره وأنه مسلمه-: «يا عم، والله، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته».

ومن الثانية في ميادين القتال ومواقف البأس كما ولى عنه الناس يوم حنين، وهو يقول راكباً على البغلة التي لا يركبها إلا من لا يفر: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب». معلناً مكانه مظهراً نفسه أمام الأعداء الآتين من كل صوب.



آثار القوة والرحمة في أخلاقه: كان صلى الله عليه وآله وسلم صادقاً أميناً عادلاً معروفاً بهذه الصفات بين قومه قبل نبوته:

الأمانة: هي حفظ الشخص ما استودع. وأول ذلك حفظه نفسه فيثق به الناس في حفظ ما يستودعونه. وقد كانت قريش وهي كافرة به تودع عنده أموالها، ولما خرج مهاجراً ومعه الصديق رضي الله تعالى عنه خلف ابن عمه حيدرة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، لينام على فراشه معرضاً نفسه لسيوف قريش المتآمرين على قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تلك الليلة، وليرد أمانات الناس إليهم، ويلحقه بأهله.

الصدق: هو قول الحق في جميع المواطن، وقد شهد له أبو سفيان وهو إذ ذاك أكبر عدو له في مجلس قيصر بالصدق، سأله قيصر: «هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟». قال (أبو سفيان): «لا». قال قيصر: «قد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله».

العدل: وهو الإنصاف في الحكم. وقد رضيت به قريش حكماً بين كبرائها لما تنازعوا في رفع الحجر الأسود إلى محله أيام جددوا بناء الكعبة. ذلك لما عرفوا من عدله.

والرحمة والقوة أساسان لهاته الأخلاق؛ فمن الرحمة بالنفس وبصاحب الشيء، ومن القوة على النفس وعلى النزعات والعواطف تكون الأمانة، ومن الرحمة بالمظلوم والقوة على الظالم يكون الحكم العادل. فإن القاسي عديم الرحمة لا يبالي بالمظلوم، وأن الضعيف تكسره رهبة الظالم عن الصدع بالحكم ويقصر عن تنفيذه، وضعيف القلب تؤثر عليه المؤثرات حتى مرققات العواطف، ولهذا قال جمهور أئمة الإسلام: إن المرأة لا تصلح للحكم لرقة عواطفها وضعف قلبها. فقد تخدعها الدموع الكواذب، وقد تميل بها عاطفة الحب والقرابة. والصدق وهو من مقتضيات الأمانة لأنه حفظ اللسان لا يقوم به إلا رحيم بالسامعين، يشفق عليهم لا يخدعهم، قوي شجاع لا يبالي في قول الحق بهم.

❁ **اهتمامه بالخلق:** كان هذا العظيم النفس الرقيق القلب، الرجل القوي الرحيم، يرى انحطاط قومه في المعتقد والأخلاق والمجتمع، فتسمو به نفسه العظيمة عن البقاء في تلك البيئة المنحطة والوسط المريض. وتأبى عليه رحمته أن يتركهم فيما هم عليه فكان دائم الاهتمام بهم، دائم التفكير في الطريق الذي يسلكه لإنقاذهم.

❁ **انقباضه عنهم:** كان ينعزل عنهم ويذهب إلى غار حراء الليالي العديدة حاملاً عبء همه غارقاً في تفكيره. ولم يكن اختلاؤه في غار حراء مثل اختلاء متصوفة الهند الذين ينعزل أحدهم عن الناس ويذهب في أودية الخيال لتحصيل حالة نفسية خاصة به يعدها نعيماً روحياً. بل كان اختلاؤه وانعزاله للتفكير في طرق خلاص العالم من الضلال والقيام بخدمة عظيمة عامة للبشر. وشتان ما بين الحالتين.

❁ **نبوته:** جاءه جبريل بالوحي وهداه الله بالنبوة إلى طريق الخلاص، وشرح صدره لما جاءه من الحق، ووضع عنه عبء ذلك الهم الثقيل وبعثه للعالمين بشيراً ونذيراً.

❁ **الرحمة والقوة في شريعته:** ولو تتبعت أصول شريعته وفروعها وآدابها، لوجدتها كلها مبنية على أساس الرحمة والقوة؛ فليس من الإسلام ذلك التماوت وذلك التمسكن الذي يتظاهر به بعض الناس، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقد رأى قوماً من هذا الصنف: «لا تميتوا علينا ديننا أماتكم الله». وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها وقد رأت قوماً يتماوتون في مشيتهم: «من هؤلاء؟» فقيل لها قوم من القراء، فقالت: «لقد كان عمر سيد القراء وكان إذا مشى أسرع، وإذا تكلم أسمع، وإذا ضرب أوجع».

ولو بحثت عن أسباب انتشار المملكة الإسلامية المبنية على الشريعة المحمدية، لوجدت أصل تلك الأسباب هذين الأساسين: الرحمة والقوة. فإن الضعيف مغلوب، وإن القاسي مبغوض، ولا يسود ويحب -كما كان للإسلام- إلا القوى الرحيم.

رزقنا الله القوة في قلوبنا وعقولنا وأرواحنا وأبداننا. وأشعرنا الرحمة بأنفسنا وببعضنا وبغيرنا، إنه القوي المتين، الرحمن الرحيم.

رسول الإسلام

كيف صدّقت أفعاله أقواله؟

السيد سليمان الندوي الحسيني

رحمه الله

كان النبي ﷺ أول من يعمل بما يأمر الناس به، هذه شهادات أقرب الناس إليه ﷺ ممّن خالطوه، وعاشروه، وعرفوا دخائله، وهي تدلّ على أن سيرته الطاهرة كانت أعلى ما تكون عليه سيرة أفضل البشر، ومن أفضل سيرته وأعلاها أنه بعد ما أوحي إليه لم يأمر أتباعه وأصحابه بأمر إلا وقد سبقهم إلى العمل به، فدعا الناس إلى ذكر الله ومحبته.

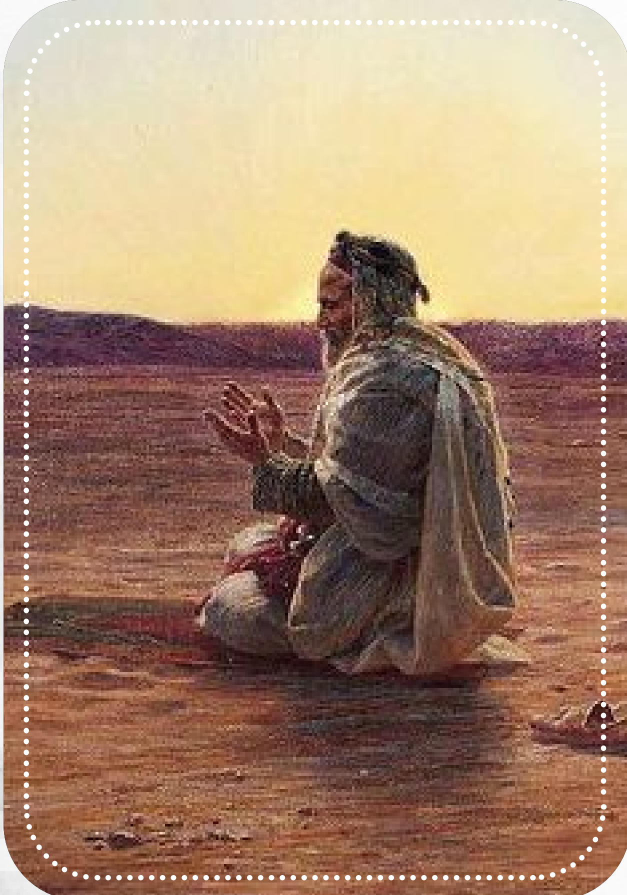
* العلامة السيد سليمان الندوي الحسيني، الرسالة المحمدية، دار ابن كثير- دمشق، ط: ١، ١٤٢٣هـ، ص١٥٣ وما بعدها.

ذِكر الله تعالى

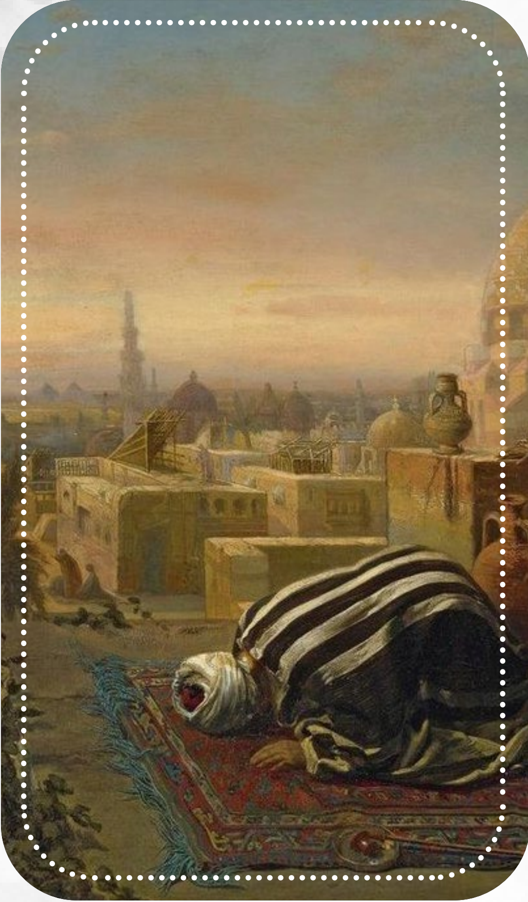
ولو راقبت حياته نفسها لرأيتها ملائمة لهذه الدّعوة؛ لأنه لم تكن تمضي عليه ساعة من نهار أو ليل إلا وهو يذكر الله بقلبه، ويحمده بلسانه، فكان لسانه رطباً بذكر الله، لا يفتر عنه طرفة عين، فإذا أكل، أو شرب ذكر اسم الله، وإذا فرغ من ذلك حمد الله، وإذا أخذ مضجعه أو استيقظ من نومه ذكر الله، وإذا نهض، أو جلس سبّح الله، أو حمده، وإذا لبس جديداً شكر الله، حتى أن أذكاره ودعواته التي حفظها الناس عنه في مختلف الأحوال شغلت فراغاً واسعاً من كتب الحديث، وجمعت في كتاب (الحصن الحصين) الذي يبلغ مئتي صفحة، ومن قرأ هذه الأدعية يقضي العجب؛ ويوقن بأنه ﷺ كان يحب الله، ويخشاه، ويهاب جلاله، فكان كما وصف الله في القرآن عباده الصّالحين ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] وكما شهدت عائشة بأنّه ﷺ كان يذكر الله، ولا يغافل عن ذكره أبداً.

الصلاةَ الصلاةَ

وأمر الناس بالصلاة، وحضّهم على إقامتها والمحافظة عليها أشدّ المحافظة، فماذا تحسبون الرسول كان يعمل في نفسه بما كان يأمر به غيره؟ إنه ﷺ كان يقيم الصلاة، ويحافظ عليها أكثر من غيره، كان المسلمون يقيمون الصلوات المفروضة خمساً. وكان ﷺ يتطوّع بالزيادة على ذلك في صلاة الضحى، وصلاة الإشراق، وصلاة التهجّد، وكان عامة المسلمين يصلون سبع عشرة ركعة المكتوبة عليهم، وكان هو ﷺ يصلي في اليوم والليلة خمسين إلى ستين ركعة من المكتوبة والنوافل. لقد سقطت عن عامة المسلمين فريضة التهجّد بعد ما فرضت عليهم الصلوات الخمس، لكنّ الرسول كان يقوم الليل، ويصلي صلوات



لا تَسَلْ عن حسنهن وطولهن حتى كانت قدماه تتورمان من طول القيام، فقالت له عائشة يوما- وقد رأت ما يعاني ﷺ في قيام الليل-: إن الله قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، فما بالك يا رسول الله! تلقى العناء، وتتعب هذا التعب الشديد؟ فأجابها ﷺ: «أفلا أكون لله عبداً شكوراً»[١].



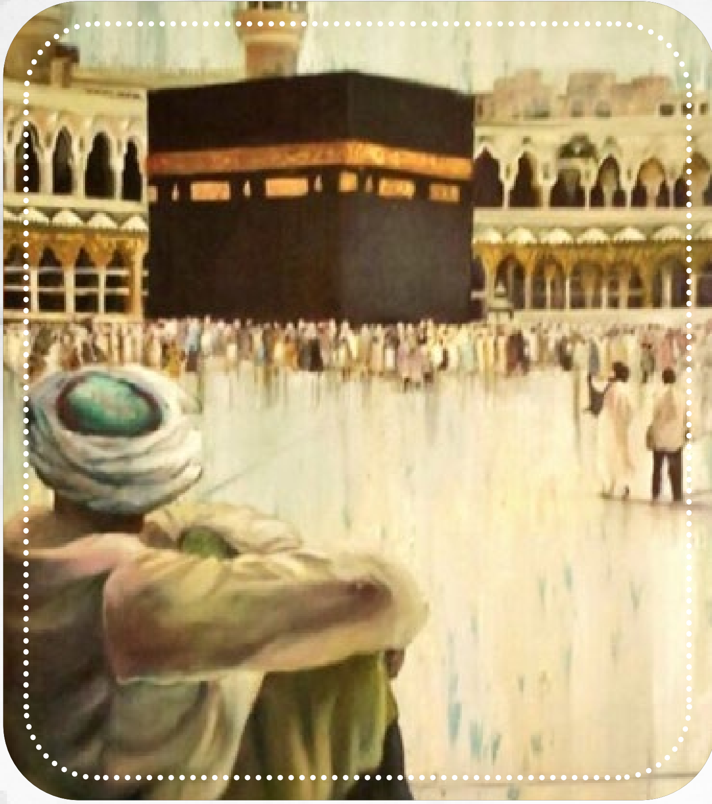
وكان في هذه الصلوات معنى محبة الله أغلب عليه ﷺ من معنى الخوف، فكان يطيل الركوع حتى يخيل إلى من يراقبه أنه ربما قد نسي السجود، وكان يقيم صلاته من بدء الوحي في فناء بيت الله أمام المشركين الذين كانوا يعادونه، ويؤذونه إيذاءً شديداً. وقد هجم عليه بعض المشركين وهو في الصلاة فلم يترك صلاته خوفاً منهم. وكان جنباه يتجافيان عن المضجع، وكان قليلاً من الليل ما يهجع، ويبيت ساجداً أو قائماً والناس نيام، وأشد ما يكون إقام الصلاة حين يلتقي الجمعان في ساحة الحرب، والسيوف مصلتة، والرّماح مشرعة، والقلوب واجفة، ومع ذلك فإنه إذا حان وقت الصلاة صلى منفرداً أو صلّى بأصحابه إماماً. فيتناوب بعضهم الصلاة، وبعضهم الحرب، وإمامهم ثابت في الحالين إلى أن يؤدوا فريضة الله، لا يمنعهم عنها مانع.

أيها القارئ! أحبّ أن أطوي لك من صحائف القرون السالفة ثلاث عشرة ورقة لأعود بك إلى السنة الثانية من الهجرة. فتعال معي تنظر إلى ساحة بدر: هؤلاء مؤمنون، وهؤلاء مشركون، لقد التقى الجمعان، واشتد القتال بين المشركين والمؤمنين، وحمي وطيس الحرب، أين هو الرسول يا ترى؟ هاهو ذا ساجد بين يدي رب العالمين، يدعوه ويسأله النصر المبين بقلب ذاكر، ولسان بالدعاء ناطق، وناصية لعظمة الله ساجدة على الأرض، لقد أقام الصلاة لأوقاتها، ولم يؤخرها إلا مرتين: فقد فاتته مرّة في غزوة الخندق حين تألب عليه المشركون واليهود، ولم يمهلوه حتى يؤديها في وقتها، ومرّة أدلج الليل بطوله، ثم غفا غفوة هو وأصحابه،

---

١. البخاري (١٥٢) ومسلم (٣٧٧).

فطلعت عليهم الشمس، ولم يستيقظوا حتى أيقظتهم بأشعتها، فقضى ما فاته من الصّلاة، ثم لم تفته ﷺ حتى في مرضه الذي توفي فيه، بل قد اشتدّ به المرض، ووهنت قوته، فخرج مع ذلك متهادياً بين رجلين من حجرته إلى أن بلغ المسجد، وصلّى مع الجماعة، وقد غشي عليه ثلاث مرات قبل وفاته بثلاثة أيام، فكان كلما همّ أن يذهب إلى المسجد غشي عليه، ففاتته الصلاة مع الجماعة، هذا ما كان عليه الرسول من عبادة الله وذكره، وهذا ما تركه خلفه لمن يتأسون به في عبادته، وذكره لله عز وجل.



يصوم حتى يُظن أنه لا يفطر

وأمر المسلمين بالصوم، وليس على المسلمين إلا صوم رمضان، ولكن ما ظنّكم بالرسول ﷺ وصومه؟ إنه قلّما يمرّ به شهر، أو أسبوع من شهر إلا كان يصوم فيه، تقول عائشة: كان ﷺ يصوم حتّى يظنّ أنّه لن يفطر[٢]. ونهى المسلمين عن صوم الوصال، لكنه يواصل الصوم يومين بل ثلاثة أيام متوالية، لا يأكل فيهن، ولا يشرب، وذلك الذي يقال له صوم الوصال. وكان بعض الصحابة يحبّ أن يقتدي به في ذلك، فيقول ﷺ: «لست كأحدكم، أيّكم مثلي إنّ ربّي يطعمني ويسقيني»[٣]. وربما كان يصوم شهرين متواليين: شعبان ورمضان. وكثيرا ما كان يصوم الأيام البيض (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) من كلّ شهر، وكان يصوم ستّا من شوال، ويوم عاشوراء من المحرم، وكثيراً ما كان يصوم يوم السبت ويوم الخميس من كلّ أسبوع، كذلك كان دأبه وهديه في الصّوم.

---

٢. البخاري (١٩٦٩).

٣. البخاري (١٩٦١).

وتكسب المعدوم



وأمر المسلمين بإيتاء الزّكاة، وإنفاق المال في الخير، لكنّه بدأ ذلك بنفسه. وقد علمت شهادة أم المؤمنين خديجة له في ذلك يوم قالت له: إنك تحمل الكل، وتعين على نوائب الحق، وتكسب المعدوم، إنه لم يأمر الناس بأن يتبعوه في ترك الدّنيا، ولم يقل لهم ضحّوا بكل ما في أيديكم من أموال، ولم يخبرهم بأنّ ملكوت السّماوات موصدة أبوابه في وجوه الأغنياء، وإنما الذي أوصاهم به أن يتصدقوا ببعض أموالهم كما قال الله عز وجل: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

هذا بينما رسول الله نفسه لم يكن يدّخر من المال شيئاً في بيته، بل كان ينفق في سبيل الله جميع ما كان يملكه، ولم يكن قليلاً ما كان يأتيه من خمس الغنائم من ذهب، وفضة، ومتاع، وغيره من عَرَض الدنيا، فكان يخرج عنه كله لغيره من الفقراء والمساكين، ولم يكن يتمتّع هو ولا أهل بيته بمتع الحياة الدنيا، فكان حظه وحظّ أهل بيته من الدنيا الفقر والتعفف، وكان من سنته بعد أن فتحت أرض خيبر أن يوزّع على أزواجه من الطعام والحبوب ما يكفيهم عاماً، لكنه قبل أن ينقضي العام كان ينفد ما وزعه على أزواجه، فيمسهم الجوع والسغب[٤]؛ لأنه كان ينفق على المحتاجين وعلى الضيوف مما يجده في بيوت أزواجه، يقول عبد الله بن عباس: إنّ رسول الله ﷺ كان أسخانا وأجودنا، وهو أسخى ما يكون في شهر رمضان، ولم يقل لسائل: «لا» قطّ طول حياته، ولم يأكل شيئاً وحده مهما كان قليلاً، بل يشرك فيه أصحابه، وقد آذن الناس أن «من مات وعليه دين فدينه عليّ أقضيه عنه، وما ترك من ميراث فميراثه لورثته».

---

٤. السغب: الجوع مع التعب.

جاءه يوما أعرابيّ، فقال: يا محمد! إن هذا المال ليس لك ولا لأبيك، فأوقر منه جملي، فحمله رسول الله ﷺ من الشعير والتمر، ولم يسخط عليه ما أغلظه من القول، ثم قال: إنما أنا قاسم، وخازن، والله هو المعطي. يقول أبو ذر: كنت يوماً أمشي مع رسول الله ﷺ في حرّة المدينة، فاستقبلنا جبل أحد، فقال: «أبا ذر!» قلت: لبيك يا رسول الله! قال: «ما يسرّني أنّ عندي مثل أحد ذهباً تمضي عليّ ثلاث ليال، وعندي منه دينار، إلا شيء أرصده لدَين»[٥].



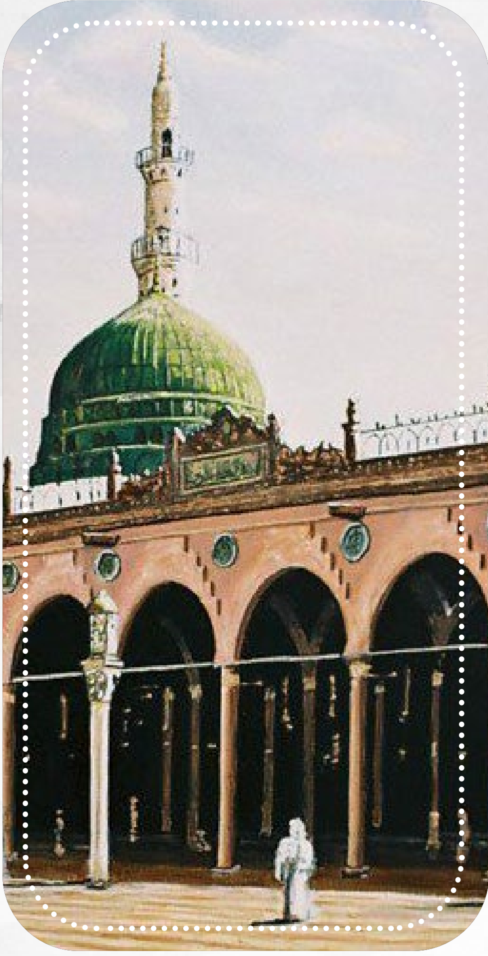
إخواني! لا تحسبوا أن ما قاله ﷺ إنما هو كلمات عذبة، وألفاظ يتجمّل بها، بل قال ما قاله عن عزيمة، ولم يظهر للناس إلا ما كان يكنّه صدره، ويعمل به مدّة حياته، جاءه مرة من البحرين ذهب، وفضّة، وأموال جمّة، فأمر بوضع ذلك كله في فناء المسجد، ثم غدا على الناس يصلي بهم الصبح دون أن تقع عينه على ذلك المال في الجهة التي وضع فيها، فلما انصرف من الصلاة دعا الناس، وطفق يوزع المال عليهم حتى فرغ منه، فقام ينفض يديه وثوبه لئلا يكون علق بثوبه الطاهر شيء من غبار ذلك المال.

وجاءه من فدك أربعة جمال موقرة بالطعام، فقضى به بعض ديونه، وآتى منه بعض الناس، ثم سأل بلالاً: هل بقي من ذلك الطعام شيء؟ فأجابه بلال: لقد بقي منه شيء وليس هاهنا من يأخذه. فقال ﷺ: لا أُدخل بيتي ما بقي منه شيء. وبات تلك الليلة في المسجد، فلما أصبح بشره بلال قائلاً: إنّ الله قد وضع عنك. يعني: أنّ بقية الطعام قد قسمت ولم يبق منه شيء، فشكر الله.

ودخل بيته ذات يوم بعد صلاة العصر على غير عادته، ولم يلبث أن خرج منه فاستغرب الناس ذلك، فقال لهم: إني تذكّرت في الصلاة أن في بيتي شذرة من الذهب فخشيت أن يجيء الليل وهي في بيت محمد.

٥. مسلم (٢٣٠٢).

ودخل بيته ذات يوم حزيناً كئيباً، فسُئل عن ذلك، فقال: يا أمّ سلمة! إنّ ما جاءنا من الدنانير السبعة قد بقي في الفراش، وقد حان المساء.



وممّا يدلّ على زهده ﷺ في الدّنيا ومتاعها أنّ الرسول ﷺ مرض مرضه الذي توفي فيه، وكان يتقلب على فراشه من شدّة المرض، فتذكر وهو في هذه الحالة أنّ في بيته دنانير، فأمر أن يتصدّق بها، وقال: أيلقى محمد ربه وقد خلف في بيته دنانير؟!

فهذا ما كان عليه ﷺ في حياته من إنفاق المال والصّدقة.

لم يطو ثوبه أبداً

لقد رغّب محمد رسول الله ﷺ في الآخرة، وزهّد في الدّنيا، وحثّ على القناعة بالقليل منها، والكفاف من العيش، فلننظر إلى عيشه كيف كان يعيش ويحيا، لقد علمتم أنّ الله بسط على المسلمين الدّنيا، ووسع في أرزاقهم، فكانت تجبى إليه الأموال من الخراج، والعشر، والجزية، والزكاة، والصدقات، وكانت قوافل الإبل تحمل الطعام والمال إلى المدينة، أمّا رسول الله ﷺ فلم يكن له حظّ من تلك الأموال الكثيرة، وكان أهل بيته في ضنك وكفاف، تقول عائشة رضي الله عنها: توفّي رسول الله ﷺ ولم يشبع يومين متواليين[٦].

وتقول: لم يكن في بيته يوم التحق ﷺ بالرّفيق الأعلى سوى صاع واحد من شعير، وكانت درعه مرهونة عند يهوديّ بصاع من شعير، كان الرّسول ﷺ يقول: «ما لابن آدم من دنياه غير بيت يأوي إليه، وثوب يلبسه، وخبز جافّ يأكله، وماء يشربه»[٧].

---

٦. رواه البخاري (٣٠٩٧) و(٤٤٦٧).

٧. رواه الترمذي (٢٣٤١) وقال: حديث حسن صحيح.

ولم ينطق ﷺ بهذه الكلمات في الزهد بالدّنيا إلا وقد رضي لنفسه بهذا القدر، وعمل به طول حياته، ولم يمدّ عينيه إلى زهرة الدنيا وزينتها، فكانت له حجرة مطينة غير مشيدة جدرانها، وكان سقفها من الخوص والوبر. تقول عائشة: لم يطو ثوبه أبداً. تعني أنه لم يكن له ثوب آخر غير الذي على جسده الطّاهر.

جاءه مرة سائل يشكو الجوع الشديد، فأرسل إلى أزواجه يطلب للسائل طعاماً من بيوتهن، فلم يجد عند إحداهن شيئاً غير الماء. ويقول طلحة: رأيت رسول الله ﷺ يوما مضطجعاً على فرش المسجد، يتململ من الجوع، وشكا إليه بعض الصحابة الجوع ذات مرة وكشفوا عن بطونهم، فإذا حجر قد شدّه كلّ واحد على بطنه، وأراهم ﷺ بطنه، وقد شدّ عليه حجرين، وكان صوته ﷺ يضعف أحياناً من شدة الجوع، وذهب مرّة إلى بيت صاحبه أبي أيوب الأنصاري وهو جائع، فصنع له أبو أيوب طعاما، وقطف له بعض الرّطب من حديقته، فلما قدم إليه الطعام أخذ منه خبزاً ووضع عليه شيئاً من اللحم، وقال: ابعثوا به إلى فاطمة، فإنها لم تأكل شيئاً منذ أيام.

وكان يحبّ بنته وسبطيه حباً جماً، غير أنّ حبّه لهم لم يحمله على أن يكسوهم لباساً ناعماً، أو يحلي بنته حلية ثمينة، ورأى فاطمة قد لبست ذات يوم قلادة من الذهب جاءها بها زوجها عليّ كرّم الله وجهه، فقال ﷺ لها: يا فاطمة أتحبين أن يقال إن بنت محمد قد لبست طوقاً من نار؟ فنزعت تلك القلادة من عنقها، واشترت بثمنها عبداً وأعتقته، ورأى عائشة قد لبست سوارين من ذهب، فأمرها أن تنزعهما، فنزعتهما حين قال لها: هذا لا ينبغي لآل محمد، وكان يقول: يكفي الإنسان من الدّنيا ما يتزود به الغريب في سفره.

هذا قوله، أما عمله فيدلّ عليه ما روي أنّ أحد الصحابة دخل عليه فرآه قد أثر الحصير في جسمه الشريف، فقال: ألا نهدي إليك فراشاً وثيراً؟ فأجابه: مالي ولدنياكم، ليس لي إليها حاجة إلا كما يستظلّ الراكب في طريقه؛ ليستريح ساعة من نهار، ثم يمضي قدماً.

وفي السنة التاسعة للهجرة وكانت رقعة الدولة الإسلامية قد امتدّت إلى اليمن، والشام، ولا ينفذ فيها إلا أمره، حتى أنّه لم يكن يملك إلا إزاراً وسريراً خشناً، لا فرش له، ووسادة حشوها ليف، وقليلاً من الشعير، وجلد حيوان في ناحية من البيت، وقربة ماء معلقة على وتد، فإذا كان ذلك هو تزهيده الناس في الدنيا، فهذا هو عمله الذي رأيتم.

غيثٌ.. أصاب أرضاً

•• قصيدة ••





الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي*

رحمه الله

نظم الشيخ العلامة عبد الرحمن ناصر السعدي رحمه الله قصيدة في شرح حديث النبي ﷺ:

«إنَّ مَثَلَ ما بعثَنِي اللّٰهُ به مِنَ الهدَى والعلمِ كَمَثَلِ غيثٍ أصابَ أرْضًا فكانت منها طائفةٌ طيِّبةٌ، قبِلتْ الماءَ فأنْبَتَتْ الكَلأَ والعُشْبَ الكثيرَ، وكان منها أجادِبُ أمسَكتِ الماءَ، فنفعَ اللّٰهُ بها النَّاسَ فشَرِبوا منها وسَقَوا وزَرَعُوا. وأصَابَ طائِفةً منَّا أخرَى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمسِك ماءً ولا تُنبِتُ كلًا. فذلك مثل مَنْ فقِه في دينِ اللّٰهِ، ونفَعه بما بعثَني اللّٰهُ به، فعَلِمَ وعلَّم، ومثل مَنْ لم يَرفَعْ بذلك رأسًا، ولم يقبلْ هُدَى اللّٰهِ الَّذي أُرْسِلتُ بِهِ»[1].

---

* مجموع مؤلفات الشيخ السعدي ٢٦/ ١٨٧ وما بعدها.

١. متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري

فقال رحمه الله يحث على طلب العلم:

قد طال شوقي إلى الأحباب والفكر •• وقد عراني لذاك الهم والسهرُ
وكم يجيش الهوى قلبي فيتركني •• لا أستفيق لما آتي وما أذرُ
وكم نصيح أتى يوماً ليعذلني •• فصار يعذرني فيهم ويعتذرُ
يا لائمي في الهوى صعباً أضر به •• طول البعاد عن الأحباب مذ هجروا
فبات يرعى الدراري من تشوقه •• قد بات منه الحشا والقلب ينفطرُ
لو كنتَ تدري الهوى أو قد بُليتَ به •• وذقت آلامه كالنار تستعرُ
لما نطقت ولم ينطق بلائمة •• لوم المحبين ذنب ليس يغتفرُ
دع عنك ذكر الهوى والمولعين به •• وانهض إلى منزل عالٍ به الدررُ
تسلو بمرباه عن كل غالية •• وعن نعيم لدنيا صفوه كدرُ
وعن نديم به يلهو مجالسه •• وعن رياض كساها النور والزهرُ
انهض إلى العلم في جد بلا كسل •• نهوض عبد إلى الخيرات يبتدرُ
واصبر على نيله صبر المجد له •• فليس يدركه من ليس يصطبرُ
فكم نصوص أتت تثني وتمدحه •• للطالبين بها معنى ومعتبرُ
أما نفى الله بين العالمين به •• والجاهلين مساواة إذا ذكروا
وقال للمصطفى معْ ما حباه به •• ازدد من العلم في علم به بصرُ
وخصص الله أهل العلم يشهدهم •• على العبادة والتوحيد فاعتبروا
وذم خالقنا للجاهلين به •• في ضمنه مدح أهل العلم منحصر
وفي الحديث إن يرد رب الورى كرما •• بعبده الخير والمخلوق مفتقرُ
أعطاه فقهاً بدين الله يحمله •• يا حبذا نعماً تأتي وتنتظرُ
أما سمعت مثالاً يستضاء به •• ويستفز ذوي الألباب إن نظروا

بأن علم الهدى كالغيث ينزله •• على القلوب فمنها الصفو والكدرُ

أما الرياض التي طابت فقد حسنت •• منها الربى بنبات كله نضرُ

فأصبح الخلق والأنعام راتعة •• بكل زوج بهيج ليس ينحصرُ

وبعضها سبخ ليست بقابلة •• إنبات عشب به نفع ولا ضررُ

يكفيك بالعلم فضلاً أن صاحبه •• بالعز نال العلا والخير ينتظرُ

يكفيك بالجهل قبحاً أن صاحبه •• ينفيه عن نفسه والعلم يبتكرُ

يكفيك بالجهل قبحاً أن صاحبه •• قد آثر المطلب الأدنى ويفتخرُ

أي المفاخر ترضى أن تزان بها •• أجهلك النفس جهلاً ما له قدرُ

أم بالجهالة منك في شريعته •• كيف الصلاة وكيف الصوم والطهرُ

أم كيف تعقد عقداً نافذاً أبداً •• كيف الطلاق وكيف العتق يا غدرُ

أم افتخارك بالجهل البسيط نِعَم •• وبالمركب لا تبقي ولا تذرُ

تباً لعقل رزين قد أحاط به •• مع الجهالة شين الذنب والغررُ

كم بين من هو كسلان أخو ملل •• فما له عن ضياع الوقت مزدجرُ

قد استلان فراش العجز مرتفقاً •• حتى أتى المضعفات الشيب والكبرُ

وبين من هو ذو شوق أخو كلف •• على العلوم فلا يبدو له الضجرُ

يرعى التقي ويرعى من تحفظه •• أوقاته عن ضياع كله ضررُ

لا يستريح ولا يلوي أعنته •• عن الوصول إلى مطلوبه وطرُ

تلفيه طوراً على كتب يطالعها •• يحلو له من جناها ما حوى الفكرُ

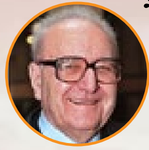
تلهيه عن روضة غناء مزهرة •• أطيارها غردت والماء منهمرُ

وباحثاً تارة مع كل منتسب •• يبغي الرشاد فلا يطغى ويحتقرُ

واهاً له رجلاً فرداً محاسنه •• بالحزم والعزم هاك الصعب والعسرُ

التسامي والأمة

في دعوة الرسول ﷺ



الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي*

رحمه الله

في زمن ظهور الرسول ﷺ كانت هناك وثنيات متعددة الآلهة وطقوسية يهودية جافة وطوائفية مسيحية. وكانت هذه الأيدولوجيات المتباينة جميعها والمتناقضة والمنفصلة عن الحياة تُفاقم التفكك الاجتماعي. عندئذ كشف الرسول عن عقيدة بسيطة وقوية أعادت الروح لمجتمع جديد.

* روجيه جارودي، وعود الإسلام، ص٣٠ وما بعدها، ترجمة: ذوقان قرقوط، ط: مدبولي- القاهرة/ دار الرقي- بيروت، ط٢، ١٩٨٥م. باختصار يسير.

لم يدّعِ ﷺ أنه يؤسس ديناً، بل جاء ليرشد الناس -بوحي من الله- إلى أن يتذكروا من جديد العقيدة الأصلية، عقيدة إبراهيم[1]. أعني ألا نعبد إلا إلهاً واحداً، وأن ننبذ إذنْ المعتقدات الباطلة الطفيلية والطقوس التي لا حياة فيها...



إن الله أكبر من أعظم الملوك، وإليه وحده يُدان بالإجلال المطلق، فها هنا مبدأ بحق لا يجوز التصرف فيه... وعندما توجه ﷺ إلى صحابته بالكلام لآخر مرة بمكة (حجة الوداع في آذار ٦٣٢) ألحّ محمد ﷺ على المساواة بين جميع الناس أمام الله، دون تمييز في الأصل والغنى أو الدم كما جاء في القرآن: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وثمة توكيد بنفس القدر من الراديكالية والتشدد على التسامي، كان يعطي أساساً جديداً بصورة جوهرية للجماعة.. للأمة؛ فالتسامي والأمة هما المحوران المتجاذبان اللذان لا يتجزآن في رسالة النبي.

فالله وحيد وهو حقيقة واحدة. وهذه هي الشهادة، المبدأ والقاعدة لإعلان الإيمان.

والمسلَّمة الثانية فيه، وهي أن محمداً رسول الله، تشير إلى حركة الأوبة، ذلك أن محمداً هو القدوة نفسها لكل حقيقة ينظر إليها كوحي وإشارة من الله. فالقرآن هو الله في بلاغه للناس، متوجهاً إليهم بالكلام الذي يوحيه إلى الرسول من أجل ربطهم بمصدرهم...

هذا الوحي بالتوحيد الذي يعطي لكلٍّ حياةً. ولكل شيء معنى، بالنسبة لعلاقته بالكل، ليس توحيداً جامداً... التوحيد هو فعل، فعل من الله دائم الخلق، فعل من النبي الذي بكلامه الموحى من الله يكون ليس وحدة أو جملة ولكن فعل توحيد، فعل تجميع، فعل لكل إنسان يعي أنه ليس ثمة إلهي حقيقي إلا

١. القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ١٣٥: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ويتردد ذلك في مناسبات عديدة وبخاصة في سورة آل عمران آية ٦٧ وآية ٩٥، وفي سورة الأنعام الآية ١٦١، وفي سورة النحل الآية ١٣٠ والآية ١٢٣.

الله، وأنه في كل لحظة يربط كل شيء وكل حادث وكل عمل بمبدئه.



وليس في الوسع فهم توسع وإشعاع الإسلام ولا حاليته اليوم دون أن نلفت النظر إلى وجهين أساسيين تجلياً منذ ظهور النبي ﷺ:

قبل كل شيء إن التوحيد هو عمل يدل على سخف اعتبار الإسلام كما لو كان يقود إلى الجبرية، إنه يقدم على العكس، الأساس الأصلب لمسؤولية الإنسان وحريته؛ فاسم «الإسلام» نفسه يعني الـ«تسليم».. الامتثال للإرادة الإلهية، وعليه فإن كل شيء في تصوره للتوحيد، للكل، يكون «مسلماً». فمثلاً: الشجرة في إزهارها، الحيوان في نموه، الحجر في جماديته، لكن هذا التسليم لا يتعلق بها، فليس في مُكنتها الإفلات من القانون الذي يحكمها. فالإنسان وحده يستطيع «نسيان» طبيعته الحقيقية: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ كما قيل له في القرآن [سورة طه: ١٢٦]. فهو يصبح مسلماً إذن بالاختيار، وذلك بتذكره الشريعة الأولى، شريعة التوحيد التي تعطي معنى لحياته. وهو مسؤول مسؤولية تامة بما أنه يملك إمكانية الرفض.

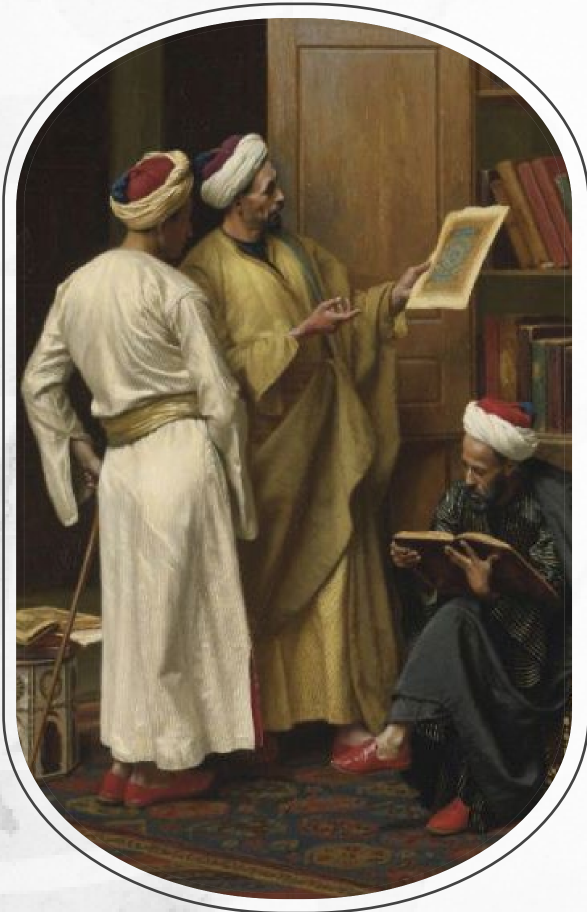
من جهة أخرى سوف يكون غريباً اعتبار عقيدة قادت المسلمين في غضون ثلاثة أرباع القرن إلى تجديد أربع حضارات كبرى وإلى الإشعاع على نصف العالم عقيدة قدرية منقادة. إنها الديناميية في الفكر والعمل، عكس القدرية، لذلك قد اقتادت ملايين الناس إلى التأكد من أنه كان يمكنهم أن يعيشوا على نحو آخر.

الملاحظة الثانية تنصب على وجه الدقة على هذا النهج الجديد للحياة: إذا كان الإسلام تمكن من الانتشار بمثل هذه المقدرة وبهذه السرعة بادئ ذي بدء في بلاد العرب ثم من المحيط الأطلنطي إلى بحر الصين، فذلك لأنه كان يحدد معنى الحياة لدى شعوب ضلت الطريق بتفكك مجتمعاتها وثقافاتها وعقيدتها.

في مبدأ جميع تلك التجديدات كانت هناك هذه الإرادة باستعادة عقيدة أصلية: هي عقيدة إبراهيم، العقيدة التي كانت تترجم إلى أفعال تخضع إلى أمور نسبية.. مراتب البشر وثرواتهم وحكمهم، وتبذل جهدها في تحقيق المشروع الإلهي.

كان القرآن يعترف بصدق أنبياء التوراة على أنهم رسل لله نفسه، شرائع موسى وإنجيل يسوع كانت كلام الله. وقد أوصى القرآن بأهل الكتاب من اليهود والنصارى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦]. فكل وحي، كل «تنزيل» من تلك التنزيلات النبوية هو حلقة من سلسلة من نفس الحقيقة الإلهية، حتى لو كانت الرسالة حُرفت، فالمسلم يكرم إبراهيم وموسى وعيسى (حتى أنه يوجد في بلاد الإسلام مساجد يطلق عليها اسم «مريم» وفي ليبيا في عهد العقيد القذافي يُحتفل بعيد الميلاد كما تُكرم مريم العذراء).

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٣٦].



ولن يكون في الوسع إقامة حوار صحيح إذا لم نعترف بأن في القرآن (أياً كان رأي غير المسلم في مصدره) وميض من الإله. حتى عبدة الأصنام، المترددون إلى الكعبة في مكة للحج، اكتشفوا فيما وراء آلهتهم، عقيدة تدمجهم في العام وتعطي حياتهم وكل شيء معنى، وشرعة لعملهم.

وما من أحد كان لديه الإحساس، وهو يستقبل رسالة النبي، بأن ينكر وجوده الشخصي بل على العكس، كان يكتشف من جديد، تحت ركام الأوهام والطقوس والمعتقدات، فيما وراء الكهنة المدعين أنهم يلقنون العقيدة ويقومون مقام الله، كأنهم حائزون على الحقيقة، عقيدة ونهجاً يعيدان إليهم الأمل المجاهد بتغيير العالم.



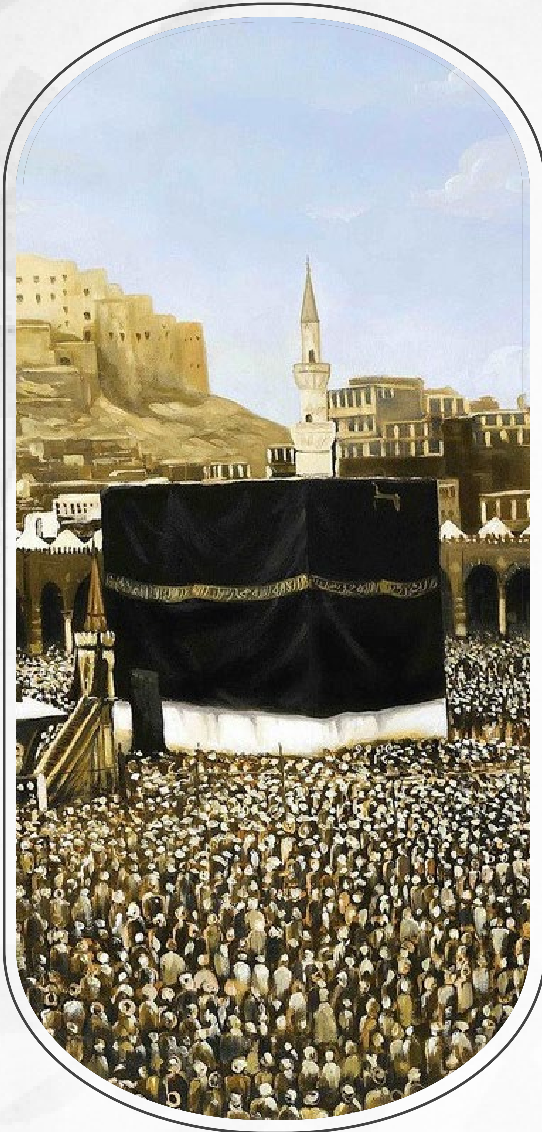
لم يعد هناك وسطاء، أعني كهنة ينصبون أنفسهم أدوات لثيوقراطية باطلة، كما لم يعد هناك ملوك أو أمراء يزعمون أنهم نواب الله على الأرض ما دام أن الله نفسه يوحي بشرائعه. بعد الآن ما من أحد يستطيع اغتصاب المقدس.

إنها عقيدة تربط الإنسان بأصله وبغايته معاً، وتعطي معنى لحياته انطلاقاً من «أركان» الإسلام الخمس:

١ **الجهر بالعقيدة:** الذي سبقت الإشارة إليه، الشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فالكون بأكمله على هذا النحو يتخذ معنى... ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة الإسراء: ٤٤].

٢ **الصلاة:** وهي المشاركة الواعية من الإنسان بهذا التسبيح الذي يربط كل مخلوق بخالقه...

إن الصلاة تريح المؤمن بهذه العبادة الشاملة: فبالقيام بها، وقد ولوا وجوههم شطر مكة، يندمج المسلمون جميعهم وجميع المساجد التي تشير وجهة المحراب في كل منها إلى اتجاه الكعبة، بدوائر متحدة المركز، بهذا الانجذاب الواسع للقلوب الهافية نحو مركزها. والوضوء، يرمز إلى عودة الإنسان إلى الطهارة الأصلية، مستبعداً منه بهذا الاغتسال كل ما يمكن أن يشوب بأي كدر صورة الله، وبهذا يصبح مرآته الصادقة.



٣ **الصوم:** وهو إيقاف طوعي للايقاع الحياتي، توكيد حرية الإنسان بالنسبة لـ«أنا» ولرغباتها وفي نفس الوقت، هو التذكير بوجود من هو جائع فينا، كما لو كان تذكيراً بذات أخرى يجب الإسهام بانتزاعها من البؤس والموت.

٤ **الزكاة:** ليست تسولاً، بل ضرباً من العدالة الداخلية، أُعطيتْ صيغة المؤسسة، وهي إلزامية تجعل تضامن المؤمنين فعالاً، أعني أولئك الذين يعرفون التغلب في أنفسهم على الأنانية وعلى البخل. والزكاة هي التذكير الدائم بأن كل غِنى لله، شأن كل شيء، وإن الفرد لا يمكنه أن يتصرف فيه على هواه وأن كل إنسان هو عضو في جماعة.

٥ **الحج:** إلى مكة، بيت الله الحرام، لا يجسم الحقيقة العالمية للأمة الإسلامية فحسب، بل إنه يحيي في داخل كل حاج الرحلة الداخلية نحو مركز ذاته.

فالمسألة المركزية في الإسلام، في جميع مظاهره، هي هذه الحركة المزدوجة من مد الإنسان نحو الله، وعودة الله إلى الإنسان، انبساطاً وانقباضاً في قلب المسلم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٥٦].

مجتمع المدينة

ترتكز هذه الطريقة في تصور حياة التسامي والعقيدة على شكل جديد من الحياة الاجتماعية ظهرت سماتها الأساسية في المدينة؛ فقد أعطى النبي، حقيقة، عندما أصبح المؤسس لدولة في المدينة عام ٦٢٢ المثل الأول لجماعة من نموذج لم يكن يُعرف حتى ذلك الحين؛ فهي ليست بعد الجماعة القبلية، المتحدة بروابط الدم لدى البدو الرحل أو المقيدة بالأرض لدى الحضريين. كذلك ليست «أمة» بالمعنى الغربي للعبارة، مرتكزة

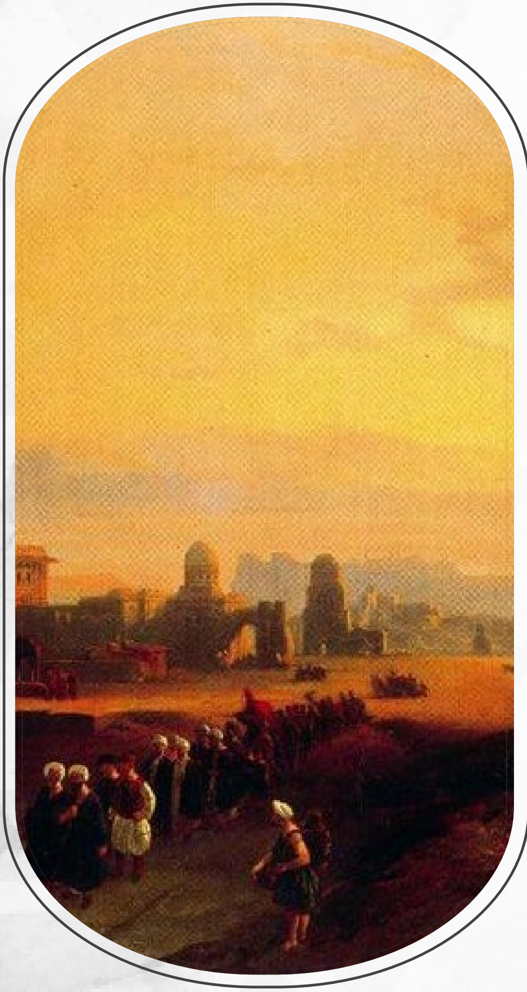
على وحدة أرض وطن، وسوق ولغة أو تاريخ، أعني على معطيات كالعرق والجغرافيا أو التاريخ -وبالتالي على الماضي- ولكن مجتمع نبوي مبني على تجربة مشتركة من تعاليم الله.

إن التأمل في مجتمع المدينة يتيح استخلاص القاسم المشترك بين جميع المجتمعات الإسلامية التي تريد أن تكون أمينة بصورة صحيحة على تعاليم النبي.

قبل كل شيء فيما يتعلق بالسلطة السياسية. بفصل مبدأي الإسلام الأساسيين - مبدأ السلطة لله وحده وهو الذي يجعل كل سيادة اجتماعية نسبية، ومبدأ ال»استشارة»، «الشورى»، الذي يستبعد أية وساطة بين الله والشعب، يُزال في آن واحد أي استبداد مطلق يضفي القداسة على السلطة ويصبو إلى أن يجعل من القائد إلهاً على الأرض، وأية «ديموقراطية» من النموذج الغربي، أعني الديموقراطية الفردانية، الكمية، الإحصائية، المفوضة، المستلبة. ذلك أن الحرية ليست نفياً ولا عزلة، لكنها إنجاز للإرادة الإلهية.

وفيما يتعلق بالملكية: إذا كانت كل ملكية هي ملك لله، وأن كل إنسان لا ينال منها بعمله إلا حق الانتفاع، فإن التصور القرآني والنبوي للملكية هو العكس نفسه للتصور الغربي والبورجوازي.

ففي الحق الإسلامي، ليست الملكية خاصية من صفات الفرد ولا من صفات الجماعة، وإنما هي وظيفة اجتماعية، مرتبة لتلبية مقتضيات الإرادة الإلهية في ال»أمر بالمعروف».



أليس التسامي والجماعة هما الإسهام الذي يستطيع الإسلام اليوم أن يقدمه لخلق مستقبل بوجه إنساني، في عالم استبعد السمو منه ودمر الجماعية بالفردية وشهد سيطرة نموذج جنوني من النمو. الوضع الراهن لا يمكن أن يعاش، ومستحيلة في الثورات من النموذج الغربي.


كان جان جاك روسو، في عقده الاجتماعي يستند إلى تصور مجرد للفرد، ولم يكن يستطيع في النهاية تخيل الاندماج الاجتماعي إلا من خلال أسطورة «إرادة عامة»، ظهرت أشكالها التاريخية الملموسة عبر البرلمانات والأحزاب، كل ما كانت تنطوي عليه من تفويض بالسلطة واستلاب لها، لإعطاء صورة ممسوخة عن الـ»ديمواقراطية»، إذ أصبحت مشاركة الشعب في السلطة تصوراً وهمياً ومخاتلة.

وكان الأمر على هذا النحو بالنسبة للملكية: فلقد قاده تعريفها الفرداني الروماني والبورجوازي إلى نظرية الـ»صالح العام» المزعومة، القائلة بأنه إذا جد كل واحد في نيل مصلحته الشخصية فإن الصالح العام سوف يتحقق. وكان لابد من انقضاء قرنين من الاضطرابات الاجتماعية التي ولدت هذه «الليبرالية الاقتصادية» التي لم تتفق، لتفضح هذه الغربة الاقتصادية عن «الصالح العام»، وكذلك الغربة السياسية عن «الإرادة العامة»؛ فإن التجارب الموصوفة بالـ»اشتراكية» التي أحلت محل هذه الأساطير أسطورة «حزب» عالم بكل شيء ومرسل من العناية الإلهية، الذي سوف تمثل فيه بدوره باسم طبقة يقال إنها رسولة المستقبل ولكنها لم تستشر أبداً تلك «الإرادة العامة» أو ذلك «الصالح العام».. قد قادت إلى طرق مسدودة أخرى.


إننا لا نسعى مطلقاً إلى اعتبار جميع منجزات المجتمعات الإسلامية التاريخية مثالية؛ بل نعتقد أن نشدان استنباط تشريع صالح لجميع الأزمنة وجميع الشعوب من نص منزّل، ينكشف عن نزعة تمامية ضارة. ألم يرد في القرآن ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (سورة يونس: ٤٧) وبصورة أكثر دقة أيضاً: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

واليوم إذا لم يتجمد الإسلام في ماضيه وإنما عرف كيف يحل مشكلات عصرنا بروح مجتمع المدينة، متذكراً أن البقاء على الإخلاص للأجداد لا يكون بنقل الرماد من موقدهم، وفقاً لتعبير جوريس، بل الشعلة، وأن النهر باتجاهه إلى البحر وفياً لمنبعه= إذن لاستطاع أن يشق لنفسه، ليس فحسب من أجل المسلمين وإنما بصورة شاملة، آفاق اشتراكية لا تشلها قط العلموية الوضعية ولا الفردانية الغربية، وإنما تخصبها القيم الأساسية التي سبق لها أن ابتعثت مجتمع المدينة ببزوغ شعلة الأمل: التسامي والمجتمع.

مساحة إعلانية

الصادعون بالحق

﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾

من إنتاج علمائنا الأسرى

رضيتُ بمحمد ﷺ رسولاً — ١٧٦
د. ناصر بن سليمان العمر

النبي ﷺ مع أولاده وأحفاده — ١٨١
الشيخ صالح بن محمد آل طالب

فضل النبي كما يظهر من أسمائه ﷺ — ١٨٧
الشيخ الداعية سمير مصطفى

دلائل محبة الرسول ﷺ — ١٩٤
د. أحمد بن عبدالرحمن الصويان

الإسلام رسالة تغييرية — ٢٠٣
الشيخ أشرف عبد المُنعم

الصدقة المتعثرة — ٢١٧
د. عمر بن عبد الله المقبل

خيرُ قلبٍ — ٢٢١
م. أيمن عبد الرحيم

كيف علمنا النبي ﷺ اختيار الرجال؟ — ٢٢٦
أنس السلطان



رضيتُ بمحمد ﷺ رسولاً

د. ناصر بن سليمان العمر*



فكّ الله أسره

إن الرضا بمحمد ﷺ رسولاً من متطلبات صحة الإيمان، فلابد ليصح إيمان العبد من التسليم بأن مُحَمَّدَ بنَ عبدِالله بنِ عبد المطلب بن هاشم القرشيَّ ﷺ، مبعوث من الله تعالى برسالة إلى الثَّقلين، والقناعة بذلك، والاكتفاء به، والسكون إليه وحمده، دون تسخط لذلك أو تحسر عليه أو حزن.

فهذا هو مدلول الرضا، ومدلول الرسالة، والمطلوب الرضا بمحمد رسولاً.

---

* د. ناصر العمر، مقال (رضيت بمحمد رسولاً)، موقع (المسلم)، ١٤٣١، رابط إلكتروني: almoslim.net/node/132374

قال ابن رجب: «الرِّضا بمحمدٍ رسولاً يقتضي الرِّضا بجميع ما جاء به من عند الله، وقبولِ ذلك بالتَّسليم والانشراح، كما قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥]»[1].



وقال ابن القيم: «وكيف يصح الرضا بمحمد رسولاً ممن لم يحكّمه على ظاهره وباطنه، ويتلقَّ أصول دينه وفروعه من مشكاته وحده، وكيف يرضى به رسولاً مَن يترك ما جاء به لقول غيره، ولا يترك قول غيره لقوله ولا يحكمه ويحتج بقوله إلا إذا وافق تقليده ومذهبه، فإذا خالفه لم يلتفت إلى قوله، والمقصود أن من حقه سبحانه على كل أحد من عبيده أن يرضى به رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً»[2].

ومن هنا نعلم أهمية تعظيم السنة النبوية التي استهان بها كثير من المسلمين اليوم، إما بالتماس التأويلات للتخلص منها، أو بتركها، وربما التزهيد فيها، أو بتقديم آراء العقول والمصالح المتوهَّمة عليها، وربما تعدى الأمر إلى وصف المتمسكين بها بالتشدد والتنطع، ونبزهم بغير ذلك من الألقاب.

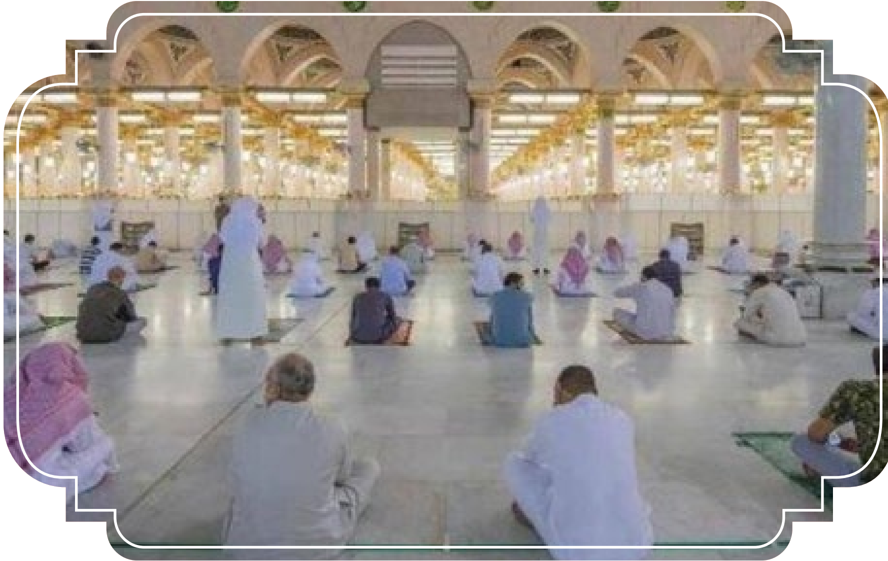
ونحن نعيش عصراً من ألزم ما ينبغي أن ندعو إليه وأن نشيعه فيه ونؤكد عليه كل فينة، قضية تعظيم السُّنة وقبل ذلك الكتاب، وذلك للجرأة عليهما في هذا العصر، والجرأة عليهما جرأة على الدين، وأنتم ترون كُتّاب الصحافة وغيرهم من أنصاف المثقفين في وسائل الإعلام المختلفة يتناولون السنة بما يدل على ضعف في التعظيم، وإلا لو عظّموا القائل واستحضروها خارجة من فمه عليه الصلاة والسلام، لاحتاطوا قبل معارضة ظواهرها، ولو عظموا مقوله، لما اجترؤوا عليها بالسخرية والاستهزاء، والإلغاء بالتأويلات السخيفة الباردة، التي حاصلها وصف قائلها عليه الصلاة والسلام -وهو أفصح العرب- بالعِي وعدم البيان وسوء التعبير.

---

١. جامع العلوم والحكم، لابن رجب.

٢. شفاء العليل، لابن القيم.

وتأمل تجرؤ الأقلام على الأحاديث الصحاح، كحديث «المرأة فتنة» ونحوه، وأحاديث المَحرَم للمرأة، وأحاديث الحجاب، وأحاديث الولاء والبراء، وأحاديث الجهاد، وأحاديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك تأمله يَندى جبينك ويعتصر الألم قلبك، ولا حول ولا قوة إلا بالله.. فقد تجاوز الأمر الترك والتزهيد إلى الطعن المبطن بل والصريح أحياناً. قال الذهبي: «عن أبي قلابة، قال: إذا حدثت الرجل بالسُّنة، فقال: دعنا من هذا، وهات كتاب الله، فاعلم أنه ضال». قلت (أي الذهبي): «وإذا رأيت المتكلم المبتدع يقول دعنا من الكتاب والأحاديث الآحاد، وهات العقل فاعلم أنه أبو جهل، وإذا رأيت السالك التوحيدي يقول دعنا من النقل ومن العقل، وهات الذوق والوجد، فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر، أو قد حل فيه، فإن جبنت منه، فاهرب، وإلا فاصرعه وابرك على صدره واقرأ عليه آية الكرسي واخنقه»[٣].



وقد أوصى ﷺ بسنته وأمر بالأخذ بها، فقال في حديث العِرباض بن سارية الصحيح المشهور: «عليكم بسُنتي وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[٤].

والله عز وجل يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

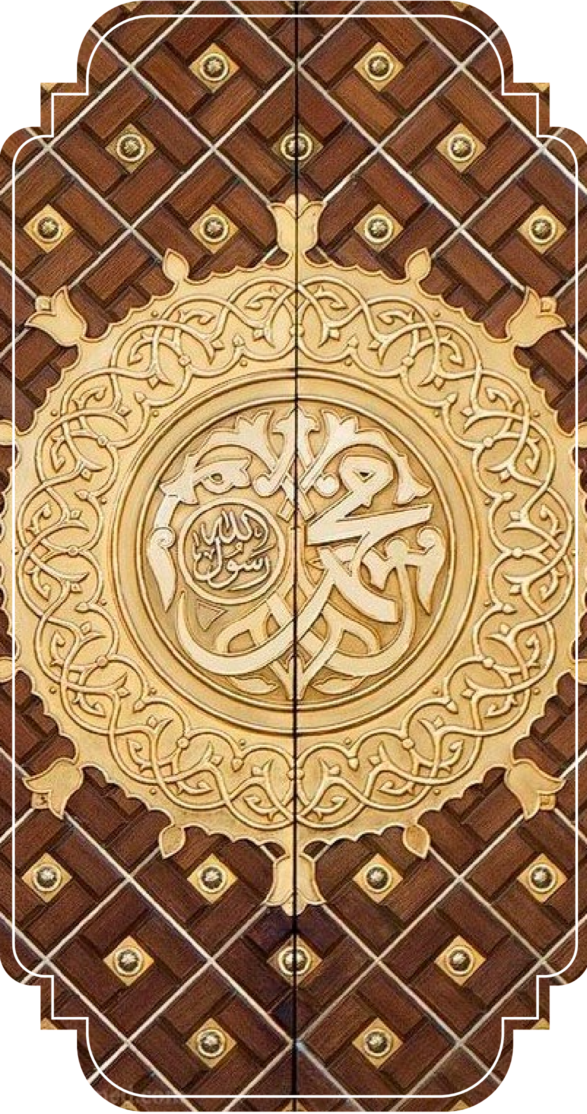
٣ . سير أعلام النبلاء، ٤/٢٧٤.

٤ . رواه أبو داود، ٤٦٠٧.

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].



قال ابن القيم تعليقًا على هذه الآية: «فحذر المؤمنين من حبوط أعمالهم بالجهر لرسول الله ﷺ كما يجهر بعضهم لبعض. وليس هذا بِردّة، بل معصية تحبط العمل، وصاحبها لا يشعر بها، فما الظن بمن قدَّم على قول رسول الله ﷺ وهديه وطريقه قول غيره وهديه وطريقه؟! أليس هذا قد حبط عمله وهو لا يشعر؟»[٥].

ويذكر أن أبا حنيفة رحمه الله، قال لابن أبي ذئب الإمام المشهور: أتأخذ بهذا يا أبا الحارث؟ يريد حديث: «من قُتل له قتيل فهو بخير النظرين؛ إن أحب أخذ العقل، وإن أحب فله قَوَد». قال: فضرب صدري، وصاح عليّ صياحاً كثيراً ونال مني وقال: «أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: تأخذ به؟! نعم، آخذ به، وذلك الفرض عليّ وعلى من سمعه، إن الله اختار محمداً من الناس فهداهم به وعلى يديه، واختار لهم ما اختار له وعلى لسانه، فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين، لا مخرج لمسلم من ذلك». قال: وما سكت حتى تمنيتُ أن يسكت. وقال الحميدي: روى الشافعي يوماً حديثاً فقلت: أتأخذ به؟ فقال: «رأيتَني خرجت من كنيسة أو عليَّ زُنَّار [وهو من لباس النصارى والمجوس يحزمون به وسطهم] حتى إذا سمعتُ عن رسول الله حديثاً لا أقول به؟!».

٥ . الوابل الصيب، ص٢٤.



وسُئل الشافعي عن مسألة فقال: رُوي فيها كذا وكذا عن النبي ﷺ، فقال السائل: يا أبا عبد الله، تقول به؟ فارتعد الشافعي وانتفض وقال: «يا هذا، أي أرضٍ تقلُّني، وأيُّ سماءٍ تظلُّني إذا رويت عن رسول الله ﷺ حديثًا فلم أقل به؟ نعم، على السمع والبصر».

قال أحمد بن حنبل: «من رد حديث النبي ﷺ فهو على شفا هلكة».

قال البربهاري في عقيدته التي كتبها في السُّنة: «إذا سمعت الرجل يطعن في الآثار أو يريد الآثار، فاتهمه على الإسلام، ولا تشك أنه صاحب هوى مبتدع».

وقال أبو القاسم الأصبهاني المعروف بقوام السنة: «قال أهل السنة من السلف: إذا طعن الرجل على الآثار، ينبغي أن يتهم على الإسلام».

والمقصود لا يتحقق الرضا بمحمد ﷺ رسولاً، مع ازدراء سنته والاستخفاف بها، لا يكون الرضا بمحمد ﷺ رسولاً إلاّ مع تعظيم السنة ومعرفة قدرها كما مر في كلمة ابن القيم وكلمة ابن رجب.

وأنتم يا من أنعم الله عليكم بتعظيم السنة احمدوا الله على ما وفقكم له، فقد كان السلف رضوان الله من لدن الصحابة يحمدون الله على التوفيق إلى ما يرضي رسول الله ﷺ، كما في حديث بعث معاذ إلى اليمن، وفي بعض ألفاظه قال ﷺ: «فَإِنْ جَاءَكَ أَمْرٌ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ وَلَمْ يَقْضِ فِيهِ نَبِيُّهُ وَلَمْ يَقْضِ فِيهِ الصَّالِحُونَ؟». قَالَ: أَؤُمُّ الْحَقَّ جَهْدِي. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقْضِي بِمَا يَرْضَى بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ»[٦].

٦. يُنظر: مصنف ابن أبي شيبة، ٧/٢٣٩، (٢٣٤٤٣).

النبي ﷺ مع أولاده وأحفاده

الشيخ صالح بن محمد آل طالب*



إمام المسجد الحرام (فكّ الله أسره)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

سيرةُ النبي ﷺ نورٌ كلُّها، وهديٌ كلُّها، في الدعوة والتعليم، وفي السياسة والحروب، وفي العبادة والأخلاق. أنَّى استقيتَ اهتديتَ، وحيثُما وردتَّ ارتويتَ.

---

* أصل المقال خُطبة للشيخ صالح آل طالب، منشورة بموقع (ملتقى الخطباء)، ٢٠١٦م، باختصار قليل. رابط إلكتروني: ٢٠١٤م؛:
bit.ly/3RClqSs

وهذا موردٌ من سيرة النبي الخاتِم مع بناته وبنيه وأحفاده صلَّى الله عليه وعليهم وسلَّم تسليمًا كثيرًا. تتجلَّى في هذا المورِد إنسانيتُه وأبوَّتُه، وشفقتُه وحنانُه، كما يجِدُ فيها الأبُ الذي فقدَ بَنيه سلوَى، فقد ابتُلِي مَن هو خيرٌ منه وأرقَى، ويجِدُ كلُّ أحدٍ فيها أحكامًا وفوائِدَ وشرعًا.

سيرةُ الرسولِ ﷺ أُنسُ المجالِس، وأخبارُه زينةُ المجالِس، وما من أحدٍ إلا ويحبُّ سماعَ سيرته، ويأنَسُ بأخباره. فدعُونا نرحَلُ إلى أيامِه الأولى، وبيتِه الأول، مع أولاده ﷺ.

الزواج بخديجة

كان رسولُ الله ﷺ فتًى من قُريش، وكان بين أقرانِه إن صحَّ أن يُقال: له قرين معروفًا بالصدقِ والنزاهة، وكان يُدعَى بينهم «الأمين»، سارَت سيرتُه بينهم مسيرَ الشمس والقمر، فاختارَته خديجةُ بنتُ خُويلدٍ رضي الله عنها، ليكون قائمًا بأمرِ تجارتِها إلى الشام، وبعثَت معه غلامَها ميسرة، فكان ما كان. وأُعجِبَت به خديجةُ رضي الله عنها، فتزوَّجَها ﷺ وعُمره خمسًا وعشرين سنة، وكانت أكبرَ منه سنًّا، وأقامَ بيتَه الأول بيتًا تُرفرِفُ فيها السعادة، ويُشرِقُ في جوانبِه الإيمان. كان ﷺ يُحِبُّ خديجةَ حبًّا جمًّا، حتى كان نساؤُه بعد ذلك يغَرنَ منها، كان يقول: «إني رُزِقتُ حبَّها»، عاشَ معها خمسًا وعشرين سنة، وما تزوَّج بأخرى حتى ماتَت. رُزِقَ ﷺ منها بستةٍ من الولد: القاسم، وعبد الله، وأربع إناثٍ هنَّ: زينب، ورقيَّة، وأم كُلثُوم، وفاطمة.

القاسم بن محمد



فأما القاسِم، فإنه أولُ أولادِه ﷺ، وبه كان يُكنَى، فيُقال: «أبو القاسِم». وقد قال ﷺ : «تسمَّوا باسمِي، ولا تكنَّوا بكُنيَتِي». وأكثرُ العلماء على أن هذا النهيَ مخصوصٌ بوقتِه ﷺ، ثم نُسِخ، لما ثبتَ في «صحيح مسلم» عن أنسٍ رضي الله عنه قال: نادَى رجلٌ رجلاً بالبقيع: يا أبا القاسِم! فالتفَتَ إليه رسولُ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله! لم أعنِك، إنما دعوتُ فُلانًا، فقال رسولُ الله ﷺ: «تسمَّوا باسمِي، ولا تكنَّوا بكُنيَتِي». وقد ماتَ القاسِمُ صغيرًا قبل بعثةِ النبي ﷺ

زينب بنت محمد

ثم بعد القاسم: وُلد للنبي ﷺ بنتٌ فسمَّاها زينب، ومن خبرِها رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ زوَّجَها أبا العاصِ بن أبي الربيع، فأسلمَت قبلَه وهاجرَت، ولم يُسلِم إلا قبل الفَتح، فردَّها النبي ﷺ عليه. وفي يوم بدرٍ أُسِر العاصُ بن أبي الربيع فيمن أُسِر، وبعثَ أهلُ مكَّة كلٌّ في فداءِ أسيرِه، فبعثَت زينبُ بمالٍ وقِلادةٍ تفدِي زوجَها، وكانت هذه القلادةُ هديَّة خديجةٍ لزينب يوم زواجِها، فلما رآها رسولُ الله ﷺ رقَّ رِقَّةً شديدةً، وتذكَّر أيامه الأولى فانبعَث الحنينُ في فؤادِه، وقال: «إن رأيتُم أن تُطلِقُوا لها أسيرَها، وترُدُّوا عليها الذي لها فافعَلوا»، فقالوا: نعم، يا رسول الله.



ولدَت زينبُ أُمامة، وكان من شفقَته ﷺ وتواضُعه أنه يُصلِّي وهو حاملٌ أمامةَ بنت زينب، فإذا قامَ حمَلَها، وإذا سجدَ وضعَها. فأخذَ العلماءُ من هذا جوازَ الحركة في الصلاةِ إذا كانت لحاجةٍ. وأُمامةُ هذه تزوَّجها عليٌّ رضي الله عنه بعد موت فاطمة، وماتَت أمُّها زينبُ في السنة الثامنة من الهِجرة، وغسَّلها النساءُ، وكُفِّنَت بإزارِ النبي ﷺ.

رقية وأم كلثوم

ثم بعد زينب: رُزِق النبي ﷺ ببنتٍ فسمَّاها «رُقيَّة»، وزوَّجها عُثمان بن عفَّان رضي الله عنه، فلما كان يوم بدرٍ مرِضَت مرضًا شديدًا، فلم يحضُر عثمانُ غزوة بدرٍ، كان عند زوجتِه يُمرِّضُها، ثم ماتَت رضي الله عنها، فضربَ رسولُ الله ﷺ لعثمان بسهمٍ كمن حضَر. روى أحمدُ، عن عائشة أن رسولَ الله ﷺ أُهدِيَت له هديَّةٌ فيها قِلادةٌ من جزَع، فقال: «لأدفعنَّها إلى أحبِّ أهلِي إليَّ». فقالت النساءُ: ذهبَت بها ابنةُ أبي قُحافة، فدعا النبي ﷺ أُمامةَ بنت زينَب، فعلَّقَها في عُنقِها. وفي سنَد الحديث مقال.

ولما ماتَت رُقيَّةُ رضي الله عنها، زوَّج النبيُّ ﷺ عُثمانَ أمَّ كُلثُوم، فكان عُثمانُ يُلقَّبُ بذِي النُّورَين من أجلِ ذلك. عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ لقِيَ عُثمانَ عند بابِ المسجِد، فقال: «يا عُثمان! هذا جبريلُ أخبرَني أن اللهَ قد زوَّجَك أمَّ كلثوم بمثلِ صداقِ رُقيَّة، على مثلِ صُحبَتِها» (رواه ابن ماجه، وفي سندَه مقال).

فاطمة بنت محمد

أما أصغرُ بناتِ النبي ﷺ، فهي فاطمة. هي بنتُ من؟ هي زوجُ من؟ هي أم من؟ من ذا يُداني في الفَخارِ عُلاها؟! في «صحيح مسلم»: قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه : بينما رسولُ الله ﷺ يُصلّي عند البيت، وأبو جهلٍ وأصحابٌ له جلوسٌ، وقد نُحِرت جَزورٌ بالأمس، فقال أبو جهلٍ: أيُّكم يقوم إلى سَلَى جَزورِ بني فُلان، فيأخذه فيضعُه في كتِفَي محمدٍ إذا سجَد؟ فانبعَثَ أشقَى القوم فأخذَه، فلما سجدَ النبيُّ ﷺ وضعَه بين كتِفَيه. قال: فاستضحكوا وجعلَ بعضُهم يميلُ على بعضٍ. قال ابنُ مسعودٍ: وأنا قائمٌ أنظُر، لو كانت لي منَعَةٌ طرحتُه عن ظهر رسولِ الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجِدٌ ما يرفعُ رأسَه. حتى انطلقَ إنسانٌ فأخبرَ فاطمة، فجاءَت وهي جُويريةٌ فطرَحَته عنه، ثم أقبلَت عليهم تشتُمُهم. فلما قضَى النبيُّ ﷺ صلاتَه رفعَ صوتَه ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا سألَ سألَ ثلاثًا، ثم قال: «اللهم عليك بقُريش» ثلاث مرات. فلما سمِعوا صوتَه ذهبَ عنهم الضحِك، وخافُوا دعوتَه.



فاطمةُ رضي الله عنها زوَّجَها النبيُّ ﷺ من ابنِ عمِّها عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، في السنة الثانية من الهجرة، فولدَت الحسَنَ والحُسينَ سيِّدَا شبابِ أهل الجنة، كان ﷺ يُحبُّها حبًّا شديدًا ويقول: «هما ريحانتَايَ من الدنيا».خطبَ رسولُ الله ﷺ يومًا، فأقبلَ الحسنُ والحُسينُ رضي الله عنهما عليهما قميصَان أحمران، يعثُران ويقُومان، فنزلَ فأخذَهما، فصعِد بهما المنبَر، ثم قال: «صدقَ الله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، رأيتُ هذَين فلم أصبِر»؛ رواه الخمسة. وصلَّى النبيُّ ﷺ يومًا بأصحابِه فأطالَ السُّجود، فسألَه الصحابةُ بعد ذلك، فقال: «إن ابنِي ارتحَلَني، فكرِهتُ أن أُعجِلَه حتى يقضِي حاجتَه» (رواه أحمد والنسائي).

هذا قلبُ النبيِّ ﷺ، وهذه رحمتُه بالصِّغار. لم يُخاصِم، ولم يضرِب، ولم يرفَع صوتَه على الطفلِ وعلى الصبيِّ الذي صعِد ظهرَه وهو يُصلِّي، وإنما انتظرَه وأطالَ السُّجود، وقال: «إن ابنِي ارتحَلَني، فكرِهتُ أن أُعجِلَه حتى يقضِي حاجتَه».

دخلَ الأقرعُ بن حابسٍ على النبيّ ﷺ فرآه يُقبّلُ الحسنَ، فقال: إن لي عشرةً من الولَد ما قبَّلت واحدًا منهم. فقال رسولُ الله ﷺ: «من لا يرحَم لا يُرحَم». هذا قلبُ النبيّ ﷺ، وهذه رحمته بالصِّغار، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وهذان هما الحسنُ والحُسين.

فاطمةُ هي البَضعةُ النبويَّةُ، قال ﷺ: «فاطمةُ بَضعَةٌ منِّي، يُريبُها ما رابَني». جاءَت فاطمةُ يومًا إلى النبي ﷺ تشكُو ما تلقَى في يدِها من الرَّحَى، تسألُه خادمًا، فلم تجِده، فذكَرَت ذلك لعائشة. فلما جاءَ النبيُّ أخبرَته عائشة.قال عليٌّ: فجاءَنا وقد أخَذنا مضاجِعَنا، فذهبتُ أقوم فقال: «مكانَك»، فجلَس بيننَا حتى وجدتُّ برْدَ قدمَيه على صدرِي، فقال: «ألا أدُلُّكما على ما هو خيرٌ لكما من خادِمٍ؟ إذا أويتُما إلى فراشِكما أو أخذتُما مضاجِعَكما فسبِّحا ثلاثًا وثلاثين، واحمَدا ثلاثًا وثلاثين، وكبِّرا أربعًا وثلاثين، فهذا خيرٌ لكما من خادِمٍ» (رواه البخاري ومسلم).

قال ابن حجر: «وفيه: أن الذي يُلازِمُ ذِكرَ الله يُعطَى قوةً أعظمَ من القوة التي يعملُها له الخادِم».

وفي «الصحيحين»: عن عائشة رضي الله عنها قالت: أقبلَت فاطمةُ تمشِي كأن مِشيَتها مشيُ النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ : «مرحبًا بابنَتِي»، ثم أجلَسَها عن يمينه أو عن شِماله، ثم أسرَّ إليها حديثًا فبكَت، فقلتُ لها: لِمَ تبكِين؟ ثم أسرَّ إليها حديثًا فضحِكت.فقلتُ: ما رأيتُ كاليوم فرحًا أقربَ من حُزنٍ، فسألتُها عما قال، فقالت: ما كنتُ لأُفشِي سِرَّ رسولِ الله ﷺ، حتى قُبِضَ النبيُّ ﷺ فسألتُها، فقالت: أسرَّ إليَّ «أن جبريلَ كان يُعارِضُني القرآنَ كل سنةٍ مرَّة، وإنه عارَضَني العامَ مرتين، ولا أُراهُ إلا حضَرَ أجلِي، وإنكِ أولَ أهلِ بيتي لَحَاقًا بي»، فبكيتُ. فقال: «أما ترضَينَ أن تكونِي سيِّدةَ نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين؟»، فضحِكتُ لذلك.

وقد ماتَت فاطمةُ بعد النبي ﷺ بستة أشهُر، رضيَ اللهُ عنها، ورضِيَ عن زوجها عليِّ بن أبي طالبٍ، ورضِيَ عن ابنَيْها الحسنِ والحُسين. وإننا نُشهِدُ اللهَ على حبِّهم ومُوالاتهم والتقرُّب إلى الله بذلك، من غير جفاءٍ ولا غُلُوٍّ.

عبد الله بن محمد

ثم أصغرُ أولادِ النبيِّ ﷺ من خديجة: عبدُ الله، وكان يُلقَّبُ بالطيب أو الطاهر، وُلد بعد البِعثة، ومات صغيرًا. ولما ماتَ قال العاصُ بن وائلٍ عن النبي ﷺ: دعُوه فإنه رجلٌ أبتَر، إذا

ماتَ انقطعَ ذِكرُه، لأنه لا ولدَ له! فأنزلَ الله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١٣].

أما نبيُّنا محمدٌ ﷺ، فقد قال الله له: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

هؤلاء هم أولادُ النبيِّ ﷺ من خديجة رضي الله عنها: القاسمُ، وعبدُالله، وزينبُ، ورُقيَّة، وأمُّ كُلثوم، وفاطمةُ رضي الله عنهم أجمعين.



صلَّى النبيُّ ﷺ الفجرَ ذاتَ يومٍ، ثم التفتَ إلى أصحابِه فقال: «وُلِد الليلةَ لي غُلام، سمَّيتُه باسمِ أبي إبراهيم».

فأخذَ العلماءُ من هذا: تسميةَ المولود في اليوم الأول. قال البيهقيُّ رحمه الله: «تسميةُ المولود حين يُولَد أصحُّ من الأحاديث في تسميتِه يوم السابع».

إبراهيم بن محمد

نعم، ذاك هو إبراهيم، أمُّه ماريةُ القِبطيَّةُ المصريَّة، أهداها المُقوقِسُ إلى النبي ﷺ، فولدَت له إبراهيم. قال أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه: ما رأيتُ أحدًا كان أرحمَ بالعِيالِ من رسولِ الله ﷺ. كان إبراهيمُ مُسترضَعًا له في عوالِي المدينة، فكان ينطلِقُ ونحن معه، فيدخلُ البيتَ وإنه ليدخُنُ، وكان ظِئرُه قَينًا أي: حدَّادًا، فيأخُذُه فيُقبِّلُه ثم يرجع.

مَاتَ إبراهيم في السنة العاشِرة، وعُمرُه ثمانية عشر شهرًا، وكَسَفَت الشمسُ يوم مات، فظنَّ بعضُ الناس أنها كسَفَت لموتِه، وبكَى النبيُّ ﷺ وقال: «إن العينَ تدمَع، والقلبَ يحزَن، ولا نقولُ إلا ما يُرضِي ربَّنا، وإنا بفراقِك يا إبراهيمُ لمحزُونون».

وقال ﷺ: «إن له مُرضِعًا في الجنة تُكمِلُ رضاعَه».

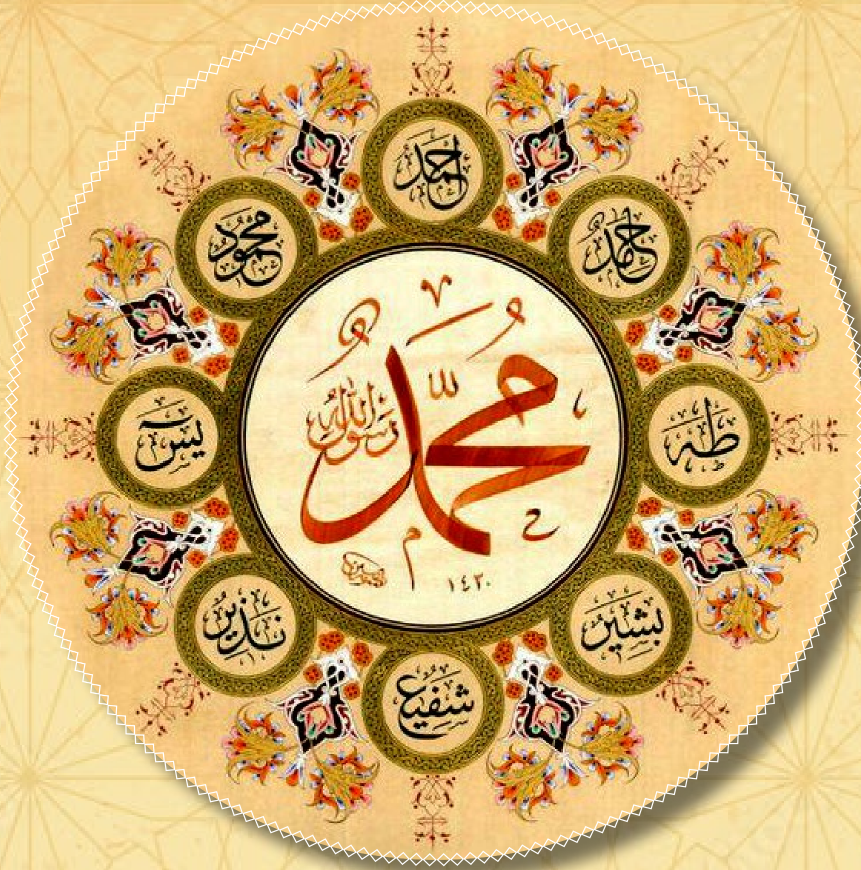
فصلواتُ الله وسلامُه على عبدِه ورسولِه محمد، وعلى آلِهِ وأصحابِه، وأزواجِه وذريَّته، ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

فضل النبي كما يظهر من أسمائه ﷺ



الشيخ الداعية سمير مصطفى*

فكّ الله أسره



قال ابن القيم، وهو يعدد أسماء النبي ﷺ:

«الماحي: هو الذي محا الله به الكفر، ولم يُمحَ الكفر بأحد من الخلق ما مُحي بالنبي ﷺ، فإنه بُعث وأهل الأرض كلهم كفار إلا بقايا من أهل الكتاب، وهم ما بين عباد أوثان ويهود مغضوب عليهم ونصارى ضالين وصابئة دهرية لا يعرفون رباً ولا معاداً، وبين عباد الكواكب، وعباد النار، وفلاسفة لا يعرفون شرائع الأنبياء، ولا يقرون بها، فمحا الله سبحانه برسوله ذلك حتى ظهر دين الله على كل دين، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار، وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار».

---

* مستفاد من الحلقة الرابعة من سلسلة «السيرة النبوية» للشيخ سمير مصطفى.

لم يزل في رقبة البشرية للنبي ﷺ مِنة، فله عليهم المنة، لأن الله أظهر به الدين، ومحا به الكفر، ومهما اتبعت الأمة سنته، محى الله بها كل ظلام.

ويجب أن تكون هذه القواعد راسخة في نفوس المسلمين لا تحتاج إلى نقاش، فإن اتباع سنة النبي ﷺ هو الذي يجعلها تتصف بما اتصف به من المزايا والخصائص والفضائل، ونحن إذا نظرنا في تاريخنا وجدنا مصداق هذا، وهذا تاريخ يجب أن نستمسك به في الوقت الذي تستمسك فيه الأمم بتواريخها، لا يقولون عندهم -مثلما يقول البعض عندنا- هذا تخلف ورجوع إلى الوراء، أما ترى إلى نابليون جاء إلى مصر في الحملة الفرنسية وهو يسير على خطة تركها له لويس التاسع من قبله بقرون؟! نابليون الذي يرونه قمة التقدم يتبع رجلاً من العصور الوسطى مما يصفونها بالتخلف!



فإذا نظرنا في تاريخنا وجدنا أبا بكر، قد سار على سنة النبي متبعاً، فمحا الله به الكفر مثلما محاه بنبينا ﷺ، وذلك في حروب الردة، حين ارتدت جزيرة العرب التي تركها النبي تموج بالإسلام، فلم يبق إلا مكة والمدينة وبعض المناطق الأخرى، فمنهم من ارتد بالكلية، ومنهم من امتنع عن دفع الزكاة قائلاً: «كنا نؤديها لمحمد، فأما إذ مات فلا نؤديها لأحد من بعده»، ومن القبائل من خرج فيها من يزعم أنه نبي، وكانت محنة ومعضلة كبرى، وبدأت بعض قبائل الردة تهدد المدينة المنورة، ووجد بعض المرتدين في شرق الجزيرة ظهيراً من الفرس!

كانت محنة يحتاج فيها المسلمون إلى كل جندي، وكان جيش أسامة بن زيد على وشك الخروج إلى الروم، فقال الصحابة لأبي بكر: استبقِ جيش أسامة، فإن العرب قد ارتدت. فقال: إن رسول الله قد عقد لواء أسامة، ولا أحل عقدة عقدها رسول الله، ما كنتُ لأطيعه حياً وأعصيه ميتاً، فلو كنت وحدي لأنفذتُ بعث أسامة، ولو جرت الكلاب بأرجل أمهات المؤمنين لأنفذته!

وقد كان.. وذهب جيش أسامة لقتال الروم، فإذا قبائل العرب التي تتربص الهجوم على المدينة، وتنظر في أحوالها، تندهش أن يخرج منها جيش لقتال الروم، فوقعت الهيبة في نفوسهم، وظنوا أن الجيش العرمرم والعدد الكبير من الجنود لا يزال في المدينة عند أبي بكر، لم يتصوروا أن يخرج جيش من المدينة لقتال الروم إلا وهي في منعة وكثرة من الجند، فكفُّوا عن هجومهم، وكفى الله المؤمنين القتال!

كل هذا بفضل قولة أبي بكر: «والله لا أحل عقدة عقدها محمد»، أترى؟ لا تحل شيئاً عقده رسول الله، استمسك بالشريعة، وكما محى الله بمحمد الكفر، سيمحو الكفر كذلك بمن تمسك بسنة محمد ﷺ.

وقد مضى كلام أهل العلم أن بعض خصائص النبي ﷺ تشركه فيه الأمة إن كانت تتبعه، كقوله ﷺ «نُصرت بالرعب مسيرة شهر»، فقالوا: وهذا السلاح تُنصر به الأمة ما كانت متبعة للنبي ﷺ.



لو اتبعناه لارتعبوا منا، والتاريخ حافل بهذا، فمن ذلك رعبهم من نور الدين زنكي، وقد أفتى العلماء لصلاح الدين الأيوبي ألا يحج، لما في قلوب الصليبيين من الرعب منه، وخشيتهم أنه إذا حجّ تجرأ الصليبيون على المسلمين. وفي الصدر الأول كان خالد بن الوليد رضي الله عنه ينصح أعداؤه بعضهم بعضاً ألا يواجهوه، كما قال قائد فارسي عنه: «إن خالداً ميمون النقيبة ولم تفل له راية، فسالموه». فأبوا عليه وأصروا على القتال، ورآهم قد أعدوا طعامهم ليأكلوا قبل التجهز للمعركة فقال لهم: «أخشى أن تكونوا قد أعددتم هذا الطعام لخالد»! وهو ما كان! ولا تزال خطط خالد تُدرّس في جامعات الخارج!

فانتقل هذا الرعب من النبي إلى خالد، وهو ينتقل إلينا ما كنا على سنة رسول الله ﷺ.

قال ابن القيم: «وأما المقفي فكذلك، وهو الذي قفى على آثار من تقدمه، فقفى الله به على آثار من سبقه من الرسل، وهذه اللفظة مشتقة من القفو، يقال: قفاه يقفوه: إذا تأخر عنه، ومنه: قافية الرأس، وقافية البيت، فالمقفي: الذي قفى من قبله من الرسل فكان خاتمهم وآخرهم».



وهذا من فضل النبي ﷺ أيضاً، فهو قد أتى في خاتمة الرسل، فمن مهمته حماية عقيدة الأنبياء ودين الأنبياء وشريعة الأنبياء، فجاء خلفهم كحامية لدينهم وعقيدتهم. نحن أَمَنَة الدنيا، أَمَنَة الديانة، ويجب أن نعلم -لا سيما في هذا الزمن الذي ضاعت فيه هذه الأصول- أن من أصولنا أننا نقف على ثغر هذه الشريعة، أن نتعلمها ونعلمها للناس، فهذا هو الثغر الأصلي، الثغر الذي يجب ألا يكون فيه شك، ونظل هكذا حتى يتوارث الناس العلم والشريعة من هذه الفئة التي وقفت على هذا الثغر.

قال ابن القيم: «وأما المقفي فكذلك، وهو الذي قفى على آثار من تقدمه، فقفى الله به على آثار من سبقه من الرسل، وهذه اللفظة مشتقة من القفو، يقال: قفاه يقفوه: إذا تأخر عنه، ومنه: قافية الرأس، وقافية البيت، فالمقفي: الذي قفى من قبله من الرسل فكان خاتمهم وآخرهم».

لا ينبغي أبداً أن تنشغل عن هذا الثغر، فهو شغلك طوال عمرك، فلا بد لحفظ الشريعة من فئة تنفر لهذا، فهذا شأن النبي ﷺ العظيم، أنه كان يحمي دين الأنبياء حيث فرطت فيه أممهم.

قال ابن القيم: «وأما نبي التوبة فهو الذي فتح الله به باب التوبة على أهل الأرض فتاب الله عليهم توبة لم يحصل مثلها لأهل الأرض قبله. وكان ﷺ أكثر الناس استغفاراً وتوبة، حتى كانوا يعدون له في المجلس الواحد مائة مرة: «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور» وكان يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى الله ربكم فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة»، وكذلك توبة أمته أكمل من توبة سائر الأمم وأسرع.

قبولاً وأسهل تناولاً، وكانت توبة من قبلهم من أصعب الأشياء، حتى كان من توبة بني إسرائيل من عبادة العجل قتل أنفسهم، وأما هذه الأمة فلكرامتها على الله تعالى جعل توبتها الندم والإقلاع.

الحمد لله، لقد كانت توبة الناس من قبلنا من أصعب الأمور، حتى كان من توبة بني إسرائيل من عباد العجل قتل أنفسهم، وأما هذه الأمة فلكرامتها على الله تعالى جعل توبتها الندم والإقلاع. قال حميد الطويل: قلت لأنس بن مالك: يا أبا حمزة، سمعتَ رسول الله ﷺ يقول: «الندم توبة». قال: نعم.



إنك حين تتأمل في ذنبك ثم تسأل نفسك: ماذا سأقول لله؟ وكيف فعلتُ هذا الذنب؟ تلك الحرقة في قلبك، وهذا الندم هو توبة. وكانت بنو إسرائيل -ممن عبدوا العجل- أن يقوموا إلى بعض فيقتلون بعضهم، كان الرجل -كما في تفسير ابن كثير- يقوم إلى ابن عمه أو أخيه فيقتله، ليتوب الله عليهم. فتأمل هذا وتصور ما أنت فيه من النعمة!

أسرف بعض السلف في المعصية، ثم قام الليل فدعا: «اللهم هل فنيت خزائن رحمتك حتى تعز على مثلي؟ اللهم اغفر لي»، فنام فسمع من يقول له في نومه: «قد غفر الله لك».

وقص علينا النبي أن رجلاً يوم القيامة وُزنت حسناته وسيئاته، فرجحت سيئاته، فأخذ إلى النار، فصار يتلفت، فقال الله: ردّوه. فردوه، فقال له الله: هل ظلمك كتبتي؟ فقال: لا يارب. فقال: فهل ظلمتُك؟ قال: لا يا رب. فقال: فعلام التلفت؟ قال: ما ظننتُ فيك هذا يا رب. قال: اذهب فقد غفرتُ لك.

وهذا الخائف الذي قال لأولاده: «إذا أنا مت فأحرقوني، ثم انثروا رمادي في البر والبحر، فلئن قدر عليّ ربي فسيعذبني عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين!». هذا الرجل، كما يقول الحافظ ابن حجر، طار عقله من الخوف حتى نطق لسانه بالكفر حين قال: «لئن قدر عليّ ربي»، فلذا لا يكفر، لذهول عقله عن حقيقة

المعنى. فقال الله عز وجل للأرض والبحر: «اجمعي ما فيكِ»، فقام منتصباً أمام الله كما هو، وقال: «ما حملك على ما صنعت يا عبدي؟» فقال: «خشيتك يا رب». فقال الله: «غفرت لك».



فكلمة «نبي التوبة» لها معنيان: أنه كان يكثر من التوبة، وأن توبة أمته سهلة ميسورة!

قال ابن القيم: «وأما نبي الرحمة، فهو الذي أرسله الله رحمة للعالمين، فرحم به أهل الأرض كلهم مؤمنهم وكافرهم، أما المؤمنون فنالوا النصيب الأوفر من الرحمة، وأما الكفار فأهل الكتاب منهم عاشوا في ظله وتحت حبله وعهده، وأما من قتله منهم هو وأمته فإنهم عجل بهم إلى النار وأراحهم من الحياة الطويلة التي لا يزدادون بها إلا شدة العذاب في الآخرة».

وإنه لتغمر القلب مشاعر الشوق والحب إذا مرَّ بقوله تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»، فيشعر المرء أنه يتلقى الماء البارد على العطش والظمأ في الجوّ الصائف، والعلماء لهم حسن ظن بالله، يقولون: ما مات أحد من الناس إلا وهو مرحوم، سواء أكان مؤمناً أم كافراً، فأما المؤمن فقد دخل الجنة، وأما الكافر فقد عُجِّل به إلى النار، ولو مات في سن أكبر من ذلك لازداد عذابه في الآخرة بقدر ما عاش!

فهذا من جملة رحمة الله بنا عبر نبيه ﷺ

ودقق في كلمة «وأما أهل الكتاب منهم فقد عاشوا في ظله»، وفي ذلك ردٌّ على من يتخوف من الإسلاميين ويحسب أنهم سيقتلون النصارى وغيرهم، لقد عاش أولئك في ظله، وكانوا آمنين ما داموا لا يتطاولون عليه ﷺ، فليس يوجد في الدنيا دولة استوعبت هؤلاء كما استوعبتهم شرائع الإسلام.

قال ابن القيم: «وأما الفاتح، فهو الذي فتح الله به باب الهدى بعد أن كان مرتجا، وفتح به الأعين العمي والآذان الصم والقلوب الغلف، وفتح الله به أمصار الكفار، وفتح به أبواب الجنة، وفتح به طرق العلم النافع والعمل الصالح ففتح به الدنيا والآخرة والقلوب والأسماع والأبصار والأمصار».

وهذا الكلام من ابن القيم لا يخرج إلا من إنسان محب، فيغوص حتى يستخرج هذه المعاني، فالمعنى الداخلي: فتح الله به العيون، فالله تعالى ييسر لنا توبة سهلة ميسورة متقبلة، والذين تابوا والتزموا حديثاً، يرون في أنفسهم أن فطرتهم عادت كما وُلدوا، كما في الحديث: «إني خلقت عبادي حنفاء، ثم جاءتهم الشياطين فاجتالتهم». تلوثوا بالمعاصي، فحين تتوب، فترجع الفطرة وتتألق، يشعر المرء بما كان عليه من الضلال، فهذا هو سبب الندم، فيسارع في العمل والإقدام.

وهذه حال عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه، أبصره خالد بن الوليد في معركة اليرموك، وقد كسر غمد السيف، ومشى يقتحم في الروم فقال لأبي عبيدة: أدرك عكرمة، فإنه ميت لا محالة. فأمسك أبو عبيدة بعكرمة وقال له: يا عكرمة، إن موتك يفزع المسلمين. فقال عكرمة: دعني منك يا خالد، فقد كنتُ أنا وأبي نكثر من إيذاء رسول الله ﷺ والمؤمنين قديماً!

كذلك وحشي بن حرب، تحرك فيه ندمه على قتل حمزة، فحارب في الردة، فاهتدى إلى مسيلمة الكذاب بفطرته، لأنه صدق في توبته، فنوى أن يقتل مسيلمة بنفس الحربة التي قتل بها حمزة، فيكون قد قتل شر الناس بعد ما قتل خير الناس، من قبيل «وأتبع السيئة الحسنة تمحها».

وهكذا يرى الإنسان نفسه بعد التوبة، ينظر إلى الذين كان مثلهم قبل ذلك من أهل المعاصي، فيشعر بالخجل والندم، فهذا هو البصر واليقظة، هذا هو الوعي الذي انفتح في المرء بفضل رسول الله ﷺ.

كان الصحابة يجلسون حول النبي ﷺ فيذكرون الجاهلية فيضحكون، وربما ابتسم رسول الله ﷺ، يتذكرون توسلهم قديماً بالأصنام، وما كانوا عليه من الضلال الذي تخلصوا منه بفضل رسول الله ﷺ. وهو ما عبر عنه المغيرة بن شعبة لرستم قائد الفرس حين قال له: كنتم أهون الناس. فقال المغيرة: كنا أضل الناس، حتى بعث الله فينا نبياً منا نعرفه ولا ننكره.

فهذا نوع فتح، من جملة الفتح الذي جرى على يد النبي ﷺ.

دلائل محبة الرسول ﷺ

د. أحمد بن عبدالرحمن الصويان



فكّ الله أسره

إن محبة الرسول ﷺ أصل عظيم من أصول الدين، فلا إيمان لمن لم يكن الرسول ﷺ أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

---

* د. أحمد بن عبدالرحمن الصويان، مقال «دلائل محبة الرسول بين السنة والبدعة»، موقع (طريق الإسلام)، رابط المادة: isw y.co/e١١٥٥ باختصار يسير.

قال القاضي عياض في شرح الآية: «فكفى بهذا حضاً وتنبيهاً ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه لها ﷺ، إذ قرّع الله من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله وتوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، ثم فسقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله»[١].



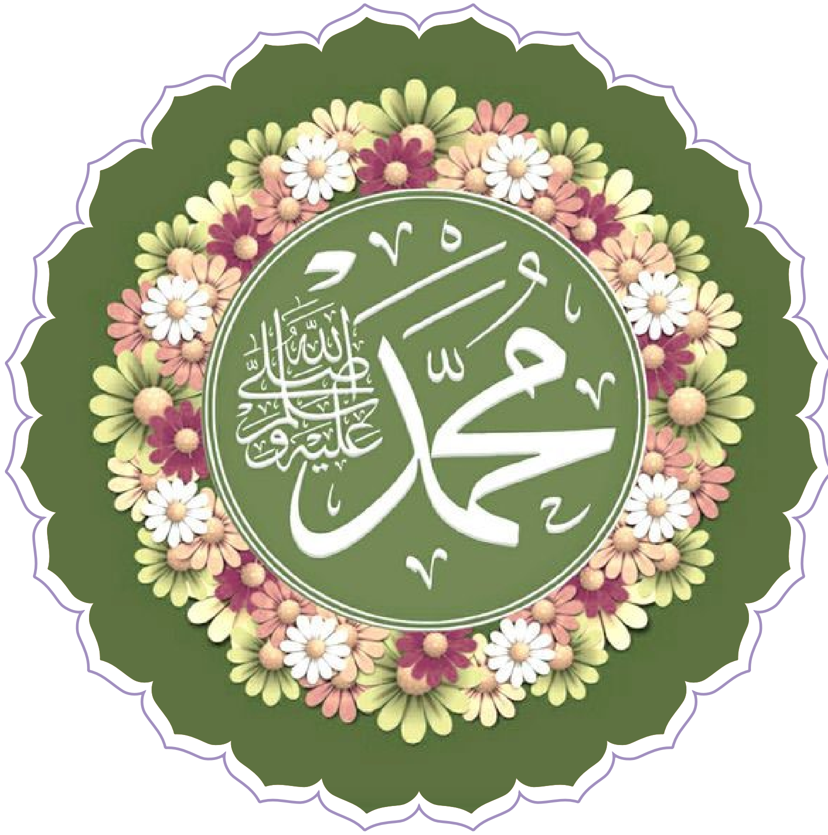
وقال الله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب، من الآية: ٦]. وقال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[٢].

وقال أيضاً: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده»[٣].

وعن عبد الله بن هشام قال: «كُنَّا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إليّ من نفسي فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»[٤].

١. الشفا بتعريف أحوال المصطفى، ٨١/٢.
٢. أخرجه البخاري: ٥٨/١، ومسلم: ٦٧/١.
٣. أخرجه البخاري، ٨٥/١.
٤. أخرجه البخاري، ٥٢٣/١١.

آثار محبته ﷺ



المحبة عمل قلبي اعتقادي تظهر آثاره ودلائله في سلوك الإنسان وأفعاله، ومن علامات ذلك:

أولاً: تعزير النبي ﷺ وتوقيره

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ۝ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح:٨-٩]

ذكر ابن تيمية أن التعزير: «اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه». والتوقير: «اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حد الوقار»[٥].

وتوقير النبي ﷺ له دلائل عديدة، منها:

١ عدم رفع الصوت فوق صوته، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وعن السائب بن يزيد قال: «كنت قائماً في المسجد فحصبني رجل فنظرت فإذا عمر بن الخطاب، فقال: اذهب فأتني بهذين، فجئته بهما، قال: من أنتما -أو من أين أنتما-؟ قالا: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ؟!»[٦].

٥. الصارم المسلول على شاتم الرسول، ص٤٢٢.

٦. أخرجه البخاري، ١/٥٦٠.

٢ الصلاة عليه ﷺ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [الأحزاب:٥٦]. قال ابن عباس: ﴿يُصَلُّونَ﴾: «يبرّكون»[٧].

وفي الآية أمر بالصلاة عليه، والأمر يقتضي الوجوب، لهذا قال النبي ﷺ: «البخيل من ذُكرتُ عنده فلم يُصلّ عليّ»[٨]. وقال: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ»[٩].

ثانياً: الذَّب عنه وعن سنته

إن الذَّب عن رسول الله ﷺ ونصرته، آية عظيمة من آيات المحبة والإجلال، قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر:٨]. ولقد سطر الصحابة رضي الله عنهم أروع الأمثلة وأصدق الأعمال في الذب عن رسول الله ﷺ، وفدائه بالأموال والأولاد والأنفس، في المنشط والمكره، في العسر واليسر، وكتب السير عامرة بقصصهم وأخبارهم التي تدل على غاية المحبة والإيثار، وما أجمل ما قاله أنس بن النضر يوم أُحد لما انكشف المسلمون:



«اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء -يعني المشركين-». ثم تقدّم فاستقبله سعد، فقال: «يا سعد بن معاذ، الجنة وربّ النضر، إني أجد ريحها من دون أُحد»، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس بن مالك: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتل، وقد مثّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه.

٧. أخرجه البخاري، تعليقاً مجزوماً به، ٢٣٥/٨.

٨. أخرجه أحمد: ٢٠١، والترمذي: ٥٥١/٥.

٩. أخرجه أحمد: ٢٥٤/٢، والبخاري في الأدب المفرد، ص: ٢٢٠، والترمذي: ٥٠٠/٥.

١٠. أخرجه البخاري: ٢١/٦، و٣٥٤/٧.

ومن الذب عن سنته ﷺ، حفظها وتنقيحها، وحمايتها من انتحال المبطلين وتحريف الغالين وتأويل الجاهلين، ورد شبهات الزنادقة والطاعنين في سنته، وبيان أكاذيبهم ودسائسهم، وقد دعا رسول الله ﷺ بالنضارة لمن حمل هذا اللواء بقوله: «نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فرب مُبلَّغ أوعى من سامع»[١١].

والتهاون في الذب عن رسول الله ﷺ أو الذب عن سُنته وشريعته، من الخذلان الذي يدل على ضعف الإيمان، أو زواله بالكلية، فمن ادعى الحب ولم تظهر عليه آثار الغيرة على حرمته وعرضه وسنته، فهو كاذب في دعواه.

ثالثاً: تصديقه فيما أخبر من أصول الإيمان وركائزه الرئيسة

بالإيمان بعصمة النبي ﷺ وسلامته من الكذب والبهتان وتصديقه في كل ما أخبر من أمر الماضي أو الحاضر أو المستقبل، قال الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ١٤].

والجفاء كل الجفاء بل الكفر كل الكفر، اتهامه وتكذيبه فيما أخبر، ولهذا ذم الله المشركين بقوله: ﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:٣٧-٣٩].

١١. أخرجه أحمد: ٤٣٧/١، والترمذي: ٣٤/٥، وابن ماجه: ٨٥/١.

ومن لطائف هذا الباب التي تدل على منزلة الشيخين الجليلة، أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «بينما راعٍ في غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منها شاة فطلبها حتى استنقذها، فالتفت إليه الذئب، فقال له: من لها يوم السبع ليس لها راعٍ غيري؟ وبينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها، فالتفتت إليه فكلمته فقالت: إني لم أُخْلَق لهذا، ولكني خُلِقتُ للحرث»، فقال الناس: سبحان الله! قال النبي ﷺ: «فإني أؤمن بذلك وأبو بكر وعمر بن الخطاب»[١٢].

رابعاً: اتباعه وطاعته والاهتداء بهديه



الأصل في أفعال النبي ﷺ وأقواله أنها للاتباع والتأسي، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] قال ابن كثير: «هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر الله تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل»[١٣].

وجاء أمر الله سبحانه وتعالى في وجوب طاعة الرسول ﷺ في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر:٧]. وجعل الله عز وجل طاعة الرسول ﷺ من طاعته سبحانه، فقال: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء من الآية:٨٠]. وأمر بالرد عند التنازع إلى الله والرسول، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

١٢. أخرجه البخاري في عدة مواضع منها: ٦/١٥٢، و٧/١٨، و٤٢.

١٣. تفسير القرآن العظيم: ٣/٤٧٥.

وتواترت النصوص النبوية في الحث على اتباعه وطاعته، والاهتداء بهديه والاستنان بسنته، وتعظيم أمره ونهيه، ومن ذلك قول الرسول ﷺ: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعَضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[١٤].

وقال ﷺ: «صلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي»[١٥].

وقال: «لتأخذوا عني مناسككم»[١٦].

فطاعة الرسول ﷺ هي المثال الحي الصادق لمحبته عليه الصلاة والسلام فكلما ازداد الحب، زادت الطاعات، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران من الآية: ٣١]. فالطاعة ثمرة المحبة، وفي هذا يقول أحد الشعراء:

تَعصى الإله وأنت تزعم حبه •• ذاك لعمري في القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعتَه •• إن المحب لمن أحب مطيع

خامساً: التحاكم إلى سنته وشريعته

إن التحاكم إلى سنة النبي ﷺ أصل من أصول المحبة والاتباع، فلا إيمان لمن لم يحتكم إلى شريعته، ويسلم تسليماً، قال الله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥].

١٤. أخرجه أحمد: ٤/ ١٢٦-١٢٧، وأبو داود: ٥/١٣-١٥، والترمذي: ٥/٤٤، وابن ماجه: ١/١٦.
١٥. أخرجه البخاري: ٢/١١١، و١٠/٤٣٨.
١٦. أخرجه مسلم: ٢/٩٤٣.

وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى أن من علامات الزيغ والنفاق الإعراض عن سنته، وترك التحاكم إليها، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

الغلو في محبة الرسول ﷺ

انحرف بعض الناس عن هدي النبي ﷺ وأحدثوا في دين الله عز وجل ما ليس منه، وغيروا وبدلوا، وغلوا في محبتهم للرسول ﷺ غلواً أخرجهم عن جادة الصراط المستقيم، الذي قال الله عز وجل فيه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].



وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على حماية جناب التوحيد، فكان يحذر تحذيراً شديداً من الغلو والانحراف في حقه، ودلائل ذلك كثيرة جداً منها:

- عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»[١٧].

---

١٧. أخرجه البخاري في عدة مواضع منها: ٦/٤٧٨.

•• وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ألا إني أنهاكم عن ذلك»، يحذر ما صنعوا»[١٨].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال له النبي ﷺ: «جعلتني لله عدلاً؟! بل قل ما شاء الله وحده»[١٩]. وعن أنس أن رجلاً قال: يا محمد، يا سيدنا، وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل»[٢٠].



ونظائر هذه النصوص كثيرة جداً، وثمرتها كلها بيان أن محبة النبي ﷺ وتعظيمه لا تكون إلا بالهدي الذي ارتضاه وسنه لنا، ولهذا قال عليه أفضل الصلاة والسلام: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»[٢١].

إن محبة الرسول ﷺ عقيدة راسخة في قلوب المؤمنين، ثمرتها الاقتداء والبذل والعطاء والتضحية والجهاد في سبيل نصرة دينه وإعلاء لوائه وحماية سنته، ولا يوجد بين محبي الرسول ﷺ مكان للعجزة النائحين، وما أجمل قول أنس بن النضر رضي الله عنه لما مرَّ بقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم فقال: «ما تنتظرون؟ فقالوا: قُتِلَ رسول الله ﷺ، فقال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه»[٢٢].

---

١٨. أخرجه البخاري: ١٤٠/٨، ومسلم: ٧٧٣/١.

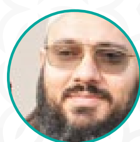
١٩. أخرجه أحمد: ٢١٤/١ و٢٨٣ و٣٤٧.

٢٠. أخرجه أحمد: ١٥٣/٣، و٢٤١. ٢١. أخرجه مسلم: ١٣٤٤/٣.

٢٢. أخرجه البخاري: ٢١/٦ و٣٥٥/٧، ومسلم: ١٥١٢/٣.



الإسلام رسالة تغييرية



الشيخ أشرف عبد المُنعم

فكّ الله أسره

الحمد لله الذي بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد المبعوث بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده[1]، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم يحمل رسالتهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

١. حسن: رواه أحمد [٤٩٦٤] عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في المشكاة [٤٣٤٧].

منشأ المشكلة

"هناك من ألِفوا الوجود مع الباطل وتحته، حتى صارت أعلى أمنياتهم مشاركته لا تغييره"

إن أمتنا عندما تعرضت للتيه زمناً طويلاً، ثم هي تحاول الآن أن تستعيد وجودها الرسالي، الذي ترث فيه نبيهاﷺ كأمة رائدة للحياة الإنسانية، فتنحاز الجماهير المسلمة لمن يرفعون راية الإسلام، متجاوزة بذلك الانحياز عقوداً من التضليل والاستبداد العلماني.. عند هذه اللحظات التاريخية تُصفى الصفوف مع تصفية النفوس، ويتمايز المتقدمون بالإسلام؛ إذ ليس الكل يحمل رسالة التغيير بالإسلام بل إن هناك من ألِفوا الوجود مع الباطل وتحته، حتى صارت أعلى أمنياتهم مشاركته لا تغييره.

معالم الرسالة.. منطلق الحل



في مثل هذه اللحظات الفارقة، تتأكد أهمية إبراز معالم رسالة النبي ﷺ لأنه كان الوجود المثالي للرسالة وللدين، وكل وجود صحيح بعد ذلك يكتسب صحته بمقدار اقترابه من هذا النموذج المثالي، ويفقد من الصحة بمقدار ما يبتعد عن النموذج الذي طبقه النبي ﷺ.

فإن ربنا سبحانه وتعالى لم ينزل لنا كتاباً وفقط، لأنه لو كان كتاباً وفقط لأمكن للأفهام أن تتفاوت في تفسيره بما قد يخرجه عن مقصوده، لكنه أرسل لنا رسولاً يحمل الكتاب، ليكون الكتاب هو الوحي المحفوظ لهذا الدين، وليكون الرسول ﷺ هو التطبيق العملي الذي يفسر ويضبط المعاني التي جاءت في الكتاب. ومن ههنا كانت السُّنة هي الوحي الثاني، واستدل العلماء على حفظ السنة بآية حفظ الكتاب: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. فقالوا: (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) تعني حفظ الألفاظ وحفظ المعاني، فحفظ الألفاظ ببقاء الكتاب، وحفظ المعاني بحفظ السُّنة، باعتبار أن كثيراً من البيان إنما حُفِظ بالسنة، فكان من تمام حفظ الكتاب حفظ السنة، باعتبارها جزءاً من الوعد الرباني بحفظ الكتاب، وهذا هو المنطلق الصحيح لفهم الدين.

حيثيات البعثة.. مفتاح الفهم



ولنبدأ القصة من البداية، ففي صحيح مُسلم من حديث عِياض بن حمار رضي الله عنه في حديث طويل للنبيﷺ ذكر فيه ما كان قبل بعثته، وذكر فيه حيثيات هذه البعثة. قال النبي ﷺ: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمَقَتهم عَرَبَهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»[٢].

وهذا قبل البعثة.. نظر الله إلى أهل الأرض -هو لا يخفى عليه شيء من حالهم- فمقتهم لأنهم لم يُقيموا الإيمان والتوحيد.. لم يُقيموا العدل.. لم يقيموا الرحمة.. لم يقيموا الإحسان.. لم يقيموا الطهارة التي يحبها الله تبارك وتعالى في عباده، ولذلك استحقوا أنْ مقتهم عربهم وعجمهم.

ثم قال ﷺ: «إلا بقايا من أهل الكتاب».. والتساؤل هنا: لماذا لم يمقت الله عز وجل بقايا أهل الكتاب؟ لا بد أن أسباب المقت لم توجد فيهم، فهم قد ظلوا على أصل التوحيد والإيمان، لم يُبدلوه، فحافظوا على بقية دينهم ولم يحرفوا عنه، ولذلك لم يمقتهم الله تبارك وتعالى عندما مقت بقية أهل الأرض.

أين ذهبت البقايا المؤمنة؟

لكن الشيء العجيب حقاً.. هو أن الله عز وجل مع أنه لم يمقتهم إلا أنه قد استبدل بهم غيرهم؛ فبعث النبي ﷺ يجدد ملة إبراهيم عليه السلام ويرفع شعار التوحيد، ويقيم الدين، ويخرج أمة الإسلام؛ بل صارت نجاة من بقي من البقايا أن يكون تابعاً للنبي ﷺ الذي قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»[٣].

---

٢. مسلم [٥٢١٨] عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.
٣. مسلم [٢٤٤] عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والأمر عجيب.. ألم يكن منهم مؤمنون؟ ألم يكن وجودهم سابقاً؟ لماذا لم يكونوا هم المتبوعين؟ ولماذا كانت هناك حاجة إلى رسالة جديدة تصير نجاتهم أن يكونوا لها تابعين فيكونوا بذلك امتداداً لغيرهم ولا يكون غيرهم امتداداً لهم من هذه الجهة؟!



سبب الاستبدال

السبب هو أنهم لم يكونوا قادرين على التغيير ولم يحملوا رسالة تغييرية؛ بل كانوا كما قال الحبيب ﷺ: «بقايا»، وهذه اللفظة تشعرك أن هناك شيئاً ينتهي، وهذه آخر البقايا.. قبل النهاية.

يشهد لذلك ما جاء في قصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه فإنه لما لقي واحداً من هؤلاء البقايا، وكاد أن يموت، قال: إلى من توصي بي؟ فدله على ثانٍ، فلما كاد أن يموت قال: إلى من توصي بي ؟ فدله على ثالث، فلما كاد أن يموت، قال: إلى من توصي بي؟ فدله على رابع، فلما كاد أن يموت، قال: إلى من توصي بي؟ فقال له: «والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس»، وأخبره بقرب بعثة النبي ﷺ وحثه على طلب أرضه التي يهاجر إليها ليكون من أوليائه وأنصاره[٤].

وهذا وصف البقايا؛ فالبقايا كان عندهم بقية من إيمان، لكنهم لم يكونوا يملكون قوة التغيير.

البعثة.. برسالة تغييرية

ولا أعني بقوة التغيير هنا القوة المادية، لأن النبي ﷺ عندما بُعث لم تكن عنده القوة المادية لكنه كان يملك القوة النفسية وروح التغيير، وهذه الروح هي التي بُعث بها النبي ﷺ؛ لذلك نجد في الحديث نفسه قول الله للنبي ﷺ: «إنما بعثتُك لأبتليك وأبتلي بك»[٥]. فأنت سوف تكون في اختبار حينما تريد تغيير الناس، والناس يرفضون التغيير، وهم أيضاً يُمتحنون بما تحدثه في حياتهم من تغيير.

---

٤. حسن: رواه أحمد [٢٣٧٨٨] عن سلمان رضي الله عنه، وحسنه الأرنؤوط في تحقيقه.

٥. مسلم [٥٢١٨] وقد سبق.

بل ورد في الحديث ذكر لأعنف وأعلى صور التغيير حين قال ﷺ: «إن الله أمرني أن أحرق قريشاً»، فهذه الألفاظ غاية في القوة، وهي تفيد تغييراً كاملاً لواقع فاسد، وتنشئ بدلاً عنه واقعاً جديداً صالحاً.

من يؤدي المهمة الصعبة؟

ولما لم تكن المهمة سهلة، نجد أن النبي ﷺ يحكي استعظامه لهذه المهمة: «قلت: رب إذاً يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة». أي: كيف أغير قريشاً هذه كلها وحدي؟! كيف أقدر على هدم كل هذا الباطل، وأبني مكانه صرح الحق من جديد؟! فأمره الله تبارك وتعالى أن يكون له على التغيير أعوان.

فالتغيير ليس مهمة النبي ﷺ وحده، بل هو مهمته ومهمة أتباعه، ولذلك قال الله له في الحديث: «قاتل بمن أطاعك من عصاك». فهذا التغيير الشامل لن تفعله وحدك، إنما المؤمنون الذين يطيعونك سيكونون معك حرباً في هذا التغيير على من عصاك. ووعده الله عز وجل بالمدد فقال: «اغزهم نغزك، وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله».

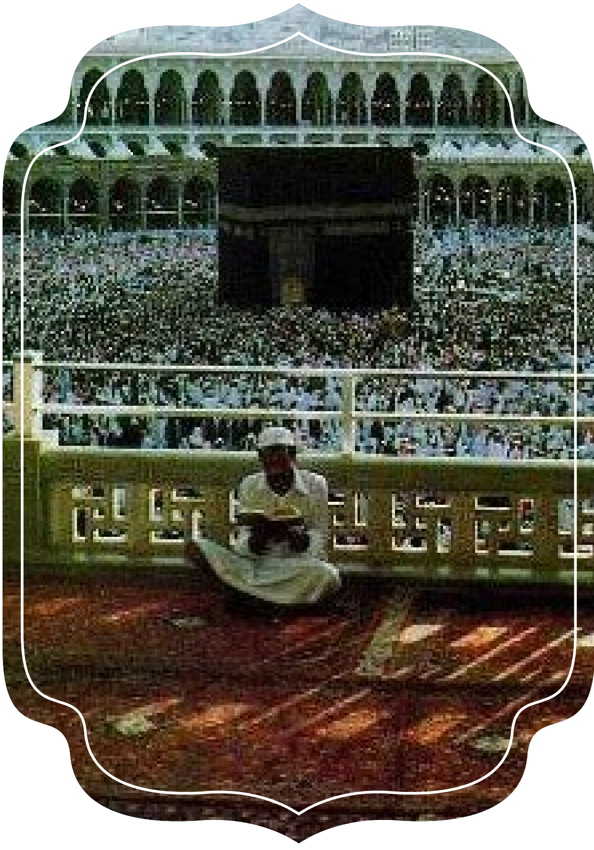
المقارنة الكاشفة للتميز بالتغيير

إن من يريد فَهم هذا المعنى الذي نقرره، عليه أن يتأمل الحديث الشريف، حديث نزول الوحي على النبي ﷺ أول مرة.. هل عرف الوحي أم أنكره؟ هل اطمأن إليه أم خاف منه؟ حين ذهبت به خديجة رضي الله عنها إلى ورقة بن نوفل، ألم يكن عند ورقة بن نوفل في هذه اللحظة من العلم ما لم يكن عند النبي ﷺ ولذلك قال له: «هذا الناموس الذي نزل الله على موسى»[٦]؟

ففي هذه اللحظة عرف ورقة الأمر، والنبي ﷺ لم يعرف. وورقة اطمأن واستبشر، بينما كان النبي ﷺ خائفاً.. بل وعرف ورقة بقية الطريق، قال: «يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أوَ مُخرجيّ هم؟» قال: نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً».

٦. متفق عليه، البخاري [٣] ومسلم [٢٥٧] عن عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين.

وهنا سؤال مهم: ألم يكن عند ورقة بن نوفل مثل ما جاء به النبي ﷺ وكان من البقايا المؤمنة؟! فلماذا لم يُعادِ أهل مكة ورقة بن نوفل، وقد عاش في مكة حيناً من الزمن، وهم يعلمون أنه مخالف لدينهم، مع ما عنده من العلم والإيمان، لدرجة أنه ثبّت النبي ﷺ وبشره؟!



السبب أنه لم يكن يمثل حركة تغييرية في مكة، إنما كان إنساناً له خياراته التي يعيش بها، وورقة قد عرف أنه بقية من البقايا، وأن الدور التغييري الكبير الذي سيفعله النبي ﷺ هو مثل الدور الكبير الذي قام به موسى عليه السلام مع بني إسرائيل بالبناء، ومع فرعون الذي مثل رمز الطاغوتية المضادة بالهدم، ولهذا شبهه به.

بل إن مما يجدر ذكره، أن هذا التشبيه ليس موجوداً عندنا في الوحي فحسب، بل هو موجود أيضاً في بشارات أهل الكتاب، فنجد فيها تشبيه النبي ﷺ بموسى وأنه يخرج لبني إسرائيل مِن بني عمومتهم مَن يصنع كما صنع موسى عليه السلام. ولا تَصدُق هذه النبوءة إلا على سيدنا محمد ﷺ الذي خرج من بني عمومتهم بني إسماعيل، وأحدث تغييراً هائلاً في حياة الجماعة البشرية كالذي أحدثه موسى عليه السلام.

أما ورقة بن نوفل فإنه لم يُواجه العداوة مع إيمانه وعلمه بالحق، لأنه لم يكن تغييرياً، لم يعمل على إحراق باطل قريش. لكنه عرف أن النبي ﷺ سيقود حركة تغييرية في المجتمع المكي وفي هذا الوجود الإنساني، ولذلك سيُعادَى وسيُخرَج.

الوجود الصحيح

ومثّل ورقة الوجود الصحيح للبقايا حين قال: «وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً».

فأكون تابعاً لك، ناصراً لأمرك، فهذا هو الدور الذي بقي لهم ليؤدوه في الحياة. أما الدور الذي تميز به النبي ﷺ وكان جوهراً لرسالته، فهو تغيير الحياة الإنسانية، ولأجل هذا كانت الدعوة، وكان الجهاد،

وكان التغيير في كل مناحي الحياة. بل قد كانت حياته ﷺ كلها جهاداً ودفعاً وتغييراً، واستمر هذا الأداء الرسالي إلى أن قُبض النبيﷺ.

والوجود الصحيح للأمة هو الذي يكون امتداداً لوجود النبي ﷺ. لذلك يحفظ الوجود الصحيح للأمة بالطائفة الظاهرة على الحق المنصورة، حتى إن الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم لما ذكر حديث الطائفة، قال: «فيه دليل لكون الإجماع حجة وهو أصح ما استدل به له من الحديث»[٧]. لأنه إذا حصل الإجماع، فمن المؤكد أن الطائفة المنصورة مع من أجمع، وهي ظاهرة على الحق، فيكون هذا الذي أجمع عليه هو الحق. فهم الامتداد العظيم للنبي ﷺ ولرسالته في الأمة.

طائفة .. تحمل الرسالة التغييرية



وإذا رأينا أحاديث الطائفة المنصورة، نجد فيها معاني الرسالة التغييرية، فمن ذلك:

أولاً: ربط دور الطائفة بالفقه في الدين

ففي إحدى الروايات عن النبي ﷺ في أحاديث الطائفة: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة»[٨].

فإذا تساءلنا عن سر الربط بين دور الطائفة وبين الفقه في الدين؟ كان الجواب أن الفقه في الدين أخص من مجرد حمل الدين،

---

٧. شرح النووي على مسلم [٦٩/١٣] ط. دار المعرفة- بيروت، الخامسة ١٤١٩هـ.

٨. مسلم [٣٦٤١] عن معاوية رضي الله عنه.

أو معرفته، أو نقله، ففي فقهه مزيد خصوصية في فهمه، وهذا الفهم يشمل ابتداء فهم دوره التغييري بشكل سليم. ولذلك فرق النبي ﷺ بين النقل والفقه، فلما حث على البلاغ وهو مطلق النقل، قال: «فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى مَن هو أفقه منه»[٩]. فالطائفة تمتاز بفقه الدين، فهي تفهم الدور الرسالي للأمة المسلمة المؤتمنة على هذا الدين في الأرض.

ثانياً: انعكاس ذلك الفهم على ممارستها التغييرية



فهي ظاهرة على الحق، معلنة له، تحمل وتتكبد تكاليف إقامة الحق وحفظه، بل هي تقاتل على الحق، كما في روايات كثيرة من الأحاديث: «يقاتلون على الحق» وفي لفظ آخر: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»[١٠]. فهذه الطائفة تمثل العصمة للأمة لقربها من النموذج النبوي في فهم الدين، وأداء دوره الرسالي، بإظهار الحق وتغيير الحياة على مقتضى هذا الحق، ويستمرون في ذلك إلى آخر الزمان.

أما عن خصوصية ذِكر الدجال، فلأن فتنة الدجال كما قال النبي ﷺ: «والله ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أعظم من الدجال»[١١] وقال: «إن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا حذر أمته الدجال، وإني آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة»[١٢]. والنبي ﷺ أخبر عن أثره على الناس فقال: «ليفرن الناس من الدجال في الجبال»[١٣]. لكن الطائفة تجتمع لقتال الدجال، فهي لا تجتمع للفرار من الدجال، ولا للمحافظة على دينها وفقط، بل لقتاله، لأنها امتداد للدور الرسالي الذي قام به النبي ﷺ أول مرة.

---

٩. صحيح: رواه أحمد [٢١٠٦٦] عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، وصححه الألباني في المشكاة [٢٢٩].
١٠. صحيح: رواه أبو داود [٢١٣٨] وأحمد [١٩٤٨٤] عن عمران بن حصين رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٢٤٨٤].
١١. صحيح: رواه أحمد [١٦٢٩٩] عن هشام بن عامر رضي الله عنه، وصححه الأرناؤوط في تحقيقه.
١٢. صحيح: المستدرك [٨٧٠٤] عن صدى بن عجلان رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٧٨٧٥].
١٣. مسلم [٥٣٥٠] عن أم شريك رضي الله عنها.

وبينما هم مجتمعون لقتال الدجال، وأقاموا الصلاة ليصلي بهم إمامهم، ينزل عليهم عيسى عليه السلام ويقودهم، ويقتل الله على يده الدجال[١٤]. ولكن هل تأملتم على من نزل عيسى عليه السلام؟! إنه لم ينزل على هؤلاء الذين فروا يطلبون النجاة بإيمانهم، مع علو ما قاموا به من خير، لكنه نزل على المجتمعين لقتال الدجال. وتأملوا هذا الفقه للدين.. إنهم يعلمون أن الدجال لن يُقتل حتى نزول عيسى عليه السلام فإنه لا يقتل الدجال إلا عيسى، فالمنتظر أنهم يجلسون وينتظرون نزول عيسى عليه السلام؛ لكنهم فقهوا أن من قعد لا ينزل عليه النصر، إنما يتنزل النصر على من تجهز للقتال وسار في الطريق، لا على من نأى في الجبال ولا على من جلس ينتظر الوعود، من غير أن يعد لها عدتها. إن هؤلاء هم الطائفة الظاهرة، وهم الامتداد الصحيح للنبي ﷺ.



ولذلك لما ذكر العلماء خاصية هذه الأمة، والتي حازت بها الشرف في الآية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقِفوا هنا.. لِمَ قدّم الأمر والنهي عن الإيمان؟! مع أن الإيمان هو الأصل لكل خير، والإيمان هو الأعظم بالقياس إلى كل خير، فلماذا أخّر ذكره ههنا؟!

---

١٤. مسلم [٥٣٣٩] عن النواس بن سمعان رضي الله عنه.

لأنه قد يوجد إنسان عنده أصل الإيمان، لكنه لا يتم له إيمانه الذي يجعله يحمل روح الإسلام التغييرية، فيقصر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا يخسر من الخيرية بقدر ما قصر في الأمر والنهي. كالبقايا.. كان عندهم بقية إيمان، لكنهم لم يكونوا آمرين بالمعروف ولا ناهين عن المنكر، فامتازت هذه الأمة وكانت خاصية رسالتها الكبرى، أنها أمة ترث دور نبيها ﷺ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للناس جميعاً.

فهذه الرسالة، وهذه الروح، هي حقيقة بعثة النبي ﷺ وهي حقيقة دين الإسلام، وهي حقيقة الوجود الإيماني الذي يمتد آخر الزمان. فإذا وصلنا إلى آخر الزمان، وتناقص الإيمان، وما بقيت هناك قوة على ذلك التغيير، إنما بقيت من هذه الأمة بقايا مؤمنة ضعيفة فيبعث الله عز وجل عليهم ريحاً طيبة تقبض كل نفس مؤمنة. فيبقى في الأرض شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة، لأن الدنيا حينها تكون قد فقدت دورها «إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك». فإذا غاب الوجود الإيماني الرسالي التغييري، وغاب المؤمنون، فلا بد أن تغيب الدنيا، وتنتهي الامتحانات، ويبدأ الجزاء الأخروي بعد ذلك.

ثالثاً: حالهم مع الناس وحال الناس معهم

فقد وصف النبي ﷺ تلك الحال فقال: «لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون»[١٥].

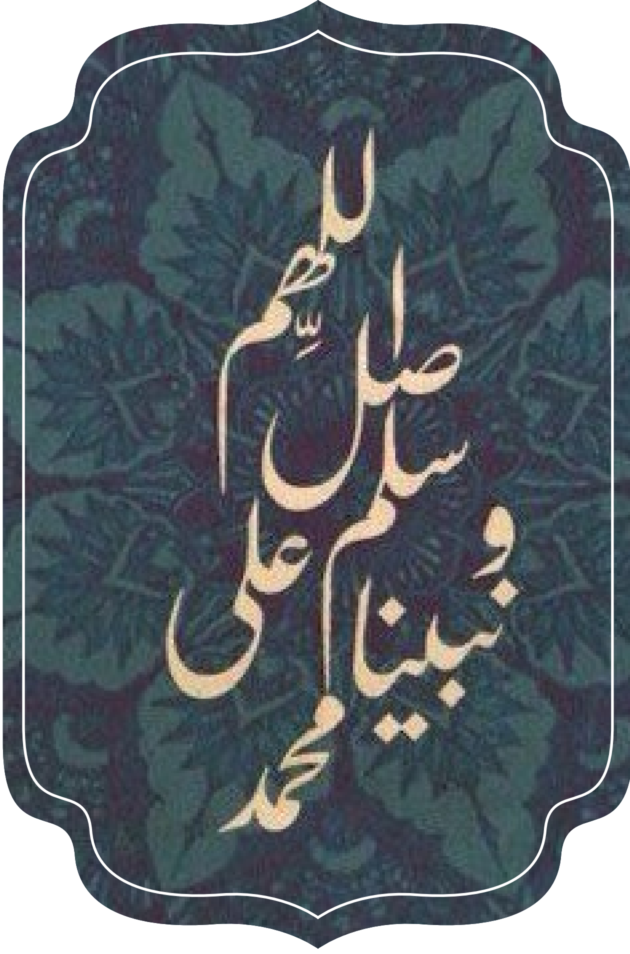
أما لماذا يخذلهم خاذل ويخالفهم مخالف؟ فلأنهم يتحملون الأمر الثقيل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]. إنهم يحملون وراثة «إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك». إنهم يحملون رسالة تغييرية للحياة، وليست رسالة توافقية مع الحياة، ولذلك يكثر مخالفوهم «ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي».

”أما من غيّر وانحرف، فقد خرج بانحرافه عن العداء، بقدر ما خرج عن الصراط المستقيم. بل إن كثيراً من هؤلاء المنحرفين كانوا يفاخرون بحسن علاقتهم بمن يجب عليهم شرعاً أن يعادوهم! فخرجوا بذلك عن خط العداء.. عن خط الاستقامة.. عن خط التغيير.. عن خط النبي ﷺ الذي اختطه لهذه الأمة إلى آخر الزمان.. عن الخط الذي به يُحفظ الدين، وبه تُحفظ الأمة، وحين يغيب توشك شمس هذه الأمة أن تغيب؛ بل توشك شمس الحياة الإنسانية كلها أن تغيب.“

(١٥) مسلم [٣٦٤٠] عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

بين خاذل.. ومخالف

فلماذا إذن ذكر رسول الله ﷺ الخاذل قبل المخالف: «خذلهم أو خالفهم»؟



لأن الخاذل يُحدث من النكاية في القلب أشنع مما يحدث المخالف، فالمخالف يعاديك، يقول لك: أنت مخطئ. فهناك انفصال بينكما منذ البداية. لكن الخاذل يقول لك: ما أحسن هذا الكلام وما أجمل هذه الحياة.. لكن لك أنت.. وليس لي أنا.. هذا عمل عظيم.. لكن قم أنت به.. وادفع أنت ثمنه.. وحدك.. أنا لن أسير معك في هذا الطريق.. أنا لن أتحمل شيئاً من تكاليف هذا التغيير.. أنا لا أريد أن أخاطر بشيء من مكتسباتي ومعاشي الدنيوي.

إذاً ما أكثر الخاذلين، الذين كنت تنتظر أن يكونوا لك ناصرين، لأنهم في الأصل موافقون، وليسوا مخالفين، لكنهم إذا حان وقت النصرة.. خذلوا.. وتركوا.. وباعوا.. لتدفع الطائفة الظاهرة على الحق الثمن وحدها، وتستحق بذلك الشرف والمنزلة وحدها، بأن تكون ذلك الامتداد الكريم للنبي ﷺ في هذه الأمة، بل وفي الناس، بحملها راية الإسلام، وحقائق الدين، وروح التغيير للحياة الإنسانية، لتكون على مقتضى إرادة الله سبحانه وتعالى وشرعه الذي يحبه لخلقه أجمعين.

إن حقيقة الرسالة التغييرية للإسلام، وحقيقة تفاوت الناس في فقهها والعمل بمقتضاها، حقيقة أولية سيظل الناس يفترقون ويختلفون بسببها، فيظل من الناس وراث للنبي ﷺ أتباع للطائفة الظاهرة، أو أئمة فيها.. ويظل من الناس خاذل.. وخاذل.. وخاذل، ويظل من الناس مخالف.. ومخالف.. ومخالف.

خطورة غياب الرسالة التغييرية

وتزداد قيمة وعي هذا الدور الرسالي للنبي ﷺ ولأمته من بعده، إذا استحضرنا خطورة غياب الدور الرسالي التغييري للإسلام، في ظل معركة قدرية مفروضة: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]. معركة لا يترك فيها العدو باباً يمكن أن يدخل منه إلا ودخل: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧]. معركة ترى فيها: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

الدين.. بين الصد والتحريف



إن سبيل أعداء الدين مع الدين ليست دائماً سبيلاً واحدة، لكن لهم مسالك مختلفة، والله تبارك وتعالى ذكر لنا ذلك في القرآن، فقال عنهم إنهم: ﴿يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٤٥]. فالصد شيء، وابتغاؤها عوجاً شيءٌ آخر.

فهم ابتداءً يصدون عن سبيل الله، فلا يريدون لأحد أن يدخل سبيل الله، ولا يريدون لأحد أن يتمثل وراثة النبي ﷺ، إنهم لا يريدون من الناس أن يسيروا في هذا الطريق ابتداءً، حتى إنه في بداية التسعينات كانت هناك خطة لمقاومة التدين في مصر، وكانوا يسمونها خطة تجفيف المنابع، وهذه تسميتهم وهدفها واضح من اسمها، وهو ألا تنبت الأرض بعد ذلك حركة إسلامية أبداً.

فيأبى الله ولا تجف المنابع بفضل الله، فالله يهدي من يشاء، وليس بيد أحد من البشر أن يمنع هذه الهداية الربانية، مصداقاً لقول النبي ﷺ: «لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم بطاعته»[١٦]. فهي خير أمة، يهدي الله فيها قلوباً، ويصلح فيها رجالاً، ويحدث بهم تغييراً.

---

(١٦) المسند (١٧٧٨٧)، ابن ماجه (٩)، ابن حبان (٣٢٦).

فإذا شعروا أنهم لا يقدرون على منع الطوفان، حاولوا أن يحرفوه عن مساره، ليصب في صالحهم، بعد أن كان في طريقه ليقتلعهم فهم: ﴿يَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يريدونها عوجاً. وأي شيء هذا الذي يطلبون أن يكون معوجاً؟ إن الضمير يعود على سبيل الله، فإن كان لا بد أن يكون هناك سبيل لله، فليكن ذلك، ولكن لتكن تلك السبيل معوجة، لكي نقبلها بيننا.

من أشنع صور التحريف المعاصرة



ويبقى السؤال: كيف يبغونها عوجاً؟!

إن من أشنع ما بغوه من العوج خلال العقدين السابقين هو نزع الروح التغييرية من التدين، ومن مفهوم الإسلام عند أهله، فالناس تنتمي للإسلام انتماءً مسالماً لأعدائه.. متعايشاً مع مختلف الظروف.. شخصياً بدرجة كبيرة.. يصلح الإنسان فيه في خاصة نفسه بعض الصلاح، لكنه أبداً لا يكون اهتداءً لنفسه وللناس.. إنه أبداً لا يقاتل على الدين.. إنه أبداً لا يكون تغييرياً في هذه الحياة.. فهو متعايش مع كل صور الباطل والظلم والفساد والانحراف الموجودة.. إنه يعيش بجوارها دون المدافعة الواجبة شرعاً.

قد يسأل سائل: وهل كان الكل إلا متعايشاً بجوارها، لأنه لا يملك دفعها؟!

والجواب في تفريق الشرع، حين فرق بين أن تكون ممتلئاً غيظاً على الباطل، ممتلئاً رغبة في إزالته، وأنت لا تقدر، وبين أن تكون مطمئن النفس، هادئ البال، وأنت تعيش بجواره، فهذا هو التعايش المذموم، وهذا هو العوج والتدين المشوه. فهو تدين يكون عوناً للباطل، ولو بالسكوت والتزيين، ولا يكون عوناً للمظلوم، ولا يكون نصرةً للحق، ولا يكون أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وتغييراً لحياة الناس، وراثةً للنبي ﷺ.

الفارق أثبته النبي ﷺ حين قال: «فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[١٧]. وفي رواية أخرى: «وذلك

١٧. مسلم [٩٦] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

أضعف الإيمان»[١٨]. فهناك إذاً حد فارق بين من لم يتكلم لكنه رافض، فرفضه هذا جهاد وتغيير، وعلامة صدق قلبه الرافض أنه إذا استطاع أن يتكلم فسيتكلم، وإن استطاع أن يغير فسيغير، وأنه ليس مطمئناً، ولا راكناً إلى مكاسب الحياة في ظل هذا الوضع الباطل.

أما الذي لا ينكر بقلبه، فهذا لم يبق شيء من الإيمان ليعمله في ظل ما امتحن به، من هذا القدر الرباني، فالإيمان الذي كان مطالباً به هنا هو الإنكار والتغيير، فلما زال إنكار القلب، زال مقابله من الإيمان في نفس الإنسان، وعلامة ذلك أنه يتبدى ركونه للباطل، ولو في فلتات لسان.. يتبدى ولو في مواقف عارضة. فإن الناس يفرقون بين الساكت مع الغيظ، وبين الراكن والمتواطئ، وكل إنسانٍ يفرق بين هذه الحال وبين الحال الأخرى من نفسه.

إنه الطريق

وليس مقصودنا إقامة محكمة جماعية أو فردية للناس، إنما مقصودنا أن نعرض أنفسنا والمسلمين، وأن يخاف كلٌ منا على نفسه، وأن يتبصر: أين هو من وراثة النبي ﷺ؟ وأين هو من ذلكم الامتداد الكريم للطائفة الظاهرة على الحق المنصورة؟ أين هو منهم ومن رسالتهم التغييرية للحياة؟

إنه الطريق الصعب في ظاهره، لكنه الطريق الذي وعد أهله بالنصر: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]. الطريق الذي وعد أهله بالتثبيت: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [إبراهيم: ٢٧]. الطريق الذي وعد أهله بالهداية ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. الطريق الذي وعد أهله برضا الله سبحانه وتعالى والأمان من النفاق في الدنيا، والأمان عند الموت، والأمان في القبر، والأمان يوم الفزع الأكبر كما سماه الله سبحانه وتعالى.

نعم إننا ننتظر يوم الفزع الأكبر، ولكن في ذلك اليوم سيأمن ناس طالما خافوا في الدنيا، وخُوفوا في الدنيا، هؤلاء هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

والموعد عند رب العالمين قريب.

١٨. مسلم [٩٥] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الصدقة المتعثرة



د. عمر بن عبد الله المقبل *

فكّ الله أسره

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فبينما يقلب المسلم سيرة النبي ﷺ لا ينقضي عجبه من جوانب العظمة والكمال في شخصيته العظيمة صلوات ربي وسلامه عليه. ومن جوانب تلك العظمة: ذلك التوازن والتكامل في أحواله كلها، واستعماله لكل وسائل تأليف القلوب وفي جميع الظروف.

---

* د. عبد الله المقبل، مقال: الصدقة المتعثرة، موقع (طريق الإسلام)، ٢٠١٤م، رابط إلكتروني: iswy.co/e12qnf.

ومن أكبر تلك الوسائل التي استعملها ﷺ في دعوته، هي تلكم الحركة التي لا تكلِّف شيئًا، ولا تستغرق أكثر من لمحة بصر، تنطلق من الشفتين؛ لتصل إلى القلوب، عبر بوابة العين، فلا تَسَل عن أثرها في سلب العقول، وذهاب الأحزان، وتصفية النفوس، وكسر الحواجز مع بني الإنسان!

تلكم هي الصدقة التي كانت تجري على شفتيه الطاهرتين: إنها الابتسامة! الابتسامة التي أثبتها القرآن الكريم عن نبي من أنبيائه، وهو سليمان عليه السلام حينما قالت النملة ما قالت! إنها الابتسامة التي لم تكن تفارق مُحيا رسولنا ﷺ في جميع أحواله، فلقد كان يتبسم حينما يلاقي أصحابَه، ويبتسم في مقام القضاء، بل حينما يجد من البعض جفوةً وغلظة!

بل ويبتسم ﷺ حتى في مقام القضاء! فهذا جرير رضي الله عنه يقول كما في الصحيحين: ما حَجَبني رسولُ الله ﷺ منذُ أسلمتُ، ولا رآني إلا تَبَسَّم في وجهي[1].

ويأتي إليه الأعرابي بكل جفاء وغلظة، ويجذبه جذبة أثرت في صفحة عنقه، ويقول: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ! فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ[2].

ومع شدة عتابه ﷺ للذين تخلفوا عن غزوة تبوك؛ لم تغب هذه الابتسامة عنه وهو يسمع منهم، يقول كعب رضي الله عنه بعد أن ذكر اعتذار المنافقين وحلفهم الكاذب: جِئْتُهُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ «تَعَالَ» فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ...[3].

١. (ح ٣٠٣٥)، مسلم (ح ٢٤٧٥).
٢. البخاري (ح ٣١٤٩)، مسلم (ح ١٠٥٧).
٣. البخاري (ح ٤٤١٨)، مسلم (ح ٢٧٦٩).

- ويسمع أصحابَه يتحدثون في أمور الجاهلية وهم في المسجد فيمر بهم ويبتسم!

بل لم تنطفئ هذه الابتسامة عن محياه الشريف وثغره الطاهر حتى في آخر لحظات حياته، وهو يودع الدنيا ﷺ، يقول أنس كما في الصحيحين: بينما الْمُسْلِمُونَ فِي صَلاةِ الْفَجْرِ مِنْ يَوْمِ الاِثْنَيْنِ وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي لَهُمْ لَمْ يَفْجَأْهُمْ إِلاَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ كَشَفَ سِتْرَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ فِي صُفُوفِ الصَّلاةِ ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ[٤].

ولهذا لم يكن عجيبًا أن يملك قلوبَ أصحابه، وزوجاته، ومن لقيه من الناس! لقد شقّ النبيُّ ﷺ طريقَه إلى القلوب بالابتسامة، فأذاب جليدَها، وبثّ الأمل فيها، وأزال الوحشة منها، بل سنّ لأمته وشرع لها هذا الخلق الجميل، وجعله من ميادين التنافس في الخير، فقال: «وتبسمك في وجه أخيك صدقة»[٥].



> ومع وضوح هذا الهدي النبوي ونصاعته، إلا أنك ترى بعضَ الناس يجلب إلى نفسه وإلى أهل بيته ومَن حوله الشقاءَ بحبس هذه الابتسامة في فه ونفسه. إنك تشعر أن بعض الناس من شدة عبوسه وتقطيبه وكأنه يظن أن أسنانه عورةٌ من قلة ما يتبسم! فأين هؤلاء عن هذا الهدي النبوي العظيم؟!

نعم.. قد تمر بالإنسان ساعات يحزن فيها، أو يكون مشغول البال، أو تمر به ظروف خاصة تجعله مهتمًا، لكن أن يكون الغالب على حياة الإنسان التكشير، والانقباض، وحبس هذه الصدقة العظيمة؛ فهذا والله من الشقاء المعجّل لصاحبه عياذًا بالله.

إن بعض الناس حينما يتحدث عن الابتسامة يربط ذلك ببعض الآثار النفسية الجيدة على المبتسم، وهذا حسن، وهو قدر يشترك فيه بنو آدم، إلا أن المسلم يحدوه في ذلك أمرٌ آخر، وهو: التأسي به ﷺ والاقتداء به، وستأتيه الآثار النفسية والصحية التي تُذكر في هذا المجال.

---

٤. البخاري (ح ٧٥٤).

٥. صحيح ابن حبان (ح ٤٧٤)، سنن الترمذي (ح ١٩٥٦).

لقد أدرك العقلاءُ من الكفار والمسلمين أهميةَ هذه الابتسامة، وعظيمَ أثرها في الحياة. يقول ديل كارنيجي في كتابه المشهور (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس):

«إن قسمات الوجه خير معبِّر عن مشاعر صاحبه، فالوجه الصبوح ذو الابتسامة الطبيعية الصادقة خير وسيلة لكسب الصداقة والتعاون مع الآخرين، إنها أفضل من منحة يقدّمها الرجل، ومِن أرطال كثيرة من المساحيق على وجه المرأة، فهي رمز المحبة الخالصة والوداد الصافي».

ويقول: «لقد طلبت من تلاميذي أن يبتسم كل منهم لشخص معيَّن كل يوم في أسبوع واحد. فجاءه أحد التلاميذ من التجار، وقال له: اخترتُ زوجتي للابتسامة، ولم تكن تعرفها مني قط، فكانت النتيجة أنني اكتشفت سعادة جديدة لم أذق مثلها طوال الأعوام الأخيرة! فحفزني ذلك إلى الابتسام لكل من يتصل بي، فصار الناس يبادلونني التحية، ويسارعون إلى خدمتي، وشعرت بأن الحياة صارت أكثر إشراقًا وأيسر منالًا، وقد زادت أرباحي الحقيقية بفضل تلك الابتسامة...».

إلى أن قال: «تذكر أن الابتسامة لا تكلِّف شيئًا، ولكنها تعود بخير كثير، وهي لا تُفقِر من يمنحها مع أنها تُغني آخذيها! ولا تنس أنها لا تستغرق لحظة، ولكنها تبقى ذكرى حلوة إلى آخر العمر. وليس أحد فقيرٌ لا يملكها، ولا أحد غني مستغن عنها». انتهى كلامه.

كم نحتاج إلى إشاعة هذا الهدي النبوي الشريف، والتعبد لله به: في ذواتنا، وبيوتنا، مع أزواجنا، وأولادنا، وزملائنا في العمل، فلن نخسر شيئًا، بل إننا سنخسر خيرًا كثيرًا دينيًا ودنيويًا حينما نحبس هذه الصدقة عن الخروج إلى واقعنا المليء بضغوط الحياة.

إن التجارب تثبت الأثَرَ الحسن والفعّال لهذه الابتسامة حينما تسبق تصحيح الخطأ، وإنكار المنكر. جاء في ترجمة الموفق ابن قدامة رحمه الله صاحب كتاب (المغني) أنه كان لا يناظر أحدًا إلا وهو يتبسم، حتى قال بعضُ الناس: «هذا الشيخ يقتل خصمَه بتبسمه».

وبعد: فإن العابس لا يؤذي إلا نفسه، وهو بعبوسه يحرمها من الاستمتاع بهذه الحياة، بينما ترى صاحبَ الابتسامة دائماً في ربح وفرح.

.. خيرُ قلبٍ ..



م. أيمن عبد الرحيم*

فكّ الله أسره



إن النبي ﷺ هو والأنبياء من قبله، هم رحمة الله عز وجل للناس، فلما أراد الله عز وجل أن يرحم الناس أرسل إليهم الرسل، ولما أراد أن يرحمهم إلى يوم الدين، أرسل محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

---

* المقال مقتبس من المحاضرة الأولى بسلسلة السيرة النبوية للمهندس أيمن عبد الرحيم، موقع يوتيوب، رابط إلكتروني shorturl.at/biuV7.

عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ»[١]. أي كل رزق رزقته لعبدي فهو حلال، أي أن الله عز وجل كتب أرزاق العباد حلال، وإن هم استعجلوا أرزاقهم بالحرام مُنع عنهم الحلال وإن كُتب، فلو سرق شخص مليون جنيه، هذا المليون كان مكتوباً له في الأصل.



«وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ». فقد خلق الله عز وجل عباده كلهم حنفاء، والحنيف: هو المائل عن الباطل إلى الاستقامة فهو مستقيم، أي أن الله خلق كل العباد على الفطرة والتوحيد، ثم اجتالتهم الشياطين، فالشياطين هي التي أدخلت على الناس الشرك، والوثنية، وإنكار وجود الله عز وجل، والإلحاد... إلخ

«وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا». وهذا فعل الشياطين مع بني آدم.

«وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ». فإن الله عز وجل قبل بعثة النبي ﷺ وبعد بعثة عيسى عليه السلام، أي ستمائة سنة، كان كل الناس على الأرض، العرب والعجم، كانوا على الشرك والوثنية، إلا بقايا من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، كانوا على دين، أي كانوا على الإسلام، وما من نبي إلا أرسله الله عز وجل بالإسلام، والإسلام أن يسلم الإنسان نفسه لله عز وجل بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، لو بُعث فيه، فالإنسان يؤمن بالنبي الذي بُعث فيه وأن يأخذ على نفسه عهداً أن يؤمن بمحمد لو رآه، وهذا شرط. كالمسلمين، فنحن نؤمن بالنبي ﷺ، ولا ننكر أي نبي من أنبياء الله الذين بعثهم إلى الناس، من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، على أنهم أنبياء وخير البشر.

---

١. رواه مسلم.

«وقال إنّما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماءُ، تقرؤه نائمًا ويقظان. وإنَّ اللهَ أمرني أنْ أُحرِّق قريشًا». أي أهلكهم، أي أهلك كفارهم. «فقُلْتُ ربِّ إذًا يَثْلغُوا رأسي فيدعُوه خُبْزَةً». أي لو قاتلتهم سيضربونني ويشجون رأسي ويدعونه خبزاً، أي كالخبز لو شقه الإنسان نصفين. سيشقون رأس النبي ﷺ لو قاتلهم وقد فعلوا. «قالَ: اسْتخرِجْهُمْ كما اسْتخرجُوك، واغزُهمْ نُغزِك، وأنفقْ فسَنُنْفق عليْك، وابعثْ جيْشًا نَبْعثْ خَمْسَةً مِثْلهُ، وقاتِلْ بِمَنْ أطاعَك منْ عَصَاك».



خير قلب

إن الله عز وجل إذا رأى عباده ضلوا يرسل إليهم الرسل حتى يعيدوهم إلى الجادة والتوحيد، فهذه وظيفة الرسل، والنبي ﷺ ليس بدعاً من الرسل، فهو نبي كإخوانه من الأنبياء، ولكنه يمتاز عن بقية الخلق بشيء. عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ[٢].

وكأن الله عز وجل لما نظر إلى قلوب العباد، اصطفى خير قلوب العباد وهو قلب محمد ﷺ، ولذلك عندما نتكلم عن النبي ﷺ فنحن نتكلم عن خير قلب نظر الله عز وجل إليه في قلوب عباده، أي أن الله عز وجل اختار هذا القلب، وقال هذا خير قلوب عبادي، واختار خير القلوب بعد محمد ﷺ فجعلهم أصحابه.

وعن عبد الله عباس رضي الله عنهما عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ قال: «هم محمد ﷺ وأصحابه».

٢. رواه الإمام أحمد وحسنه الأرناؤوط.

فعندما نتحدث عن سيرة النبي ﷺ، فنحن نتكلم عن رسول من الرسل، هو رحمة الله إلى الناس، ليرحمهم مما هم فيه من الشرك والبُعد عن طريق الله عز وجل الحق، كما نرى من عادات الجاهلية والوثنيات والشرك وكذا، أراد أن يرحمهم فبعث إليهم الرسل، ولما أراد أن يرحم الناس إلى يوم الدين، أرسل إليهم خير قلوب عباده إليه، وهو محمد ﷺ.

ففضل التعرف على النبي ﷺ هو:

١. التعرف على خير قلب في قلوب العباد.

٢. أنك إن تعرفت عليه أحببته، ولو أحببته أنجاك حب النبي ﷺ، وإن لم تعمل بعمله؛ فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا، قَالَ: لاَ شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، فَقَالَ: أَنْتَ مع مَنْ أَحْبَبْتَ، قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ، فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ، قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ»[٣].

- أن كل شيء يمس النبي ﷺ جسمانياً أو سمعياً أو حتى في السيرة فهو مطهر قلباً وقالباً.

٣. رواه البخاري.

٣ كان النبي ﷺ يخرج إلى الناس يمشي في الأسواق، كما وصفه الله عز وجل في القرآن، ليس ملكاً بل رجلاً من الناس، يمشي في الأسواق ويتزوج النساء، فليس سلوك ملك بل سلوك نبي، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: صَلَّيتُ مع رَسُولِ اللهِ ﷺ صلاة الْأُولَى، ثُمَّ خرج إِلَى أَهْلِهِ وَخَرَجْتُ معه، فَاسْتَقْبَلَهُ وِلْدَانٌ [مجموعة أطفال صغار] فَجَعَلَ يَمْسَحُ خَدَّيْ أَحَدِهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا [أي كل طفل يأتي إليه يمسح النبي ﷺ خده الأيسر والأيمن] قَالَ: وَأَمَّا أَنَا فَمَسَحَ خَدِّي [أي مسح خداً واحداً] قَالَ: فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا أَوْ رِيحًا كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ»[٤].



أي لما استشعر يد النبي ﷺ وجد لها برداً وريحاً، يقول: كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ، شيء مثل السلة يضع الناس فيها العطر، فكأن النبي ﷺ غمس يده في جؤنة عطار مملوءة مسكاً وأخرجها، فكان الخد الذي مسحه النبي ﷺ أحسن من الخد الآخر، أي بعد ذلك طول حياته كان الخد الذي مسه النبي ﷺ أفضل من الخد الآخر.

وسمع النبي ﷺ النابغة الجعدي ينشد:

وَلا خيرَ في حِلمٍ إذَا لَم تكُن لَهُ •• بَوَادِرُ تَحمي صَفوَهُ أَن يُكَدَّرا

فَفِي الحِلمِ خَيرٌ مِن أُمورٍ كَثيرةٍ •• وفِي الجَهلِ أَحياناً إِذا ما تَعَذَّرا

فقال له النبي ﷺ: لا فضّ الله فاك»، ومعنى لا فضّ الله فاك: أن الإنسان إذا كبر في السن تسقط أسنانه فهذا فض الفم، فظل الرجل بأسنانه حتى بلغ المائة من عمره أصابته دعوة النبي ﷺ، وهذا مشهور متواتر من خصائصه ﷺ الجسمانية، وكذا الخصائص القلبية، فمن تعلق قلبه بالنبي ﷺ والتزم هديه وسار معه دخل الجنة.

---

٤. رواه مسلم.

كيف علمنا النبي ﷺ اختيار الرجال؟

أنس السلطان*



فكّ الله أسره

نعرف أن اختيار الحاكم أو الوزير أو المسؤول الذي سيتولى مهمةً ما من مهام الأمة، يجب أن يتم بناء على معيارين أساسيين هما:

القوة والأمانة، أو الحفظ والعلم، أو العلم والجسم.

كما جاء في قول الله سبحانه وتعالى على لسان ابنة الرجل الصالح وهي تتحدث عن سيدنا موسى عليه السلام:

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [سورة القصص: ٢٦]

---

* أنس السلطان، مقال: قوي فاجر أم صالح ضعيف، موقع إضاءات، ٢٠١٦، رابط إلكتروني: shorturl.at/acdkv.

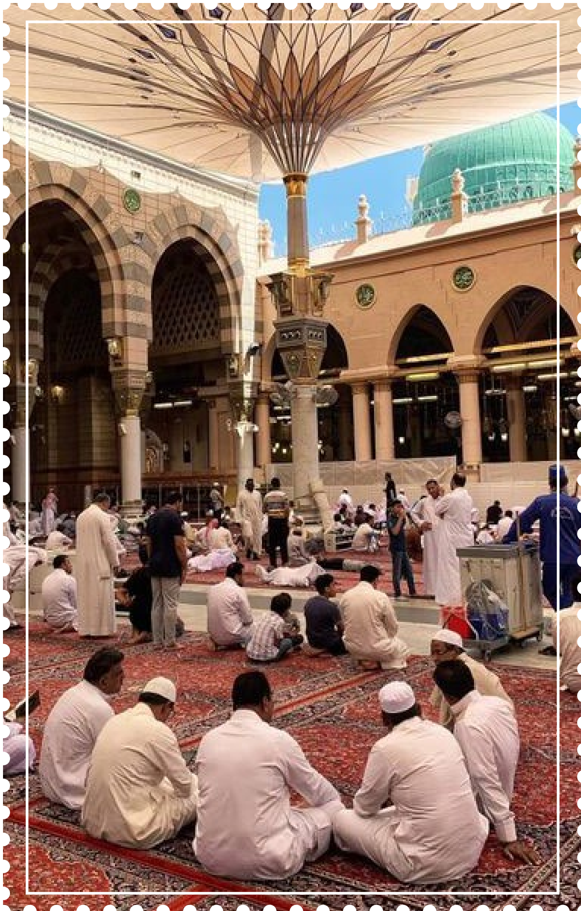
وكذلك ما جاء في قوله تعالى على لسان سيدنا يوسف وهو يخاطب عزيز مصر:

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف: ٥٥]

وكذلك ما جاء في قوله سبحانه على لسان نبي بني إسرائيل وهو يخاطب قومه مبينًا سبب اختيار طالوت ليكون ملكًا وقائدًا لهم:

﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٧]

فهاتين الصفتين -القوة والأمانة أو الحفظ والعلم أو العلم والجسم-، اجتماعهما في الناس قليل، فالغالب أننا نجد قوياً ناقص الأمانة، بل وقد نجد فيه فجورًا مع قوته! أو أمينًا ناقص القوة، بل وقد نجد فيه عجزًا ووهنًا مع أمانته. فماذا نفعل إذا كان الحال كذلك؟



هذه هي الأزمة التي عبر عنها الخليفة الراشد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال:

«اللهم إني أشكو إليك جَلَدَ الفاجر وعجز الثقة».

وأذكر أني سألت شيخنا الأستاذ الدكتور حسن الشافعي منذ سنوات عن أمرٍ ما، فأرشدني إلى كتاب مهم حول هذا الموضوع مكتوب بالإنجليزية وغير مترجم للعربية. ثم سألني إن كنتُ أُحسن القراءة بالإنجليزية، فأجبته بالنفي، فحزن لهذا، ووجهني لإتقان الإنجليزية لأن كثيرًا من الكتب النافعة والمهمة لا يمكن قراءتها الآن إلا بالإنجليزية!

ثم قال كلمة مهمة هي الشاهد المقصود هنا، قال: «تعلموا قبل أن تسودوا فقد طلبوا الكفاءات فلم يجدوها». هذا هو التحدي الذي يواجه أهل الاختيار، أنهم يجدون للمناصب المختلفة أشخاصًا أكفاء من

أهل الخبرة، لكنهم لا يؤتمنون على ولايات المسلمين ومصالحهم. على الناحية الأخرى، نجد أشخاصًا أمناء من أهل الثقة، لكنهم لا يقدرون على تحمل المسؤولية والقيام بالمطلوب منهم فيها على الوجه الأمثل.

وبالنظر إلى معياري الاختيار (القوة والأمانة) نجد أن القسمة العقلية باصطلاح المناطقة تنتج لنا أربعة اختيارات هي:

١) قوي أمين.

٢) قوي غير أمين.

٣) أمين غير قوي.

٤) غير أمين غير قوي.



فالأول إذا توفر وجب اختياره، لكن التحدي يقع عند عدم توفره، والأخير يجب استبعاده لكن التحدي الأصعب عند عدم توفر غيره، وهنا يكون الفساد المبير والشر المستطير. لكن بالنظر إلى ما عليه الغالب من أحوال الناس، نجد الترشيحات المتنوعة للولايات والوظائف المختلفة تدور بين الثاني والثالث، فاجر قوي أو أمين ضعيف.

فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها كما يقول ابن تيمية رحمه الله حيث قال:

«فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر أعظم قوة، قُدّم أنفعهما لتلك الولاية وأقلهما ضررًا فيها، فتقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع وإن كان فيه فجور فيها، على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أمينًا».

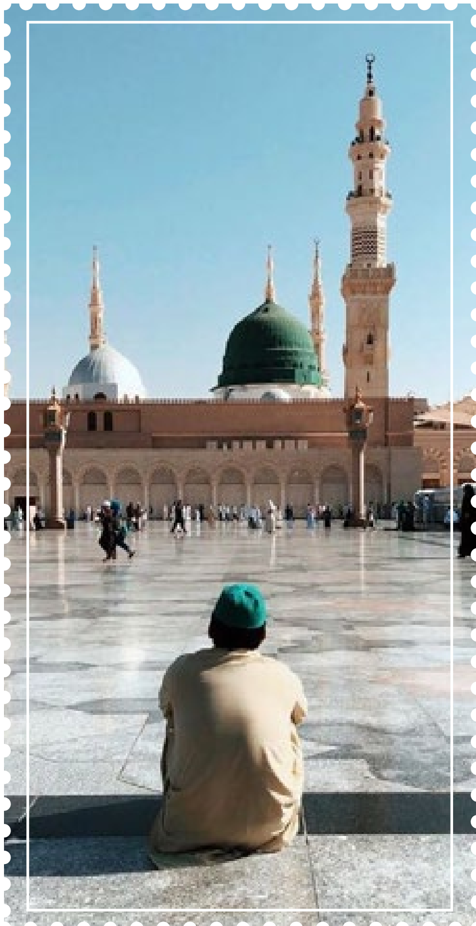
وقد سُئل الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، وأحدهما قوي فاجر والآخر صالح ضعيف مع أيهما يُغزى؟ فقال: «أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين، فيغزى مع القوي الفاجر، وقد قال النبي ﷺ: **«إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»** وفي رواية: **«بأقوام لا خلاق لهم»**».

ولأجل هذا نجد أن النبي ﷺ كان يستعمل خالد بن الوليد ويجعله قائداً لجند المسلمين في القتال منذ أسلم وقال ﷺ: «إن خالداً سيف سلّه الله على المشركين». ومن هنا جاء تلقيبه رضي الله عنه بأنه سيف الله المسلول، مع أنه أحياناً كان يعمل ما ينكره النبي ﷺ، إلى درجة أنه ﷺ رفع يديه إلى السماء يوماً وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد». لما أرسله إلى جذيمة فقتلهم، وأخذ أموالهم بنوع شبهة، ولم يكن يجوز ذلك، وأنكره عليه بعض مَن معه من الصحابة حتى وداهم النبي ﷺ وضمن أموالهم، ومع هذا فما زال يقدمه في إمارة الحرب لأنه كان أصلح في هذا الباب من غيره، وفعل ما فعل بنوع تأويل.

وكان أبو ذر رضي الله عنه أصلح منه في الأمانة والصدق ومع هذا قال له النبي ﷺ:

«يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرنّ على اثنين ولا تولين مال يتيم».

فنهى أبا ذر عن الإمارة والولاية لأنه رآه ضعيفاً مع أنه قال ﷺ: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر».



وولى النبي ﷺ عمرو بن العاص على مَن هو أفضل منه في غزوة ذات السلاسل، استعطافاً لأقاربه الذين بعثه إليهم، وولى ﷺ أسامة بن زيد وهو شاب صغير لأجل ثأر أبيه.

ومن هنا نفهم أنه ﷺ كان يولي بعض الناس بعض المناصب رعاية للمصلحة، مع أنه قد كان يكون مع الأمير من هو أفضل منه في العلم والإيمان.

وكذلك فعل سيدنا أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ رضي الله عنه، حيث ظل يستعمل خالد بن الوليد في حروب الردة، وفي فتح العراق والشام، على الرغم من أن خالدًا قد وقع في بعض الأخطاء التي عاتبه عليها سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، لكنه لم يعزله لما في الإبقاء عليه من المصلحة التي تزيد عن المفسدة.

وإن كانت الحاجة في الولاية إلى الأمانة أشد، قدّمنا الأمين على القوي. فالموظف المسؤول عن الخزانة وبيت المال مثلًا لا يجوز اختياره لهذا المنصب إذا لم يكن تام الأمانة والورع والتقوى لأن المصلحة لا تقوم إلا بذلك.

وأما مهمة جمع الأموال من مصادر التمويل المختلفة فلابد فيها من القوة والأمانة معاً، فيتولى مهمة الجمع رجل قوي يستخرجها من مصادرها بقوته، وكاتب أمين يحفظها بخبرته وأمانته، وكذلك في إمارة الحرب إذا قام الأمير بمشاورة أولي العلم والدين فإنه يجمع بذلك بين المصلحتين.

كما أن تولية غير المستجمع للشروط جائزة على سبيل الضرورة إذا لم نجد غيره لنوليه هذه المهمة، ولكن يجب مع ذلك السعي لإيجاد البديل بكل الوسائل الممكنة. فتولية المفضول مع وجود الفاضل جائزة إذا تحققت بالمفضول الكفاية. أما إذا لم تتحقق به الكفاية، كانت توليته عند عدم وجود غيره على سبيل الاضطرار الذي يزول بزوال سببه كالتيمم الذي يبطل إذا حضر الماء.



وخلاصة ما سبق أن القوي وإن كان ناقص الأمانة أولى بالتقديم في الأمور التي تحتاج إلى القوة أكثر من حاجتها إلى الأمانة، والأمين ناقص القوة أولى بالتقديم في الأمور التي تحتاج إلى الأمانة أكثر من حاجتها إلى القوة.

أنصار النبي ﷺ

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

@AnsarMagazine

الأمين العام للهيئة

د. محمد الصغير

رئيس التحرير

محمد إلهامي